

الأمم باطون كبر الشوكا نية



في

الفرز التاسع عشر

تأليف

الدكتور محمد صبري

الطبعة الأولى

مطبعة دار الفکر للطباعة والنشر والتوزيع

١٠ شارع ومناشقا (ساحة شارع القادون)

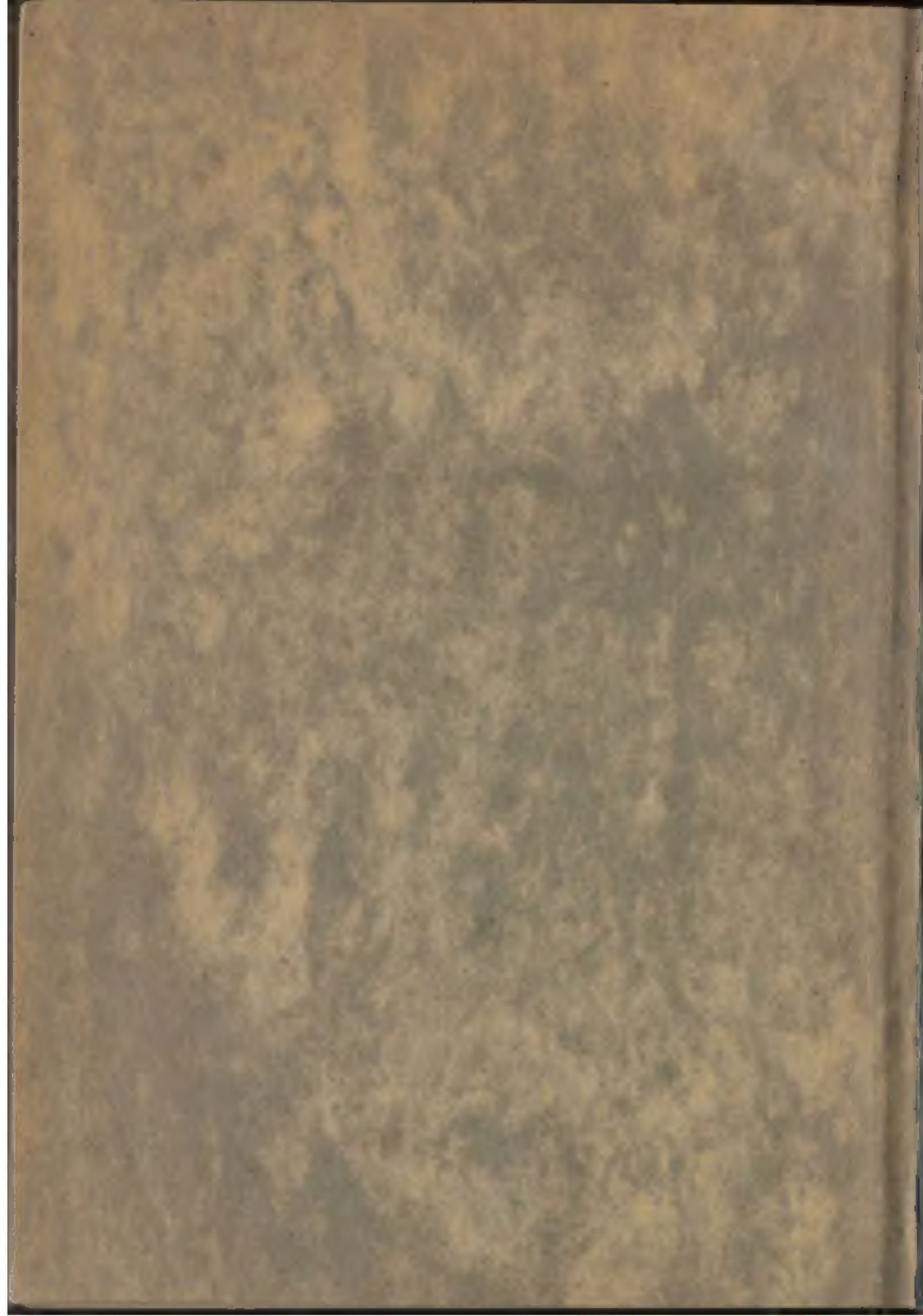
١٩٤٨



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الأمريكية بالقاهرة





02-28118

1-12-02

DT
156.5
S23
1948

الأمير الظور شيخ الإسلام

في

الفرز التاسع عشر

تأليف

الدكتور محمد صبري

الطبعة الأولى

مطبعة مصر للطباعة والنشر
١٠ شارع نواكشا (ساحة جامع الأزهر)

١٩٤٨

971, 43
1. 2. 3.

47494

مقدمة

موضوع الكتاب يبدو في عنوانه (الامبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر) وقد يتساءل البعض هل كانت امبراطورية حقا وهو ما بيناه وأثبتناه بالأدلة التاريخية والجغرافية . وللموضوع اتصال وشيخ بتطور أفريقيا في القرن التاسع عشر ومياسة الاستعمار والتقسيم التي جرت عليها أوروبا . ومن هنا تبدو وعورة الموضوع وتشعبه واشتباك الخيوط السياسية والمصالح المختلفة في جميع أجزائه ونواحيه .

أما طريقة الكتاب ومعالجة الموضوع فهي بصفة عامة الإيجاز مع الوضوح وتركيز الوقائع وقد تجنبنا الأسهاب في بعض النقط كتاريخ القبائل السودانية وتاريخ السودان في عهد محمد علي وسعيد لأن هذه النقط مفصلة في كتاب نعوم شقير وفي غيره من الكتب ولأننا نعني بالناحية السياسية قبل كل شيء وهذه الناحية قد أبرزناها في عصر اسماعيل وما بعده . وقد استعملنا في طريقة العرض والبناء طرقا تختلف باختلاف الفصول فمثلا في الفصل الخاص بالثورة المهدية والسودان من سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٨٩٨ جرينا على طريقة ركم الأدلة وترك الوقائع تتكلم من نفسها . كما أننا لم نفرّد فصلا خاصا للرقيق ولكننا تكلمنا عنه في جميع الفصول لأن الرقيق متصل بجميع كليات الموضوع وجزئياته وتشعباته الكثيرة السياسية والاقتصادية في أجزاء الامبراطورية السودانية وفي أفريقيا . وعلى الرغم من الدراسات والكتابات الكثيرة التي تعرضت للرقيق فإن الغموض كان يكتنفه فكان لابد من السيطرة عليه وإزاحة الظلمة العالقة بنواحيه ...

وقد كنا أصدرنا بالفرنسية في سنة ١٩٣٠ تاريخ (الامبراطورية

المصرية في عهد محمد علي) وفي سنة ١٩٣٣ تاريخ (الامبراطورية المصرية في عهد اسماعيل) . وبفضل رعاية صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول أمكننا الرجوع الى وثائق محفوظات سراى عابدين لغاية سنة ١٨٨٢ تقريبا . أما في أوروبا فقد رجعنا في فينا الى الوثائق الخاصة بمصر محمد علي . وفي باريس الى وثائق وزارة الخارجية لغاية سنة ١٨٧٠ . وفي لندرة لغاية سنة ١٨٨٩ لأن المحفوظات الانجليزية كان من الميسور للباحثين في ذلك الوقت الاطلاع عليها لغاية سنة ١٨٨٥ فقط (أى قبل خمسين سنة) ولكن وزارة الخارجية الانجليزية تفضلت بصفة خاصة وأضافت خمسة أعوام جديدة فكانت هذه يد كبرى لها .

وفي هذين الكتابين كنا استغللنا لغاية سنة ١٨٧٩ الوثائق التي استخرجناها . وكنا شرعنا في اعداد الكتاب الثالث . في هذه الآونة بالذات تحركت المسألة المصرية السودانية بعنف ورأت مصر أن تلجأ الى مجلس الأمن ورأى صاحب الدولة محمود فهمى النقراشى باشا أن يتوطبى كتابة بحث في تاريخ السودان فصعدت بالأمر خصوصا وأن الوثائق وأداة البحث كانت معدة . وكنت سعيدا بحمل هذه المهمة لأن المسألة ليست مسألة وطنية فحسب بل هي أكثر من ذلك ، هي أمانة علمية قبل كل شيء ، هي اظهار حقائق علمية حاول الكثيرون طمسها وتشويهها .

وليس أدل على عدم عناية المصريين بتاريخ بلادهم العناية الكافية ولهم العذر كله أو بعضه من أن أحد كبار نوابنا أدلى حديثا بتصريحات عن أوغندة مملوءة بالأخطاء . وذكرت احدى صحفنا الكبرى الخط الحديدي الذي أنشأه الانجليز بين موباسا وبحيرة فكتوريا وأثره في المشروعات الصناعية الكبرى في هذه المنطقة دون أن تشير الى أن هذا الخط الذي تم انشاؤه في سنة ١٩٠٢ كان في الواقع تنفيذا لمشروع مصرى قديم اذ حاول اسماعيل مرارا أن ينشئ طريق مواصلات منتظمة بين المحيط الهندي والبحيرات وكان هذا الطريق سيمر كالخط الحديث

بين جبل كينيا وكيليا تجارو وهما من أغنى وأجل جبال أفريقيا الشرقية ، وكان مشروع اسماعيل يرمى الى توطيد نفوذ مصر بصفة دائمة على جانبي الطريق ويجعل منه سورا على حدود امبراطوريته ، ولكن انجلترا وقعت في وجه التوسع المصرى مما فصلناه في هذا الكتاب .

وهذه مسألة المستعمرات الايطالية وكلها ، سواء فيما يتعلق بأريتريا أو السومال ، يؤسفنى أن أقول أن مذكراتنا الرسمية لا تتم عن دراسة وافية لها وأن أخطاء تنسب اليها أحيانا .

هذا في مصر . أما في السودان فقد نشر بعض الوطنيين من أنصار وحدة الوادى وقائع عن الثورة المهدية وأسبابها بعيدة كل البعد من الحقيقة . مثال ذلك :

« وكان السودان ايان هذه الحوادث التى تجرى فى مصر وقبلها استهدف لمظالم شرذمة من الحكام الأتراك يحكمونه باسم والى مصر — أذاقت هذه الشرذمة الأهلى صنف العذاب وأثقلت كاهلهم بفرض الضرائب المجحفة التى تفوق الاحتمال والتى لم يكن يصل منها الى الخزينة المصرية شئ ولا ينفق منها على تقدم العمران فى داخلية السودان شئ وانما كانت نها مقسما بين فارضيا وجامعيا من الحكام الأتراك والباشوزق وغيرهم — وتفشيت الرشوة بين الجميع ففسدت اداة الحكم وأراد الأهلون لها بديلا ، وهكذا قد تهيأت الظروف السياسية ، هذا الى جانب العقيدة الدينية المتأصلة فى نفوس السودانين ، ولذا عندما ابتدأت الثورة المهدية فى سنة ١٨٨١ وجدت دعوتها مرتعا خصيبا وانتشرت بسرعة فائقة مكنت لها من قلب نظام الحكم وقد وجد الأهلون فيها منقذا ومغيثا وبما ساعد على نجاحها أيضا قيام الثورة العراقية بمصر التى كانت تجاوبا جيلا لها . وقد كانتا من أهم الحركات الوطنية فى وادى النيل وقد تشابهتا فى الأسباب والأغراض » .

هذه هى النظرية الانجليزية بعينها المتداولة فى الكتب الرسمية وغير الرسمية . وقد نلمس أثرها فى كتب المؤرخين الأوربيين جميعا حتى الموالين

منهم لمصر أمثال ديهيران وغيره من جماعة هانوتو . . .

لذلك عولنا على اصدار هذه الطبعة بلغة البلاد وميزناها على الطبعة الفرنسية بإضافة فصول جديدة (كالفصل الخاص بمحدود الامبراطورية الجغرافية) وبالأطلس الذي اعتمدنا في وضعه على أبحاثنا وتحديدنا وتحقيقنا نحن . فساعدنا ذلك على الاهتداء الى نتائج كبرى جديدة حسبها أنها جعلتنا نحن الذين نشغل بالموضوع منذ حوالى ثلاثين عاما نفهمه أكثر من ذى قبل ونفهمه كل الفهم فى ضوء وضاح . ويجب أن لا يفوتنا أن نقرر أن مشروع السودان والفصل بين مصر والسودان واحتلال منابع النيل وممالكه ومعظم المشاكل الحديثة يرجع تاريخها الى سبعين أو ثمانين عاما مضت وجميع مقدماتها وأصولها واضحة فى تاريخ الامبراطورية السودانية .

ولسنا بحاجة الى القول أننا فى دحض الحجج المفترضة لم نخرج عن الأسلوب « الموضوعى » العلمى واجتهدنا قدر المستطاع فى الاستناد الى وثائق ومستندات انجليزية — أكثرها لم يسبق نشره — لأن للتاريخ فى أعناقنا ذمما لا بد أن تؤديها . وإذا كان الاعتدال من مميزات الروح السياسية فهو من باب أولى من مميزات الروح التاريخية التى يجب أن تهيمن على نفسها أولا حتى تستطيع أن تهيمن على الموضوع وتلبسه فى يسر .

ولا بأس من أن نقول فى الختام أننا اذا كنا قد أصدرنا كل كتبنا التاريخية أولا بلغة أوربية كالفرنسية مثلا فما ذلك الا لأن هذه اللغة لغة علمية كثيرة التداول ولأن الأمانة العلمية وقوة الحكم والتقدير متوفرتان عند الأوربيين ولأن مصدر تشويه الحقائق ونشرها شرقا وغربا هو فى أوربا نفسها .

على أننا نعاهد القراء على أن تنشر بالعربية كل ما كتبناه بلغة غير لغتنا حتى نوفى ديننا نحو البلاد . وها نحن أولاء نبدأ بنشر تاريخ الامبراطورية السودانية والله المعين .

الكتاب الأول

الفصل الأول

تمهيد

السودان من محمد علي إلى سعيد

أ - السودان ومصر القديمة :

ان العلاقات بين مصر والسودان كائنة منذ القدم . يقول الأستاذ رايزنر : « ان البلاد التي كان يسميها القدماء (الأراضي الجنوبية) كانت تشمل جميع منطقة النفوذ المصري غير المحددة الممتدة شطر أفريقيا الوسطى والشرقية . وتدل النقوش على أن أهل هذه المنطقة كانوا من الرجال الحمر الذين يقطنون بلاد (بنت) الشهيرة الواقعة على ساحل الصومال ، والرجال السود في البلاد الجنوبية ، والنوبيين في وادي النيل ، والليبيين في الصحراء الغربية والبدو في الصحراء الشرقية (١) » .

وقد نجح ولاية مصر من أوائل حكم محمد علي (١٨٢١) الى آخر حكم اسماعيل في رد الحدود القديمة الى السودان المصري . وانتشر في عهدهم كما انتشر قديما نفوذ المدينة المصرية في أرجاء تلك « الأراضي الجنوبية » فكان النيل والبحر الأحمر ناقل المدينة الفرعونية قارة والمدينة العربية طورا الى هذه الأقطار . كتب جونستون : « أيا كان الأمر وسواء أكانت

التجارة المصرية أو السيطرة المصرية قد اتصلت أو لم تتصل بطريق مباشر بتلك الأصقاع المحيطة بمناجم النيل فإن نفوذ المدنية المصرية القديمة قد تغلغل في أفريقيا السوداء . وإذا استثنينا بعض النباتات والحيوانات الأليفة التي جلبها البرتغاليون من البرازيل أو التجار الآسيويون من الهند فإن بقية الحيوانات والنباتات قد أتت كلها من طريق مصر . ومن مصر أيضا أتى التفكير في صنع القوارب المركبة من ألواح الخشب ، كالقوارب التي يستعملها سكان أوغندة ، ورسم الآلات الموسيقية الراقية المجردة من تلك البساطة البدائية التي نجدها في الطبول والبوقات المتخذة من قرون بقر الوحش . ولا شك أن أعواد أوغندة هي عين الأعواد التي تبدو صورتها على الآثار المصرية . ومما يدعو إلى الدهشة حين نطالع وجوه الباهيا (أرستقراطية حامية السحنة منتشرة في غرب أوغندة ، والأونيورو ، وطورو ، وفي الجنوب الشرقي من بحيرة فكتوريا والشمال الشرقي من بحيرة تانجانيقا) أن نرى وجوها مصرية بحتة في هيئتها وملاحها ولونها الذي لا يكاد أحيانا يتميز بسمته (١) »

٢ - السودان ومصر في السياسة الدولية :

كان محمد علي (١٨١١ - ١٨٤٩) أو نابليون الشرق يريد توطيد الامبراطورية السودانية في حدودها القديمة التاريخية والجغرافية ولكن عمله الذي لم يتحقق كله قد قدر له أن يتم على يد حفيده اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) . وقد كان هذان العاهلان في الوقت نفسه يعملان على تحقيق استقلالهما التام ازاء تركيا من الناحيتين : القانون والواقع . ولكن أوروبا ما كانت بغافاة ، فمنذ سنة ١٨٣٦ في ابان حرب المورة وقد بدأت مصر تلعب بأسطولها وجيشها دور دولة كبرى أخذ السياسي

(١) هاري جونستون (حماية أوغندة) مجلدان بالانجليزية . انظر الجزء

النمىوى المكنك مفرنلخ لىكذر الدول من « قلام دولة افرففة ءءفة ،
باعبارها خطرأ ظالمأ أعلن فى أوروبا أنه من أجل الأخطار التى
تهءءها (١) » .

وسواء انجهت مصر فى توسعها صوب آسفا أو صوب أفرفففا
أو صوب الائنفن معا كان لابء لها أن تلقى فى كل مكان « قءم انجلترا »
— على كء تعفر مكمء على — وأوروبأ . وهذا مايفسر لنا موقعة
ناوارينو (١٨٢٧) التى ءمر فىها الأسطول المصرى على غرة ، والألب
الدولى الذى أرغم مصر سنة ١٨٤٠ على اسفبقاء السفاة الفركفة وترفك
امبراطورفها الأسفوفة (بلاد العرب ، فلسطين ، الشام ، كلفكفا ،
وآزفرة كرفء) الى فركفا .

(١) بروكش أوسفن (فارفخ انعطاط الفونان) فى خمسة أآزاء بالامانفة .
انظر الآءء الخامس .

الفصل الثاني

السودان من ١٨٢١ إلى ١٨٦١

لقد حكم السودان منذ فتحه حكام قادرون مصلحون . أولهم الميرالاي عثمان بك (١٨٢٥ - ١٨٣٦) ولكن هذا الوالي كان ظالما فعم القحط والبلاء البلاد في أيامه وقد مات بداء السل في أبريل سنة ٢٦ . وحسبه أنه أول من جعل الخرطوم مركزا له فنقل إليها أقالام الحكومة والمخازن والأشوان وصارت من ذلك الوقت عاصمة السودان .

وقد خلفه في الولاية محو بك (١٨٣٦) فبقى بضعة أشهر وكان رجلا عادلا وهو أول من فكر في اشراك الأهليين أى السودانين في حكومة بلادهم اشراكا فعليا ، وقد هدته حصافته وذكاءه الى الاستعانة برأى الشيخ عبد القادر ود الزين « وكان اذ ذاك شيخ خط فقلده شياخة قسم الكوع وكساء كسوة فاخرة » وقد بنى محو بك بناية خاصة للإدارة الحكومية في الخرطوم .

خورشيد باشا (١٨٣٦ - ١٨٣٩) أول حاكم نظم السودان وأسس مدينة الخرطوم وأقام فيها المنشآت وعمل على تعمير البلاد وارجاع السكان الذين هجروها في عهد الدفتردار وعثمان بك . يروى أنه لما حضر واليا على السودان (يونيه ١٨٣٦) استقبله محو بك في أم درمان وخلا به مدة ثم أحضر الشيخ عبد القادر وقدمه اليه وقال : « ان عمران البلاد برؤوسها أهل الرأى فخذ برأى هذا » ثم توجه الى القاهرة واجتاز خورشيد باشا النيل الى الخرطوم فعمل بوصية محو بك وقرب اليه

الشيخ عبد القادر ثم جمع مشايخ البلاد وسألهم أن يختاروا شيخا لينوب عنهم لديه في تعديل الضرائب فاختاروا الشيخ عبد القادر فاستعان به على تعديلها وقلده المشيخة على جميع البلاد من حجر العسل الى جبال الفونج وخلع عليه كسوة فاخرة وسيفا .

وقد ذهب في بداية ولايته الى سنار وتفقد أحوالها وما أصاب أهلها من قحط فجمع هناك مجلسا من رؤساء الادارة ، وقد سجل محضر اجتماع ذلك المجلس الكبير في ٨ محرم سنة ١٢٤٢ هـ (١٢ أغسطس ١٨٢٦) في تقرير طويل بعث به خورشيد باشا الى محمد علي ، وهذا التقرير (سجلات القلعة القديمة) يبين عن جميع عيوب الادارة السابقة من اهمال وظلم في جباية الضرائب وفساد في الادارة وقد كان اقليم سنار يبابا بعدما جرده القحط وخف آهله فلم يبق في ١٤٥ قرية الا ٥٩٩ قطينا وكانت المجاعة والهجرة والوباء قد فعلت فعلها في سكانه ، ولم يكن من الميسور تحصيل الضرائب من قوم مدقعين . وقد قرر المجلس وضع حد لهذه الحال وتشجيع الزراعة ببناء السواقي لرى الأرض وإيجاد نظام جديد للضرائب يتناسب مع الحالة العامة ومقدرة كل فرد وبالجملة العمل على نشر الثقة والطمأنينة حتى يعود المهاجرون وتعود الأمور الى مجاريها .

وقد عمل خورشيد منذ سنة ١٨٢٦ على تنفيذ ذلك البرنامج الاصلاحى الذى وافق عليه والى مصر وبادر بارسال ١١٨ اخصائى لتعليم سكان سنار والسودان زراعة الأرض كما بادر بارسال رؤساء عمال لنشر الصناعة ومبادئها وخصوصا صناعة الفخار وبناء السفن .

ومن أجل أعمال خورشيد باشا منشأته بالخرطوم . كانت هذه المدينة قبل أن يستوطنها المصريون بضع عشش للصيادين مبعثرة بالقرب من ملتقى النيلين . فجعل فيها الحاكم المصرى مركز الادارة العامة للسودان وأوجد الشكن والترسانة والمباني العامة المشيدة بالآجر والرياض

وحدات الخضر والفاكهة . وهو أول من اجتنب السكان الى المدينة وحشهم لأول مرة على بناء منازلهم بالطوب المجفف في الشمس وكانوا لا يعرفون قبل ذلك الا البناء بالقش وأعواد الشجر وجلود البقر .

وقد حدثت رحلة والى مصر محمد على الى السودان في أواخر سنى حكم خورشيد باشا (١٨٣٨ - ١٨٣٩) بعد أن سلخ السبعين فكانت رحلة كلها بين واسعاد .

ظهر وصف هذه الرحلة بالتركية في وقائع ٦ صفر سنة ١٢٥٥ هـ (٢١ أبريل سنة ١٩٣٩) . وهذا أهم ما جاء فيه :

« بدأ سموه الرحلة في ١٥ أكتوبر سنة ٣٨ . فبلغنا الخرطوم في ٦ نوفمبر .

« مدينة الخرطوم ، العاصمة الحالية لسنار ، تقع على درجة ١٦ من خط العرض على بعد ربع فرسخ من ملتقى فرعى النيل . ولم تكن من خمس عشرة سنة خلت الا مجموعة من عشرة أكواخ « توكول » فلما رأى خورشيد باشا حسن المكان وطيب هوائه دعا أسرا عديدة من سنار وبعض عرب الصحراء الى الإقامة فيه وبناء منازلهم . وقد أصبحت الخرطوم اليوم مدينة مكونة من خمسمائة بيت مشيد بطريقة نظامية ، ومستشفى ، ومخازن وأشوان كبيرة وحدات مختلفة بنيت فيها وينضج في الشتاء التين والعنب ...

« (واد مدنى) مدينة عظيمة بسبب السوق التى تقوم فيها كل عام وتندوم ثلاثة أشهر . وسكانها ثلثمائة أسرة جيدة المسكن . وهى كالخرطوم لما تكتننها ومستشفاهها وشونها .

« و (سنار) كانت مقر الملك فى مملكة سنار القديمة . ومنازلها مبنية بالأجر وهى فى مجموعها حسنة المنظر .

« غادر سمو الوالى الرصيرص فى ١٠ يناير فوصل الى جبال فازوغلى فى الثامن والعشرين منه .

« وينقسم سكان السودان الى ثلاث طبقات : سكان القرى ، والبدو أو سكان الصحراء ، وسكان الجبال . وللقرويين والبدو لون نحاسى ، يشبهون الأحباش فى هيئة أجسامهم وملامحهم ، وهم مسلمون على مذهب ابن مالك . أما الجبليون فهم وثنيون يعبدون الأشجار ، وهم من جهلهم فى ليل لائل لا يكادون يميزون بين الأرض والسماء .

« ومن عاداتهم أنهم عند الغزو تتعالى صيحاتهم الحادة ، ويرجعون فى المعارك ، وتصحبهم نساءهم فى الحروب لحمل الماء والزاد . وهم يبيعون أسراهم ، ولا يهاجمون فى الليل أحدا . وفى التهار شجعان مغامرون لا يرحمون ، يسرق بعضهم بعضا محاصيل الذرة والنساء والأطفال يتجرون فيها . وقد أعلن سمو الوالى فى كل مكان تحريم الغزوة ...

« ومن فازوغلى ذهب الوالى الى فازانجورو ثم هبط من جبال فازانجورو فى ٣١ يناير الى السهل حيث يصب خور العادى فى النيل الأزرق ، وقد اختار هذا الموقع لإنشاء مدينة جديدة .

« وأرض سنار غاية فى الخصب والجودة .. وإن تكن الزراعة فيها لا تزال مهمة كل الإهمال . وقد توجد فى دققة بعض الآلات الزراعية ، ولكن فى البلاد الواقعة فوق هذه المنطقة يكتفى الزراعة بإثارة الأرض بقطع خشبية غالظة . وقد وزع الوالى مائة فدان من الأرض علاوة على أجرهم الثابت على المهندسين المصريين الذين اشتغلوا فى ريف مصر وصعيدها وخبروا الزراعات المختلفة ، وقدم لهم الآلات والحيوانات الضرورية ، ثم ألحق بكل منهم طائفة من شباب كل إقليم سودانى . ليتعلموا فى كنفهم شؤون الزراعة ، وأعفاهم من الضرائب خمسة أعوام . ولاشك أن هذه المزارع النموذجية سيعم نفعها وسيكون أهم ما ينبت فيها قصب السكر والقطن والنيلة ...

« ثم جمع الوالى بعد ذلك حوله بعض كبار المشايخ وخلع عليهم الخلع وخطب فيهم ونصحهم ان يقتدوا بالشعوب الأخرى التى كانت متوحشة ثم تمدنت وانتقلت من حالة الخشونة والجهل الى حالة الأئس والمعرفة .

« أبهر الوالى فى خطابه فأعلن جميع المشايخ على الفور رغبتهم فى إرسال أبنائهم الى مصر ، وكان أكبرهم الشيخ عبد القادر لا ولد له فما عثم أن التمس إرسال ابن أخته .

« وأعلن الوالى حرية تجارة النبلة التى يغزر زرعها فى مديريات دنقلة وبربر وأمر الحاكم العام بتقديم الآلات اللازمة وكل ما لا بد منه لتقدم هذه الزراعة .

ثم قفل راجعا فى ٣٠ ذى العقدة (١١ فبراير) وعاد الى القاهرة فى ١٤ مارس سنة ٣٩ هـ . »

أحمد باشا أبو ودان ^(١) (١٨٣٩ — ١٨٤٤) . وطد أحمد باشا الأمن فى ربوع السودان ونظم الدواوين والادارة وعمل على ترقية الزراعة والصناعة والتجارة وشجع الملاحة وبنى سفنا كثيرة كانت نواة البحرية التجارية فى السودان . ومن أكبر مآثره احتلال اقليم التاكه فى سنة ١٨٤٠ وتوسيع الفتوحات المصرية فى السودان الشرقى ، وقد قصد بحيشه بلاد الخلائقة وكانت اقامتهم على نهر القاش فدانوا له بالطاعة وأمر عليهم محمد إيل . فلما رأت قبيلة الهدندوة ذلك ، وهى قبيلة ذات نأس وعدد وشحن على الخلائقة ، تمردت عليه وجمعت جموعها شمالى كسلا فى غابتي وهباى والكتياب فحول أحمد باشا مجرى القاش فعمطشوا ويس الزرع والشجر فأشعل النار فى الغابتين فذعروا فلحق بهم وأعمل فيهم القتل وأسر شيخهم فدانوا له بالطاعة وأخذ منهم الجزية .

(١) ذكر نعوم شقير بك فى « تاريخ السودان » ان رحلة محمد على حدثت فى أيام أحمد باشا أبو ودان أى فى المدة من ١٥ أكتوبر سنة ٣٩ الى ١٤ مارس ١٩٤٠ والحقيقة أنها حدثت فى سنتى ٣٨ و ٣٩ كما ذكرنا .

وعاد أحمد باشا الى الخرطوم بعد أن ولي مديرا على كسله ثم أرسل البكباشي الياس أفندي الى بنى عامر فقاتلهم وأخضعهم وضرب عليهم الجزية .

وبعد فتح التاكة قسم السودان الى سبع مديريات : فازوغلى وسنار والخرطوم وكسله وبربر ودنقلة وكردفان .

أحمد باشا المنكلى (١٨٤٤ - ١٨٤٥) - قال نعوم شقير انه لم يمكث الا قليلا بالخرطوم حتى عاد أهل التاكة الى الثورة فجرد جيشا لمحاربتهم وسار لقاتلهم ومعه الأرباب محمد دفع الله والشيخ عبد القادر والشيخ أحمد أبو سن كبير الشكرية فأسر رؤوس العصاة وعاد بهم الى الخرطوم فضرب رقابهم ، وفى أواخر سنة ١٩٤٥ عاد الى مصر ومعه الأرباب محمد دفع الله والشيخ عبد القادر الزين فأكرمهما محمد على وأعجب بذلكاء الشيخ عبد القادر وفصاحته وقال « ماكنت أظن أن بلادا ليس فيها شيء من أسباب التمدن والتهذيب كبلاد السودان يخرج منها مثل هذا الرجل » .

عبد اللطيف باشا (١٨٥٠ - ١٨٥١) - عمل على اصلاح الادارة التى اخلت فى عهد سلفه خالد باشا فأزال المظالم ونشر العدل وهو الذى جدد ديوان الحكمدارية أو سرايها فى الخرطوم فبقى الى الثورة المهدية وأنشأ مدرسة أميرية برئاسة رفاعة بك الطهطاوى ويومى بك اللذين تفاهما عباس باشا وقلد الشيخ عبد القادر وظيفة معاون الحكمدارية مع مشيخة مشايخ عموم الجزيرة .

على باشا شركس (١٨٥٥ - ١٨٥٧) - أهم حوادث ذلك العهد اثنتان الأولى انتشار الهواء الأصفر وموت خلق كثير منهم الشيخ عبد القادر شيخ مشايخ الخرطوم وسنار وقد خلفه ابنه الزبير فبقى فى الخرطوم زمنا ثم ذهب الى مصر فعين معاونا فى نظارة الداخلية .

والثانية زيارة سعيد باشا للسودان وقد أعلن سعيد باشا رغبته في ترك السودان ولكن السودانيين خشوا مغبة الترك وعودة القوضى الى البلاد فحاولوا دون تحقيق هذه الفكرة الشاطة واكتفوا بالمطالبة بتحقيق بعض الاصلاحات العاجلة . وقد أقص الوالى الضرائب وأتخذ اجراءات كثيرة مطابقة لرغبات السكان وكان من أهم ما قام به تعيين أراكيل بك نوربار حاكما للسودان (١٨٥٧ - ١٨٥٩) ولاشك أن تعيين مسيحي في ذلك المنصب دليل على روح التسامح عند الوالى وتقديره لما اشتهر به أراكيل من حزم وعدل وكفاءة في الادارة وتصريف الأمور وقد تجلت هذه الصفات والمواهب حين همت طائفة من السكان بالثورة على هذا التعيين وسرعان ما انقادت له الأحوال واستقرت .

الكتاب الثاني

السودان في عصر اسماعيل

الفصل الثالث

السودان من ١٨٦٣ إلى ١٨٧٧

كان ابراهيم يقول بعد تفكك الامبراطورية المصرية في سنة ١٨٤١ ان عظمة مصر الحقيقية وميدان توسعها في السودان وكان نوبار باشا كبير وزراء اسماعيل اول من آمن بهذه الفكرة ونصح الوالى بنبذ كل فكرة توسعية ناحية الشام على أن تكون مهمة مصر الكبرى وغايتها الأولى نشر الحضارة في أفريقيا . (١)

جعل اسماعيل هذه الفكرة محور سياسته وقطب الرمح فيها سيما وأن مصر كانت دولة أفريقية . وغير خاف أن الهمجية وعاداتها كانت سائدة في القارة السوداء حتى تسرب اليها نفوذ العرب والاسلام قبل نزوح الأوربيين اليها بزمن حاملا لواء مدنية عالية .

وقد كان الاحتلال الرومانى بدء اجتذاب العرب في أفريقيا . وفي أوائل القرن الثانى الميلادى كانت مصر ومراكش وجميع البلاد الواقعة على الساحل في شمال أفريقيا واقعة في قبضة الغزاة المسلمين الذين نشروا في ربوعها حياة جديدة زراعية وتجارية وأدبية وأسسوا دولاقوية وعواصم

(١) مذكرات نوبار باشا المحفوظة في باريس في خزانة الاسرة

حضارة زاهية زاهرة في القاهرة وقيروان وفاس . وأوغل العرب
النازحون تدريجيا في داخل أفريقيا ، في جميع المناطق التي يستطيع أن
يعيش فيها الجمل وينعم .

نزع العرب الرحل من وادى النيل الأعلى أو من سواحل البحر
الأحمر وأوطنوا السودان والبلاد التي يسقيها مجرى النيجر الأعلى وأسسوا
على ساحل أفريقيا الشرقى مقدشو وقياؤه وبراوة وميلندة ومونباسة .
وامتد الاسلام الى زنجبار وجزء من الحبشة وهرر وبلاد الصومال
وكردفن ودار فور ووداي وقانم وسكوتة وباجرمه وبلاد أخرى كثيرة .
وكان النفوذ العربى الاسلامى قبيل تقسيم أفريقيا ، في حوالى
سنة ١٨٨٠ ينتشر رويدا في قلب أوغندة والقارة السوداء .

١ - السودان من سنة ١٨٦٣ لغاية ١٨٧٧ :

موسى باشا حمدى (١٨٦٢ - ١٨٦٥) .

كان موسى باشا حاكم السودان وقت ولاية اسماعيل (١٨٦٣) . وقد
كان ذا خبرة طويلة بشؤون البلاد وكان يريد وضع حد لشكاية السكان
وجفوتهم من جراء فداحة الضرائب وعلى الأخص الطريقة العسوف التي
يستعملها الباشبوزق في جبايتها وهم جنود السلطة غير النظاميون وعماها .
وقد أصدر قرارات تحدد مقدار كل ضريبة في سجلات الحكومة وسلم
دافعى الضرائب دفاتر أو سراكى يقيّد فيها الموظف المختص كل مبلغ يدفع
من أصل المبلغ الموزع على ثلاثة أقساط في العام . وعين من السكان
رؤساء ووكلاء مراكز .

جعفر باشا مظهر (١٨٦٦ - ١٨٧١) :

أعقب جعفر باشا مظهر جعفر باشا صادق الذى كان حاكما للسودان
في سنة ١٨٦٥ . ومن أهم أعماله انشاء المحاكم والمدارس وتحسين ترسانة

الخرطوم . وكانت سياسته في مجموعها سياسة اصلاحية . وهو الذي أخذ ثورة الجنود في كسلا التي ابتدأت في عهد حمدي باشا سنة ١٨٦٥ ، وكان أكبر عون له في ذلك آدم بك المشهور الذي صار فيما بعد باشا وقائد الجيوش المصرية في السودان .

وآدم باشا عربي سوداني مسقط رأسه في كردفان وفي رواية زنجي من الدنكا ، وقد تلقى العلم صغيرا في مصر ، وصحب ابراهيم باشا في حروبه في الشام . وفيها أظهر شجاعة فادرة وكفاءة ممتازة . وقد ذكر الخديوى اسماعيل كل ذلك لرفيق أبيه القديم فأجزل له من العطاء والرتب واستمرت بذلك تقاليد مشاركة السودانيين في الحكم مع المصريين . وكان في ذلك الوقت سوداني آخر ، حسين باشا خيفة ، حاكما على مدينتي بربر ودنقلة .

اسماعيل باشا أيوب (١٨٧٣ - ١٨٧٧) :

من سنة ١٨٧١ لغاية ١٨٧٣ كان ممتاز باشا حاكما للسودان . وهو شركسي على الفطنة محب للإصلاح . وحسبه انه أول من أدخل زراعة القطن المصري في السودان وعنى بصناعاته ولكن تقارير وصلت الى القاهرة تتهمه بالرشوة فالتقى القبض عليه وحقق معه وظل في سجنه بالخرطوم الى أن مات سنة ١٨٧٥

كان خلفه اسماعيل باشا أيوب أحسن منه حظا . كتب السير صاموئيل بيكر في أثناء رحلة العودة من السودان في يولية ١٨٧٣ يقول : « لقد أدخل اسماعيل باشا تحسينات كبيرة في مدينة الخرطوم . وهو الذي أكل بناء مستشفى الحكومة الذي بدئه سلفه ممتاز باشا ، وهو شركسي مثله . وهو مثله أيضا في قوة ذكائه . وبفضل عنايته تحولت أراض واسعة جرداء الى حديقة عامة تصدح فيها كل مساء الموسيقى العسكرية . » وفي أيامه أيضا بدئت أعمال الري بواسطة البخار على الضفة الشمالية من النيل لزراعة القطن .

« وقد قضينا أياما في الخرطوم ثم ودعنا صديقنا الجليل اسماعيل باشا أيوب وسافرنا الى مصر في باخرة .

« وقد تركت لاسماعيل باشا غلامى سعد وبلال لينشئهما نقشة موسيقية أو عسكرية ، وكانت الأخيرة أقرب الى مشتهاها . وكانت في الخرطوم في ذلك الوقت مدرسة لتعليم أذكى الشبان السود الذين يصير من الميسور تحريرهم من تجار الرقيق .

« ولما بلغنا بربرا وجدت تحسنا ظاهرا في حالة البلاد اذ بدأ العرب في اعادة بناء سواقيهم على ضفاف النهر الخصبة . وتلك احدى نتائج اصلاح حكيم قام به الخديوى : وهو تقسيم السودان الى مديريات يحكم كل مديرية مدير مسئول لا يخضع ثمت للحاكم العام الذى كان يقيم في بلد فصى كالخرطوم (١) » .

وكتب مسيو جيجلر ، مدير البرق بالخرطوم ، يقول :

« لقد عاد اسماعيل باشا أيوب من دارفور من شهر مضى بعد غيبة عامين . وقد كان استقباله عظيما . وهو محبوب جدا في جميع البلاد التى يحكمها بحزم وعدل . وقد وجدت في الخرطوم تحسينات عظيمة وفتحت فيها شوارع واسعة فسيحة وأصبحت المدينة أكثر بهاء ، وأهم من ذلك ، أصبحت مصحة بعد أن كانت كثيرة الأوباء (٢) » .

وكتب أحد قناصل فرانس قديما بالخرطوم يقول :

« انه محبوب جدا في السودان حيث بدأ ينشئ مزارع قطن ونيلة ويعمل نظام الضرائب بمنع مشايخ العرب من جبايتها وإيجاد نوع من الرقابة لا يزال باقيا الى اليوم (٣) » .

(١) صموئيل بيكر (اسماعيلية) فى مجلدين بالانكليزية . انظر الجزء الاول ص ٤٨٧ - ٤٨٨ .

(٢) Douglas Murray and Silva White. Sir Samuel Baker. A Memoir (٢) من جيجلر الى صاموئيل بيكر بتاريخ ٣٠ مايو سنة ١٨٧٦

(٣) Louis Vossion. Khartoum et le Soudan d'Egypte. Nouvelle Revue Mars, 1883

وقد لعبت تجارة الرقيق في عهد ذلك الحاكم كما لعبت في عهد جميع الحكام السابقين واللاحقين دورا كبيرا في تاريخ السودان . وكانت أهم مراكز هذه التجارة في أقاليم كردفان وبحر الغزال ودارفور الجنوبية النائية . وكانت دارفور في سنة ١٨٧٤ لا رقابة لمصر عليها فكان لا بد من اخضاعها لسلطانها قبل أن يسيطر عليها تجار الرقيق الذين كانوا بفضل ثروتهم وعصاباتهم المسلحة الأجيعة سادة أفريقيا الوسطى وخطرا يهدد السيادة المصرية الفعلية على هذه الأقطار .

ومنذ سنة ١٨٦٩ فقط بدأت مصر تنظر الى النخاسة والنخاسين كخطر سياسى تخشاه ولكنها كانت لا تريد استعمال العنف لمحاربة النخاسة الا عند الضرورة القصوى على أن يكون ذلك بمنتهى الحكمة والمصانة حتى لا تثار ثائرة المصالح المختلفة المرتبطة بهذه التجارة المشروعة القديمة .

وقد بنى من مهارة حكام السودان المصريين أنهم كانوا عند ضرورة الالتجاء الى القوة ضد النخاسين يدفعون بعضهم الى مهاجمة البعض ويؤكدون بذلك ، دون تضحية ، سلطانهم عليهم .

وهذا ما حدث في سنة ١٨٦٩ عيناها فان نخسى بحسر الغزال قد أحسوا بقوتهم و أرادوا تحدى الحكومة المصرية فامتنعوا عن دفع المبلغ السنوى المتعاقد عليه . وكان على رأس أولئك النخاسين العصاة زبير رحمت الذى ذاع صيته في أرجاء السودان وكان في الواقع أكبر شخصية سودانية في القرن التاسع عشر .

زبير رحمت من سلالة العباسيين الذين نزحوا من بغداد الى مصر فأعلى النيل على أثر غزو التتر في سنة ١٢٧٨ هجرية . وكان متصفا بالذكاء والفطنة والشجاعة والاقدام فساعدته هذه الصفات ، وكان وكيلا في بحر الغزال لعلى عمورى التاجر بالصعيد ، على أن يصبح في سنوات

قلائل ملكا غير متوج له قصر وجيش وحصون وزرايب فى طول خط
أعلى النيل وترساة وسفن وثروة ضخمة .

وكان الخديوى اسماعيل ألب عليه فى سنة ١٨٦٩ بلال أحد النخاسين
وعينه مديرا لبحر الغزال ليوطد فيها سلطته المزعزعة ويحتل دارفور
بعد ذلك ولكن زبير أوقع بلالا فى كمين وقتله ومزق الحملة التى كان
على رأسها شر ممزق .

وفى أثناء ذلك قامت أسباب نزاع وعراك بين السلطان ابراهيم
سلطان دارفور ورحمت زبير الذى بدأت قوته المتزايدة تقلقه وتخيفه .
فما كان من الزبير الا أن أخذ يعد العدة لغزو دارفور من الجنوب ويعمل
على بسط سلطانه وتنفوذه بطريقة لا تتلاءم مع مصالح مصر .

وكان اسماعيل باشا أيوب يعلم ذلك ويرقب الحوادث فشرع من ناحيته
ينأهب لغزو دارفور من الشرق على أن يترك زبير يغزوها لحساب مصر .
وكان الزبير قد استولى فعلا على بحر الغزال وعلى شاكه وهى القسم
الجنوبى من دارفور فما كان من الخديوى الا أن بادر بتعيينه حاكما على
البلاد التى فتحها وأمره باتمام فتح دارفور بالتعاون التام مع أيوب باشا .

وما عثم الزبير أن كتب له النصر فى دارفور فى سنة ١٨٧٤ على أثر
معركة حاسمة قتل فيها السلطان ابراهيم واثنان من ولده وصارت
دارفور كلها فى قبضة المصريين . عندئذ أنعم الخديوى برتبة الباشوية
على الزبير الذى لم يرض بها اذ كان يطمح بحق فى وظيفة الحاكم العام
للمديرية الجديدة .

لذلك قرر الزبير الذهاب الى القاهرة ليرفع ظلامته الى الخديوى
شخصيا . وقد حل محله ابنه سليمان فى أثناء غيبته التى طال أمدها على
غير انتظار . ذلك لأن الخديوى تذرع بكل الوسائل لابقائه فلاينه
وجر له الوعود .

وكان أول أثر لاحتلال المصريين دارفور ودخول قواتهم العسكرية فيها انتشار الأمن والنظام في ربوعها . أنشأ اسماعيل أيوب في مختلف أصقاع السودان مراكز صحية علاجية منتشرة من البحر الأحمر الى النيل ، بين سواكن وبربر ، ومن النيل الى حدود واداي وفي دار فريت بين الخرطوم ودارفور .

* * *

يبدو مما تقدم جليا أن السودان في عهد الادارة المصرية منذ عهد محمد علي كان في تقدم مستمر على الرغم من جميع الأخطاء والمصاعب التي لا محيص عنها في عصر انتقال وتجارب وتكاليف توضع فيه الأسس الأولى للنظام والعمران ، في عصر يعتبر بحق أشق مرحلة من مراحل الانشاء . وقد حدثت في جميع الميادين اصلاحات كبرى أو محاولات اصلاحية واسعة كان لها أثر كبير عاجل أو آجل في الحياة العامة . وقامت المدن واتسعت وسد « السلم المصرى » في كل مكان . ورجعت الصحراء والقوى لرجعية المضطربة الفقهري أمام التوسع المصرى .

وعلى الرغم من كثرة النفقات التي يتطلبها الفتح والتنظيم كان السودان خالبا من الديون تهي ميزانيته بحاجاته . كتب المالى الشهير (كيف) ، الذى أرسل الى مصر لبحث حالتها المالية ، في تقريره الذى صدر سنة ١٨٧٦ يقول : « ان المعلومات التي استخلصناها تدل على أن السودان بلد غنى بأرضه وسكانه وقمحه . ويتبين من الاحصاءات الرسمية انه بعد خصم تكاليف حملة دارفور وحملة البحيرات الكبرى يبلغ الفائض في الخزانة مائة وخمسين ألفا من الجنيهات هي مقدار الدخل » . والواقع أن الاختلال المالى كان جرثومة في البحيرات الاستوائية (حملة بيكر ١٨٧٠ - ١٨٧٤) ، ثم استفحل فيما بعد في دارفور (ادارة غردون ١٨٧٧ - ١٨٧٩) وكانت السياسة الانجليزية هي القاضية على معظم النتائج الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي حصل عليها الحكم المصرى بكل مشقة في مسافة نصف قرن وأكثر .

الفصل الرابع

امتداد السودان إلى البحر الأحمر والمحيط الهندي

السومال وهرر

(١٨٧٠ - ١٨٨٠)

ابتداء من سنة ١٨٦٥ أخذ اسماعيل يتبع سياسة إيجابية في البحر الأحمر ليضمن لمصر السيادة التامة على الساحل الأفريقي لذلك البحر الذي كانت تركيا تهيمن على ساحله الأسيوي .

وكانت الخطوة الأولى لتحقيق هذا الهدف هي تنازل الباب العالي لوالى مصر عن ميناءى سواكن ومصوع .

في سنة ١٨٦٦ ، بتاريخ ٢٧ مايو ، صدر فرمان يمنح « الحكومة الوراثية في مصر وفي جميع الملحقات والأراضى التابعة لها وفي قائممقاميتى سواكن ومصوع » .

وما كادت تفتح قناة السويس في سنة ١٨٦٩ وتظهر للعالم أهمية البحر الأحمر حتى كان اسماعيل قد مد سلطان مصر على سواحل البحر الأحمر الأفريقية وكان احتلال مين السومال المواجهة لعدن بصفة خاصة يقلق السياسة الانجليزية .

ظهرت آثار هذا القلق وبوادره في العلاقات الانجليزية المصرية منذ شق القناة : من ذلك ان عراكا نشب بين قبائل بلهار وبربرة على خليج عدن فذهب جمالى بك ليصلح بين الطرفين ويوطد السلام فما كان

من حاكم عدن القائد ادوارد راسيل بمجرد علمه بوصول جمالي بك في هذه الأصقاع الا أن كتب اليه يسأله عن سبب مجيئه وعما اذا لم يكن الدافع له فكرة الفتح والاستيلاء (أبريل سنة ١٨٧٠)

وقد وجه شريف باشا وزير الخارجية المصرية بهذه المناسبة ، الى قنصل إنجلترا العام ، بتاريخ أول يونية سنة ١٨٧٠ ، خطابا يؤكد فيه حقوق مصر ، قال فيه : « ان الأراضي المذكورة ليست مستقلة ، انها تظل كما كانت دائما عثمانية . وهي ضمن البلاد التي تنازل عنها الباب العالي للحكومة المصرية بمقتضى فرمان سلطاني نص فيه على مديريات مصوع وسواكن وملحقتهما . على أن مصر لاتزال تدفع جزية سنوية مقابل ذلك .

« فلا يسع الحكومة المصرية مطلقا أن تترك الحقوق الثابتة التي لها على هذه البلاد (١) » .

حقيقة الأمر ان إنجلترا كانت تريد أن تعقد مع قبائل السومال كما عقدت من قبل مع قبائل عدن معاهدات تجارية وأن توجد معها علاقات وارتباطات تجذبها في دائرة نفوذها .

ولكن اسماعيل لم يكن غافلا . اذ كان سطوله في البحر الأحمر بقيادة جمالي بك مكونا من ثمان سفن ، وكانت محطات الأسطول في بورسعيد والاسماعيلية والسويس وجميع الساحل الأفريقي لغاية أقصى نقطة في شرقي خليج عدن .

وفي يونية سنة ١٨٧٠ عين ممتاز باشا حاكما عاما على جميع الساحل الأفريقي من السويس الى جردقوى . (المرجع السابق)

ولاشك أن وجود سلطات مصرية في هذه الأرجاء كان عاملا في إيجاد

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية مجلد ٣١٨٦ .

النظام ووضع حد للحروب المستمرة بين القبائل وما الى ذلك من عادات
همجية كسرقة الأطفال لبيعها أو بيع الأطفال لشراء البقر .

ولم تغض سنوات قلائل حتى ظهرت آثار المدنية المصرية في تلك الأقطار
النائية وأخذت مدينة بربرة في بلاد السومال منذ سنة ١٨٧٣ تحيا حياة
جديدة وتنعم بالسلم والأمن بعد حياة الفوضى والنهب والسلب والقتل .

كتب الكولونيل استانتون من الاسكندرية بتاريخ ١٥ سبتمبر
سنة ١٨٧٤ الى وزير الخارجية الانجليزية يقول :

« لعل مولاي يسمح لي بأن أقرر أن ايجاد ادارة منتظمة على ساحل
السومال تقضى على أسباب النزاع الداخلية بين القبائل وعلى المعارك التي
تعطل التجارة في هذه الأرجاء خير لنا ولأملاكنا في عدن من معاهدتنا
التجارية مع مشايخ بربرة وزيلع وتاجورة (١) » .

وقد تنزل الباب العالي لمصر عن زيلع في يونية سنة ١٨٧٥ مقابل
دفع ١٥٠٠ جنيه تركي سنويا فأخذ اسماعيل ينشئ في تارجورة وغيرها
حكومات تتصل بسكان البلاد الداخلة وتفتح الطرق للتجارة .

كتب الضابط وود الى السير البوت سفير إنجلترا بالاستانة في
٦ أغسطس سنة ١٨٧٥ يقول : « ان النازل عن ميناء زيلع والاستيلاء
على بربرة يجعلان ساحل البحر الأحمر الغربي كله في قبضة مصر ، ولا ريب
أن المناطق التي كانت من قبل مستوحشة لا يستأنس بها أحد المصريون
يصلونها عاجلا بالعالم المتمددين ، وقد اختصر « التنغراف » بينها وبين
سواكن زهاء نصف البحر الأحمر الجنوبي ، ومن السهل الاتصال بهذا
الميناء من أى فواحي الساحل اذ يوجد في كل قرية موظف مصري ومعه
طائفة من الحند لحفظ النظام ويوجد بريد شهري منتظم بين السويس
وموضوع تحمله سفن بخارية تجرى بالقرب من الساحل الغربي بين

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٧٨ ، مجلد ٣١٨٧ .

الصخور ، وكثيرا ما تلمح هذه السفن اشارة الاستغاثة » .
وقد ختم كلمته بتعديد خدمات السلطات المصرية في البحر الأحمر
للملاحة والمدنية (١) .

كان هدف اسماعيل العام التقدم في الساحل والايفال في داخل البلاد
في وقت واحد مع تدعيم احتلاله بتنفيذ سياسة اصلاحية واسعة وهذا
ما حدا به بمجرد احتلال هرر في سنة ١٨٧٥ - مما سببته فيما بعد -
الى التعجيل باتمام الاستيلاء على ساحل السومال صوب المحيط الهندي
لتحقيق مشروع عاجل يتصل اتصالا كليا بالمشروع العام : امتلاك منفذ
جهة الشرق في موازاة خط الاستواء لانشاء مواصلات مع المديریات
الاستوائية التي تم فتحها ، مواصلات أسهل وأقصر من مواصلات النيل
واقامة سور امبراطوريته في أقصى الجنوب الشرقي على خط يصل بحيرة
فكتوريا بساحل أفريقيا الشرقية في مونياسة .

وهذا المشروع الضخم ستعمل المجترة على احباطه بكل الوسائل
لتقوم هي بتنفيذه فيما بعد .

والواقع أن التفكير في المشروع يرجع الى سنة ١٨٧١ أى منذ الشروع
في بسط نفوذ مصر لغاية خط الاستواء والبحيرات وكانت آخر محاولة
في تنفيذه في سنة ١٨٧٦

ما كاد اسماعيل يكلف صموئيل بيكر (فبراير ١٨٧٠) بقيادة حملة
أفريقيا الوسطى حتى أعد مشروعه الذي نحن بصددده في القاهرة فكان
خط السير المرسوم للكولونيل الأمريكى بيردى Purdy النزول في
مونياسة والوصول منها الى بحيرة فكتوريا من الطريق الذى يمر بين جبلى
كينيا وكيماجارو .

ولأجل اخفاء الغرض الحقيقى من المشروع جرت اشاعة في سنة ١٨٧١

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٧٨ • مجلد ٣١٨٨ •

ان كارثة حلت بتجريدة صموئيل بيكر وان الحملة المرسله لانقاذه يجب ان تدخل أفريقيا من نقطة قريبة من زنجبار .

روى بونولايت في مؤلفه (مصر والجغرافيا) : « ان الضباط والجنود والسفن والمؤن كانت كلها معدة . ولكن أحداثا سياسية طارئة حالت دون تنفيذ هذا المشروع » .

وكان اسماعيل سلم الكولونيل بيردى خطابا يشتمل على تعليماته ليفتحه عند وصوله الى بلاد كيليا ، أوصاه فيه بأن ينشئ نقطة عسكرية في مناطق جبال كيليا وأن يعمل « كمن يريد الإقامة والتوطن وأن يتبع مع تجار الحاج والرقيق سياسة حكيمة معتدلة لأن الشعوب المحلية يجب أن تفهم أن مهمتنا لايربطها مهمة أولئك التجار أى غرض مشترك ، والتجار يجب أن يفهموا أنك لاتذهب للاضرار بمصالحهم » .

وقد خص اسماعيل فكرته العظيمة التي كانت محور سياسته الافريقية بقوله : « يجب على شعوب مناطق منابع النيل أن يكونوا من اليوم أصدقاء وحلفاء خديوى مصر » .

ومعلوم أن جيبى كيليا تجارو وكنيا من أعلا جبال أفريقيا وأجلها وأطيها مقام للأوربيين وهما الآن في حوزة انجلترا وكان أولها في أفريقيا الشرقية الألمانية . .

وكان من المقرر انشاء خط على الساحل بواسطة البواخر من مصوع الى موباسه وخط آخر خلاف خط موباسه يمتد من مين الساحل الشمالى (خليج عدن) بربرة وزيلع الى هرر فشوا فالجالا فالكافا حتى منابع النيل .

ويظهر أنه لما حيل بينه وبين مشروعه فى سنة ١٨٧١ فضل اسماعيل التريث حتى حل غردون محل بيكر مأمورا لمديرية خط الاستواء فى سنة ١٨٧٤ واتفق مع غردون على تنفيذ مشروعه من جديد وارتأى أن

يكل رئاسة الحملة هذه المرة الى انجليزى ، ماك كيلوب باشا ، رئيس مصلحة المنارات ، بدلا من أمريكى . عل انجلترا تسكن اليه وتهدا ثائرة أطباعها .

على أن ذلك لم يمنع اسماعيل من مراقبة ماك كيلوب باشا بواسطة شاييه لونج الأمريكى الذى أشركه معه فى الحملة وبواسطة كبار القواد والمهندسين المصريين أمثال رضوان باشا حاكم بربرة الذى كان قائدا لمركبين حربيين وحالى باشا وعبد الرزاق نظى وحسن واصف وغيرهم .

وقد وصلت الحملة بربرة فى أواخر سبتمبر ثم اتجهت الى رأس حافون حيث وصلت فى ٥ أكتوبر (سنة ١٨٧٥) ، وفى اليوم التالى رفعت الراية المصرية على المدينة فأظهر الأهالى اغتباطهم بحكومة « السلطان اسماعيل » وقد استقبلهم هناك عم السلطان بتلك الجهة وقدم فروض الطاعة . ومن هناك ساروا الى براوة فقدم لهم أميرها كل مساعدة . وقد وصلوا بعد ذلك الى قسايمو التى سميت بورت اسماعيل واحتلوا تلك الجهة بعد طرد الحامية التى كانت فيها من قبل سلطان زنجبار ثم بلغوا نهر الجب فى ٢٧ أكتوبر وأخذ حسن واصف فى اكتشاف ما وراء النهر باعتباره جزءا من بلاد السومال ورسم خريطة للنهر .

جاء فى ملحق تقرير « عن حوادث مأمورية سواحل أفريقيا الشرقية مقدم من عبد الرزاق بك رئيس أركان حرب المأمورية وتاظر المدرسة الحربية » مؤرخ فى ٨ ذى القعدة سنة ١٢٩٢ هـ (٦ ديسمبر سنة ١٨٧٥) ، ثلاث وقائع هامة مرتبطة بعضها ببعض : الأولى أن ماك كيلوب باشا وفريد ريجو باشا والكولونيل ورد بك قاموا على رأس قوة لاستكشاف جهة لامو وفرموزة « — لامو وجزيرة فورموزة فى طريق موباسة — وأن أحد أمراء جزر القومور « أخبر بوجود معدن فحم حجرى ونحاس غربى موباسة وأن أهالى تلك الجهة يودون التبعية للحكومة المصرية » .

والثانية أن الأمير محمد نجمل السلطان عبد الله سلطان جزيرة جوهنة
والأمير محمد نجمل السلطان عبد الرحمن من جزيرة حنزوان ومعه كتاب من
سلطان جزيرة القومور الكبرى عن رغبتهم التبع للحكومة المصرية ،
وكذا جزيرة ميلة وبندر مياص « وصلوا قسمايو بقصد التوجه الى
المحروسة في ظل الحكومة الخديوية » .

وهذه الجزائر المختلفة تسمى جزائر القومور (Comore) وهي واقعة
في الشمال الغربي من جزيرة مدغشقر .

وقد روى شاييه لونج في كتابه (حياتي في أربع قارات) أن
سيد علي أخ السلطان عبد الله الذي كان حاكما على جزر القومور جاء
يقدم الى مصر التاج الذي اغتصبه عبد الله وأن هذه الجزر قد وضعت
فيما بعد تحت حماية فرنسا وصار الأمير على سلطانا على جزيرة قومور
الكبرى .

ولاشك أن هذه الواقعة تبين الى أي حد بلغ نفوذ مصر الأدبي
والسياسي في أفريقيا خصوصا في الأصقاع العربية .

أما الواقعة الثالثة فهي وصول كتاب من قومندان براوة يقول :
« أنه بتاريخ ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٧٥ وصلت سفينة حربية انجليزية بالقرب
من براوة وأن قومندان السفينة يصحبه أحد القناصل الانجليز وترجمان
وبعض الجنود الانجليز أرادوا النزول الى البر ولكن اليوزباشي قومندان
برأوة أفهمهم أنه لا يستطيع الاذن لهم بانزال جنود مسلحين على أرض
تحتها القوات المصرية » وانه بتاريخ أول ديسمبر سلم أحد ضباط
السفينة خطابا الى اليوزباشي يبلغه فيه « انه لم يمنع قط من قبل من انزال
جنود مسلحين في هذه المناطق » فرد اليوزباشي « أن هذه البلاد
أصبحت تابعة لمصر » عندئذ غادرت السفينة براوة قاصدة زنجبار .
وجاء في الختام « ان هذه السفينة كانت مكلفة بقمع تجارة الرقيق على
سواحل أفريقيا الشرقية » .

والواقع أن براوة وقسميو كانتا تابعتين اسما لسلطان زنجبار الذى احتج على احتلال مصر وقد بادرت انجلترا بتأييده والتدخل فى القاهرة ونجحت فى حمل اسماعيل على ارجاع حملته .

اضطرت القوات المصرية الى الانسحاب دون أن تتمكن من وصل هذه الأقطار بالبحيرات وتدعيم نفوذ مصر فى جميع مناطق السومال . وقد قام رؤساء الحملة ومهندسوها وبالأخص عبد الرزاق بك بأعمال جليلة فى أمد قصير .

كتب رضوان باشا الى مهردار الخديوى فى ٢٨ شوال سنة ١٢٩٣ هـ (٢٨ نوفمبر سنة ١٨٧٥) مشيرا الى هذه الأعمال فى منطقة نهر الجب فذكر انشاء بستان مساحته فدان وقال ان الأشجار كثيرة على ضفاف النهر وأن خشبها يشبه الخشب الذى يرد من تركيا وطلب ارسال حطابين ونجارين وبنائين لتشييد بيوت من الحجر .

وفى ١٤ نوفمبر استقبل ماك كيلوب فى قسميو ٢٠٠ من عقال وسكان أوجادين الذين أظهروا اغتباطهم وفرحهم بالحاق بلادهم بالحكومة المصرية . وفى اليوم التالى وصل من سكان الجب وبراة خطاب ممضى من عثمان شيعو وعلى القاضى والحاج محمد بن عبد القادر ومحمد بشير يقولون فيه انهم كانوا منذ ثمانية أعوام فى نزاع مستمر مع قبائل كبلالة وهرات وانهم يريدون الآن أن يعيشوا معهم على سلم وصفاء كاخوة . وفى الغد (١٦ نوفمبر) اجتمع على ظهر الباخرة محمد على عقال وشيوخ قبائل تونة وكبلالة وهرات وبراة والجزر التابعة لتونة . روى عبد الرزاق نظمى فى يومياته : « وقد أصلحنا بينهم وأقسموا جميعا على المصحف والسيف أن يظلوا متحدين وأن لا يهاجم بعضهم بعضا وأن يظل كل فريق منهم فى ديره يعمل على رفاهيتها وزراعة أرضها فى ظل الحكومة الخديوية . وقد حلفت هذه اليمين بحضورنا أمام

ماك كيلوب ورضوان باشا وعلى بك شكرى قومندان المركب وآخرين
من الضباط » . (١)

وكتب ماك كيلوب باشا في ١٤ ذى القعدة (١٢ ديسمبر سنة ١٨٧٥)
يقول ان عبد الرزاق بك يطلب ثلثائة واثني عشر رجلا من جميع الحرف
والهن من أطباء ومهندسين وتجارين وزراة وخبازين وذكر أشياء
أخرى كثيرة لترقية المدائن .

هذه لمحة تكشف عن سياسة المصريين واتجاهاتهم العمرانية في جميع
مناطق البحر الأحمر والمحيط الهندي .

ومعلوم أن سلطان زنجبار مدين لانجلترا بالتخلص من التبعية لامام مسقط ،
وكان الانجليز الآمرين الناهين في الجيش والبريد وكان ممثلهم يوحنا كيرك
مستشار السلطان برغش السياسى (١٨٧٠ - ١٨٧٨) . وبواسطة
زنجبار كانت انجلترا تريد الاحتفاظ بأفريقيا الشرقية في دائرة نفوذها .
ابتدعت سيده البحار وسيلة جديدة تساعد على انتهاج سياسة
تدخل في بحار أفريقيا الشرقية . ذلك أنها تحت ستار « مصالح
الإنسانية » أعنت حربا لاهوادة فيها على تجارة الرقيق وأرغمت مصر
وزنجبار ، في سبيل القضاء على هذه التجارة ، على قبول شروط
ومواثيق لا تتلاءم مع استقلالها .

وقد فاتح السير اليوت سفير انجلترا في الآستانة نوبار باشا أثناء
وجوده بهذه المدينة في عقد اتفاقية لالغاء النخاسة ولكن وزير مصر
لم يوافق عليها خوفا من نتائجها واجتذاب « الزناير الحرة الانجليزية الى
سواحل مصر وحصونها » .

ولكن انجلترا تمكنت في النهاية من حمل اسماعيل في ٤ أغسطس

(١) من يوميات عبدالرازق نظمي بتاريخ ١٦ نوفمبر سنة ١٨٧٥ (سجلات
عابدين) .

سنة ١٨٧٧ على توقيع اتفاقية الرقيق المشهورة .^(١)

تقول المادة الرابعة من هذه الاتفاقية : « لأجل الوصول الى محاربة تجارة العبيد أو الأحباش بطريقة فعالة ناجمة في البحر الأحمر توافق الحكومة المصرية على أن تقوم الطرادات البريطانية بزيارة وتفتيش — وعند الاقتضاء حجزها لتسليمها الى أقرب أو أنسب سلطة مصرية ، لمحاكمتها كل سفينة مصرية تضبط وهي تنجر بالعبيد السود أو الأحباش ، وكذلك كل سفينة مصرية يرتاب في أنها مرصدة لهذه التجارة أو تكون قد زاولتها في أثناء الرحلة التي حدث لقيانها فيها .

» ويجوز استعمال حق التفتيش أو الحجز في البحر الأحمر ، وخليج عدن ، وعلى طول ساحل بلاد العرب وساحل أفريقيا الشرقية وفي مياه مصر البحرية ومياه ملحقاتها . . . » .

ولأجل ضمان تنفيذ اتفاقية ٤ أغسطس الجديدة وقع اختيار وزير بحرية إنجلترا على القبطان ملكولم الذي عين بمرسوم حديوى بتاريخ أول يناير سنة ١٨٧٨ مديرا عاما لمصلحة الرقيق في البحر الأحمر . وكانت له سلطات مدنية وقضائية ، وكان مقر عمله في مصوع .

وكان أول طلب له على أثر تعيينه ، باسم تنفيذ المعاهدة ، طرد حاكم زيلع أبى بكر باشا ، بحجة أنه كان يشجع تجارة الرقيق . متجاهلا نفوذه العظيم ومزله بين أبناء قومه وعشيرته من سكان هذه المناطق . ولذلك

(١) في سنة ١٨٧٧ أمضت إنجلترا مع اسماعيل اتفايتين : الأولى بتاريخ ٤ أغسطس وهي خاصة بالرقيق والثانية بتاريخ ٧ سبتمبر وهي خاصة باعتراف إنجلترا بسلطان الحكومة الحديوية على بلاد السومال لغاية رأس حافون وبتمهيد الحديوى بعدم التنازل لاية دولة اجنبية عن أية قطعة من هذه البلاد وبتخويل الحكومة الانجليزية الحق في تعيين مأمورى قنصليات في جميع المين والجهات الموجودة على ساحل البلاد المذكورة . وتوجد في هذه المعاهدة في الشطر الأخير منها بنود خاصة بتجارة الرقيق .

اعترض غردون على هذا الطلب مراعاة لمصالح مصر التي ما كان في وسعها أن تحمد ثورة يثيرها أبو بكر في ذلك البلد القصى .

فلما رأى ملكولم أن غردون يقف في سبيله وان الحكومة المصرية فطنت لأغراضه التي ترمى الى الجرى على سياسة العنف والارهاق لبذر بذور الفتنة والاستياء في أقطار مصر النائية أظهر استعداداه للاستقالة منذ شهر مارس أى بعد ثلاثة أشهر من تولى وظيفته .

علم بذلك وزير خارجية إنجلترا فكتب الى قنصلها في مصر فيفيان بتاريخ ٢ أبريل سنة ١٨٧٨ يقول : « سيكون من دواعي الأسف البالغ أن يضطر ملكولم الى التخلي عن منصبه اذ لا يخفى عليكم أن في وجود موظف ذى حزم وعزم لا يننى ولا يكل في محاربة تجارة الرقيق الأمل الوحيد في القضاء عليها قضاء مبرما لاسيا في بلد تتغاضى فيه السلطات جميعا عن النخاسة والنخاسين (١) » .

وقد كانت الحكومة الانجليزية تميل بالطبع الى التهويل من شأن النخاسة وانشارها في البحر الأحمر وذلك على الرغم من أن القبطان ملكولم نفسه أعلن في تقرير له أن مجموع العبيد الذين يصدرون سنويا من الساحل الافريقى الى الساحل العربى لا يزيد عن ١٧٠٠ : وهذا العدد أقل مما راحل من ٣٠,٠٠٠ وهو العدد الذى وضعه نائب القنصل وايلد وتقدمت به الحكومة الانجليزية (٢) » .

أما فيما يتعلق بعزم ملكولم فقد كشف غردون عن مكنونهما . كتب فيفيان الى حكومته بتاريخ ٢٩ مارس سنة ١٨٧٨ يقول : « ان الكولونيل غردون كان يخشى أن تؤدى كل محاولة لعمل دفعة واحدة بغير روية وأناة لتنفيذ المعاهدة الى هدم كل عمله الشاق في السودان

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٨٤ مجلد ١٥١١ .

(٢) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٨٤ مجلد ١٥١١ . خطاب من

فيفيان الى حكومته بتاريخ ٢٢ مارس سنة ١٨٧٨ .

ذلك العمل الذى ينشئه بوسائل ناقصة مستعينا فيه بمساعدة الأهالى والترفق عليهم وحساب ألف حساب لمعتقداتهم الدينية الوراثة .

« وكان يخيّل الى غردون أن انجلترا قد فرضت المعاهدة فرضا على الخديوى وأتانا فرضنا عليه هو (غردون) بعد ذلك الفبطان ملكولم كشه جاسوس وانا لم نكتف بذلك بل أثقلنا ميزانية السودان بحمل نفقات هذا الموظف الذى لم تكن له حاجة اليه (١) » .

والواقع أن غردون رجل غريب الأطوار تجتمع فيه الأضداد ينزو ويلين وقد ينزو ولا يلين وقد يلين طويلا ثم ينزو وبين هذا وذاك تتجاذبه عوامل مختلفة مدا وجزرا من نزاهة أصيلة فى الطبع وسياسة أجنبية تريد أن تملى عليه خدمة مصالح معينة يستقبلها كما يستقبل الحرباء الشمس ويدور معها كيف دارت .

وهذا مايفسر لنا سر اضطراب سياسته وحقن معظم الساسة الانجليز لرسميين عليه . وقد أبدت الحكومة الانجليزية استياءها من مسلك غردون ازاء ملكولم فكتبت الى قنصلها ، فى ٣١ مايو سنة ١٨٧٨ ، تقول : « ان الكولونيل غردون يسوف ويهادن النخاسين كمن لا يحس فى نفسه لقوة الكافية لمناصبتهم العداوة » .

فأظهر من هذا التحريض ما ترمى اليه الحكومة الانجليزية فى حالة اضطرارها الى التضحية بملكولم . وفعلا استقال ملكولم فى يونية سنة ١٨٧٨ فبادر القنصل فيفيان بناء على تعليمات حكومته الى التصريح بأن « الخديوى وغردون يجب أن يكونا مسؤولين عن الاجراءات الناجعة الواجب اتخاذها للقضاء على النخاسة التى لايزال شرها مستفحلا فى مين سواكن وزيلم وتاجورة (٢) » .

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٨٤ - مجلد ١٥١١ .

(٢) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية - رقم ٨٤ مجلد ١٥١١ - الاسكندرية

فى ٩ يونيه سنة ١٨٧٨ .

وسرى ، فيما بعد ، انه ابتداء من ذلك الوقت (يونيه سنة ١٨٧٨)
سيجرى غردون في السودان على الرغم منه على سياسة رسمتها له إنجلترا
وسيقم في أرجائه الواسعة حكومة حرب وارهاب .

الواقع أن غردون وبكر وملكولم قد فرضتهم إنجلترا على اسماعيل
في السودان . ومن حسن الحظ أن اسماعيل قد فطن الى مرامي السياسة
الانجليزية فعمل جهده ، ولم ين ، في الاحتفاظ بالمناطق النائية الممتدة من
بربرة الى هرر للحكام المصريين وللادارة المصرية البحتة التي ظلت تعمل
في صمت على احياء هذه البلاد وفتح سبل المدنية فيها .

من بربرة أخذت الحضارة المصرية توغل في البلاد وكان أول عناية
رضوان باشا بمأمور بربرة وزيلع وملحقاتها توطيد الأمن فكانت الحكومة
المصرية ترسل الى بربرة مركب حربيًا يرسو فيها طوال فصل الشتاء وكان
قائد المركب مسئولًا عن النظام في المدينة .

وعلى ظهر هذا المركب كان يقيم جماعة من المهندسين المصريين
كعبد الرزاق نظمي ومحمد بهرام الذي خفنه لاستكشاف ما وراء الميناء ،
وقد عنوا باديء ذي بدء بدرس الينابيع والمجاري القديمة التي عفى عليها
الزمن ورسموا خرائط وافية للمناطق الداخلة وأعدوا تصميات لاستحداث
سجار ومدينة جديدة منفردة عن منزلة العشش .

في ظرف خمسة أعوام ، من سنة ١٨٧٢ الى سنة ١٨٧٧ ، نشأت
بالقرب من الشعب أو القرية القديمة المدينة التي أسسها المصريون ، فيها
منارة تهدي السفن ، وفيها مراس وأرصعة من الحجر ، وفيها مخازن
مشحونة بالفحم لتموين المراكب البخارية ، وفيها بيوت منتظمة وشوارع
مصنوفة نظيفة لا أثر فيها للائذار المتراكمة التي كانت مصدر أوبئة
وأمرض ، وفيها بستان جميل وجامع فخيم .

وقد فاض الماء الحلو في أرجائها آتيا من جبل الدوبار في مواسم

ممدودة ، ولما كان الماء عند تفجره من الصخر في سفح سلسلة الجبال البحرية ترتفع درجة حرارته ارتفاعا كبيرا بنيت صهاريج لتبريده قبل مروره من السهل الى الخزانات ، ولا يزال الحصن القديم الذي بناه المصريون في الدوبار يحرس المنبع الى اليوم .

وكان في المدينة مستشفى ، كما كان الأمر في زيبع ، وصيدلية ، ومخابر وطواحين ومكتب بريد ضمن حدود اتحاد البريد العام ، ومصاييح مضيئة بالغاز كنظائرها بمصر وشوارع الأزبكية ، وانتشرت العملة المصرية وشاع أمرها بالتقري والجبال على مسافة ثلاثين يوما فأقبل عليها التجار للتعامل بها .

وبالحملة صارت بربرة مناء تتضاءل أمامه عدن ، وقد اعترف هنتر قنصل انكلترا في السومال في رسالة مؤرخة ٦ يونيه سنة ١٨٨٤ بأن المصريين « أنجزوا في بربرة من الأعمال العمومية الأساسية ما يصح أن تفاخر به أية ادارة » .

وقد بلغت تكاليف المبنى في بربرة لغاية سنة ١٨٧٧ زهاء ٧٠,٠٠٠ جنيه عدا أربعين ألف جنيه ألحقت على الجنود والسفينة المرابطة بالميناء .

ولما أرغم الانجليز اسماعيل بمعاهدة ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ على جعل مينائى بربرة وبهار حرين أعفيت صادراتها من الرسوم والعوائد الجمركية فأصبح دخل المدينة لايزيد عن ١٧٠ جنيها في السنة مع أن المركب الحربى وحده كان يكلف الحكومة ٣٠٠ جنيه في الشهر .

كانت بربرة تصدر الى عدن في العام ١٠,٠٠٠ بقرة و ٦٠,٠٠٠ خروف عدا الزبدة . كتب رضوان باشا الى المعية السنية في ١٢ شعبان سنة ١٢٩٣ (٢ سبتمبر سنة ١٨٧٦) يقول : « انه قبل مجيء المراكب الحديدية الى هذه الأصقاع كانت عدن في ضيق مستمر طوال أشهر الخريف من مايو الى سبتمبر وذلك لأن الزبدة والأبقار والخرفان كان

من الصعب شحنها على مراكب صغيرة بسبب هبوب رياح الشمال العواصف ،
وكان ثمن رطل اللحم في عدن خمسة قروش وكانت الزبدة لا وجود لها
بالمرة ولكن بعد احتلال المصريين ومرور مراكب البريد المصرية في مياهها
أصبح من الميسور ارسال الزبدة والبيض والغنم والأبقار الى عدن في
كل وقت وصار ثمن رطل اللحم قرشا واحدا وكثرت الزبدة .

وقد ترتب على انتشار المعاملات طبقا للأحكام السياسية والشرعية
وازدیاد العمران والأمن والراحة أن قبيلة عيال أحمد السومالية التي كانت
كغيرها لا تقيم في بربرة الا في فصل الشتاء أخذت تبني بيوتا ودكاكين
نقضى فيها العام كله .

ولا ريب أن استقرار السومال في بربرة بعد حياة التنقل والقتال
يذكرنا سياسة ابراهيم باشا في سوريا اذ كان أكبر همه تثبيت البدو
الرحل وتحضيرهم حتى تتغير طباعهم ويجدوا في الزراعة والعمران
معاشا لهم .

كتب جبرائيل فيران ، الذي كان قنصلا لفرنسا ثم وزيرا مفوضا ،
على أثر زيارة عملت في سنة ١٨٨٣ : « أنشأ المصريون في بربرة بمحزل
عن الحى الوطنى مدينة أفريقية صغيرة عليها نضرة ونعيم ، وأتوا بالماء
من جبل الدوبار الذى يبعد اثنى عشر كيلو مترا من الساحل وأقاموا
مبانى من محافظة ، ودار للشرطة وسجن ، وبيت للحاكم على الطراز الأندلسى
يدخله حديقة لاقامة الزوار الغرباء ، وكان أسلوب البناء مطابقا لمقتضيات
الجو وحره المستعر ،

« وكانت العناية توجه كل يوم لتنضير قطع الرياض والزهر وزراعة
الخضروات طوال السنة ، وكان في الميناء منارة تبدو على بعد خمسة عشر
ميلا ووصيف يسمح بتفريغ وشحن المراكب الكبرى وتزويدها بالماء .

« ولا ريب أن هذا العمل يدعو الى الاعجاب لاسيما اذا تذكرنا أن

الذى قام به حاكم شرقى وأن بربرة كانت تملك وقتئذ موارد واستعدادات
للتحسين أعظم ألف مرة من موارد واستعدادات جميع موانئ أفريقيا
الشرقية من السويس الى موزانيقة في متسع من الساحل لا يقل عن
سبعة آلاف كيلو متر .

وقد زار بربرة كاتب الانجليزى ، مستر جيمس ، فى مارس سنة ١٨٨٤
وكانت لاتزال تقيم بها حامية مصرية ، ثم عاد فزارها فى شهر نوفمبر ،
وكان قد أخلاها المصريون فأتيح له أن يحى الراية الانجليزية « التى كانت
تحقق على انقراض الادارة المصرية السيئة » ولكن المؤلف قد ناقض نفسه
بنفسه اذ وصف بربرة فى مكان آخر من كتابه فقال : « ان المدينة الحديثة
قد بلغت من الحسن والتألق حدا لا زيادة فيه لمستزيد ... كانت دار
الحاكم السابق يزينها روض نظير ترويه « فسقية » ذات روعة بنيت
بضروب مختلفة من المرجان ... وتوجد منازل مصرية بهجة .

« وقد زونا احدى هذه الدور التى كانت فى الأصل محصنة للحاكم
فلما ألقينا فيها رحلنا خيل الينا أننا نقيم فى منزل من منازل الرومان فى
عصر بومباى ، بصحنه وبستانه والرواق الذى يحيط به ويوصل الى
الشقق المختلفة والى حمام فسيح فى أكل حال » .

وقد أدخل المصريون تحسينات كثيرة على ميناء بلهار حيث ظلت
فى مكان المدينة الجديدة بعض العشش من الحصر لغاية الاحتلال المصرى
للسواحل بعد سنة ١٨٧٠ . وسرعان ما أنشأ المصريون منارة فى أعلا دار
اقامة الحاكم وأربع بنايات عمومية أهمها مبنى الجرك الذى كانت ترد اليه
البضائع من الداخل لتصديرها . وقد شيد أيضا بالحجر بيتان صغيران
لسكنى موظفى الحكومة .

وكان المصريون يقيمون فى بلهار طوال الفصل المعتدل حتى اذا أقبل
الخريف المزعج الذى يغطى البيوت بالرمل هاجروا الى بربرة (١) .

D. Brockman, British Somaliland, 1912. (١)

استحدثت اصلاحات في زيلع ولكن أهميتها التجارية لم تتحقق لأنها الميناء الطبيعي لمملكة شوا الحبشية فكان لا بد من فتح طريق القوافل الذي يمر بأوسه الى شوا بين قبائل الدناكل الغادرة المنتشرة على ساحل البحر الأحمر من مصوع الى باب المندب ومنه ينتشر السومال الى المحيط الهندي . على أن حملة مونتسنجر لم تنجح في الاستيلاء على هذه البلاد اذ تمكن شيخ أوسه وحلفاؤه الأجاش من استدراجه في الصحاري وقتله غيلة عند بحيرة أوسه في نوفمبر سنة ١٨٧٥

وقد انتعشت تجارة زيلع قليلا بفضل احتلال هرر واستتباب الأمن والمواصلات بين الميناء والبلاد النائية في محيطه .

* * *

من زيلع نزل محمد رؤوف باشا ، في ١٧ سبتمبر سنة ١٨٧٥ ، على رأس جيش مصري لاحتلال هرر وقد اخترق أراضي السومال ولم يلق صعوبات في طريق زحفه الا ابتداء من جورجورا على حدود النولي — جالا حيث يصير الطريق دربا ضيقا يشرف عليه الجالا من عل . ولكنه مزق شملهم ودخل مدينة هرر في ١١ أكتوبر ورفع الراية المصرية عليها بين تهليل السكان وتكبيرهم ، وكانت المدينة تن تحت ظلم أميرها محمد عبد الشكور منذ عشرين سنة فانتظم أمرها وأخذت تستقبل عهدا جديدا . ويحسن بنا هنا أن نذكر كلمة عن تاريخ مملكة هرر .

انتشر العرب في أفريقيا الشرقية في أواخر القرن السابع وقد أسس مدينة هرر جماعة نزحت من حضرموت أو اليمن ثم قامت دولة عادل الشاخنة وكانت زيلع عاصمتها ، وكانت بربرة التي أسسها البطالسة قديما جزءا منها في القرن الثالث عشر ، وكانت دولة عادل بفضل مناعتها تدل على الحبشة المسيحية وتنافسها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

ولما ملك الأتراك في القرن السادس عشر مصر وبلاد العرب احتلوا جميع السواحل فانتقلت عاصمة الملك من زيلع الى هرر في سنة ١٥٢١

ثم أخذ الأتراك يمدون أخوانهم في الدين بالمدافع والأسلحة وكان البرتغاليون يزحون من الهند لنصرة الأحباش وقد تمكن سلطان هرر من الاستيلاء على معظم الحبشة ولكنه هزم في النهاية . من ذلك الوقت (١٥٥٣) أخذ الاضمحلال يدب في دولة عادل القديعة .

وكان يحكم هرر في أواخر القرن السادس عشر وملوال القرن السابع عشر أمراء من أشراف مكة وقد أخذت حدود الأمانة تضيق حتى انحصرت في جدران المدينة فبعد أن كان أمير هرر يسيطر على قبائل الجالا والسومال المنتشرة بين المدينة والساحل صار عرشه تحت رحمتهم : وكان يظلم المدينة ويستعدي عيى حلفاء الجالا ليؤيدوا سلطته بسلاحهم .

والسومال أمة عربية تمتد مملكتهم الواسعة داخل مثلث قاعدته جبال الكافا أو خط وهمى من خليج تاجورا الى نهر تانا وضلعاه ساحل خليج عدن (١١٠٠ كيلو متر) وساحل المحيط الهندي (٢٢٠٠ كيلو متر) .

وهى مملكة غنية بمواردها من صمغ ومر وبخور ومطاط وخيل وأنعام لا عدد لها بفضل جبالها وسهولها ومراعيها الزاهية وشجرها ، أهم أنهارها الجب الذى ينبع فى هضبة الجالا ، وهى على اتصال بمملكة شوا الحبشية وهضبة هرر الحصينة .

والسومال قوم أشداء رحل بطبعهم يعيشون من تربية الأنعام والتجارة ولكن نزوعهم الى النهب والسلب كان سببا فى كساد التجارة فى بلهار وبربرة .

تنقسم قبائلهم الى جماعات أربع :-

الجماعة الأولى جماعة الشمال أهم عشائرها حبر أول وعيسى والجادا — بورسى ويبلغ عددها زهاء ١٣٠,٠٠٠ جميعهم مسلمون أميون . والثانية جماعة هرر ، والثالثة سومال الأوجادين وهى واقعة فى داخل السومال لم يدخلها أوروبى لغاية سنة ١٨٨٣ ، وكان فى كل قبيلة أدباء وشعراء

يرتجلون الشعر . والرابعة - جماعة الجنوب أو ساحل بنادر كانت منتشرة على جوانب نهر وبي ومنطقة الجب السفلى .

وتمتد أرض الجالا في الشمال الشرقي من بحيرة فكتوريا بين هضبة الحبشة في الشمال ومملكة السومال في الشرق وبلاد العروس وبوران في الجنوب .

وكان تعداد الجالا يزيد على العشرة ملايين وهم أكثر الأجناس الأفريقية بهاء وروعة ، رآهم المبشر « كرابف » فأعجب بطلعتهم الحربية وطول قامتهم ، وهم وثنيون أذكاء يقيمون حول هرر في المناطق الجبلية الخصبة ولهم فيها مراعي نضرة وأنعام كالهياكل .

وهم قوم ذوو شجاعة واقدام يتجمعون في المكان الوعر من أعالي الجبال للبش بأعدائهم ، كانوا يقطنون سواحل خليج عدن في القرن الخامس عشر ولكن حروب الغزو والفتوحات جرتهم الى مملكة شوا وجنوب الحبشة حيث أقاموا ثم ما لبثوا أن احتلوا حوالي سنة ١٧٠٠ هضبة هرر فأذلوا أميرها وأرهبوا القوافل .

وينقسم جالا هرر الى جماعات ست : النولى ويقيمون في الشمال بين محطة جلديسه وهرر في بلاد جبلية غزيرة الأمطار يترعرع فيها القمح والأذرة ، وقبائل الجارسو في شرق هرر والآلا في جوارهم وفي الجنوب والغرب ، والعروس والأنبيا في الجنوب ، والايثو في الغرب .

وكانت كل قبيلة تنقسم الى أفخاذ وبطون وفصائل لا حصر لها شأنهم في ذلك شأن السومال الذين بدلا من أن يؤلفوا خمس قبائل كبرى متجانسة كانوا موزعين بين خمس وثمانين قبيلة .

ولا ريب أن تكاثر العشائر ، وتضاؤل مملكة هرر بينها وانتشار الجهل والبدع والفوضى في جميع الأرجاء كانت أكبر عوامل الاضمحلال .

لم يكن هناك أثر للصناعة لأن حاجات القوم في المسكن والملبس

والمأكول محدودة . وقد كانت هرر المدينة الوحيدة المبنية بالحجر ، وكانت الزراعة لا تزيد عن حاجة المراعى وقد افقرت أراض واسعة صالحة للزراعة بسبب الإهمال .

. وكانت التجارة المرتزق الوحيد وكانت مقصورة على فصل الشتاء : ذلك أن معظم السومال والجالا كانوا يقيمون في الصيف على الهضاب يتمتعون بجوها المعتدل ويرعون قطعانهم الضخمة من غنم وأبقار وخيول وبعال حتى إذا جاء الشتاء وقف هطول الأمطار على الهضاب العالية واستمر في الأراضي السفلى منذ أواخر سبتمبر ، فيبرد الجو ويتركز النبات ، وحينئذ يطمئن التاجر إلى توفر الماء والعشب في الطريق للسائمة فيرحل قاصدا ميناءى بلهار وبربره زمن الموسم .

وكانت ريح الشتاء تساعد السفن الشراعية من ناحية أخرى على اجتياز البحر والوصول إلى الموانئ ، وكانت بربره الميناء الطبيعي لهرر والأقاليم المجاورة وخير مرسى للسفن ولذلك كانوا يقولون : « إن الذي يهيمن على بربره يملك بيده ذقن هرر » .

كان تجار الداخل يفتدون من جهة الحبشة وهرر إلى بربره بالبني والعاج وريش الطعام والجلود والصمغ والغنم والأبقار والزبدة وكانت السفن الآتية من عدن وحضرموت ومسقط واليمن تحمل الأرز الهندي والبلح والأقمشة القطنية والدخان والحديد والتحاس والسكر والشاي والأنبذة . وكان التعامل من طريق المقايضة لأن العملة كانت قليلة الاستعمال .

ولكن عدم توفر الأمن كان من شأنه شل الحركة الاجتماعية والاقتصادية فإن القوافل الآتية من الداخل كانت تدفع الضرائب الفادحة لأمير هرر والقبائل التي تمر بها ، وكان تجار الخارج هدف لقبائل الساحل التي كانت ترغب كلاً منهم على اصطحاب رجل من العشيرة يسمى « القبان » كان يقاسمه ويحبه نظير حمايته له .

وكانت البضائع أحيانا — بدلا من أن تصل من هرر الى الساحل في خمسة عشر يوما — تقطع الطريق في عام ونصف أو عامين مما أدى الى تدهور زيلع وبلهار وبربره .

وكانت بربره — كموانى الساحل كلها — مجموعة عشش أو بيوت من الخشب ، مقفلة في فصل الصيف موحشة لا تعرف الحياة الا أشهر الشتاء الستة اذ يبلغ عدد السكان من ٢٠ الى ٢٥ ألفا .

الاحتلال المصرى — كان الاحتلال المصرى لهرر في الداخل بعد احتلال الساحل ذا أثر بعيد في حياة البلاد .

تقع مدينة هرر في سهل مخصب تطلعه من كل جانب تلال مخضرة تعلوها خمائيل لبن والقات ، يبلغ سكانها ثلاثين ألفا وكلهم مسلمون على منذهب الشافعى .

كان أمير هرر محمد بن عبد الشكور كما قلنا مستبدا برعيته يحرم أكل الأرز والبلح والثريد بحجة أن أمثال هذه الأطعمة اللذيذة من حق الملوك وحدهم وكان يحتكر تجارة العاج وريش النعام والبن الذى هو أعلى من البن ليمنى يزكو زرعه في ضواحي المدينة ولكن في أراضى الأمير وحدها وأراضى أعوانه .

وكان يحرم على لسكان أن يغطوا رؤوسهم وقاية من البرد أو الحر . وبلغ من تعسفه أنه اذا هم بالبصق تسابق الحضور الى تقديم كم قميصهم . وقد ألغى رؤوف باشا الحكم كلها وبدأ يعنى بترقية الزراعة فزار البلاد المختلفة وتبين له أن نصف الأراضى التى كانت تملكها القبيلة الواحدة كان مزروع والنصف الآخر الذى هو أصلىح للزراعة كان متروكا فحث الأهالى على الزراعة وكان يلجأ الى القوة أحيانا ليرغمهم عليها . وقد وزع الأراضى بينهم فكان الجراد (أو العمدة) يفد عليه ويقدم له خمس بقرات كضريبة فيمنحه ققطان من الشيت وطلاقة وعمامه

من بفتة بيضاء ويرسل معه مندوباً من قبله يحدد له ألف فدان لاستئجارها
وكان الملاق (أو شيخ البلد) يحضر بقرتين فيعممه بأربعة أذرع ويحدد
له خمائة فدان .

وقد دأب رؤوف باشا على محاربة القوضى والبدع واهراق الدماء
فقاتل الجالا مرارا وضر بهم بيد من حديد . أما قبائل عيسى السومالية
المسلمة فقد عمل على تأديبهم بمحاربة الأمية الفاشية بينهم وبث تعاليم
الاسلام الصحيحة .

كان السومال يفاخرون بقتل الجالا غدرا وكانوا كلما وقفوا الى
ذلك غرسوا في شعورهم ريشة نعام بيضاء تقوم مقام الوسام . ولطالما
تهام رؤوف باشا عن هذه العوائد الهمجية وحاول اعادة الأمن وتسهيل
تجارة القوافل فعبد الطريق الذي يصل هرر بزيلع وجعله صالحا للعربات
وأشأ عليه محطات عسكرية مزودة بالماء .

ذكر « بوليتشكا » في كتابه عن هرر أن انشاء مدينة جلديا الهامة
عند تقاطع طرق هرر وشوا وزيلع في أراضي عيسى والجادابورسى يرجع
الفضل فيه الى المصريين وحدهم وبالأخص مختار بك .

وقد ساعد انشاء المحطات في تعميم التجارة حتى أن القوافل التي
كانت تصل من الساحل الى هرر في عصر الأمراء وكان عددها لا يزيد
على السبعين صار عددها أربعائة في السنة في عهد الادارة المصرية وكان
من عوامل انتشار التجارة في البلاد تحول العملة المصرية محل البدل
أو عملة الأمير التي كانت قليلة الانتشار لاقية لها .

وقد عنى رؤوف باشا بالصناعة المحلية فكان الحاكم وكبار الموظفين من
المصريين يلبسون ملابس مصنوعة في المدينة ليفتدى بهم السكان فيقتنوا
ملابس مفصلة بدلا من الأثواب أو الشقق التي كانوا يتلفعون بها .

وضع رؤوف باشا في الوقت نفسه برنامجا واسعا للمنشآت

اللازمة لتجميل المدينة وتوفير أسباب الرفاهية والعمران فيها واستعان بالجند لتشييد معظم المباني الحكومية وبيوت الموظفين .

وخلاصة القول أحدث رؤوف باشا ثورة اصلاحية عامة في هرر في ثلاثة أعوام . وقد عاد الى مصر في سنة ١٨٧٨ على أثر خلاف حدث بينه وبين غوردون حكيمدار السودان . وقد خلفه رضوان باشا الذي ألتأ بربره فجرى على سياسة سلفه ، ولما كانت هرر ينقصها الماء الصالح للشرب ابتنى رضوان باشا حوضا في المدينة جلب له الماء من عين قرية ووزعه بنظام كامل من المجرى واجتهد في محاربة تعاطى البوظة وغيرها من المخدرات التي كانت تفتك بالجهاز العصبي والحيوية .

وكان محمد نادى باشا الذي أعقب رضوان باشا في يونيه سنة ١٨٨٠ حاكما ممتازا وفي عهده عين أحمد بك وعدى رئيسا لأركان حرب الجيش فنجح في ادخال قبائل كثيرة في حوزة الحكومة .

زار الرحالة الايطالى « أنطون سيكى » هرر في أيام نادى باشا (١٨٨١) فلاحظ رفاهة المدينة وتبين له « أن حالتها المعنوية تطابق حالتها المادية وأن المصريين تبدو عليهم سياء الفالحين الرافعين لواء الحضارة إذ يعملون الأطفال القراءة والكتابة والفتيان الصلاة والشريعة السمحاء ، ولا ينكر انسان أن الطريقة التي يتعهدون بها الأمن في المدينة وضواحيها جديرة بكل اعجاب واطراء . ومن التحسينات الكبيرة التي أدخلوها النظام القضائى الذى أصبح — على الضد من نظام الأمراء السابقين — يقضى بالعدل من غير هوادة ولا إبطاء » .

وكان آخر حكام هرر من المصريين على رضا باشا (ديسمبر سنة ١٨٨٢ — أكتوبر سنة ١٨٨٤) . واليه يرجع الفضل في مطاردة المتطبين والمشعوذين .

وسنرى فيما بعد كيف أرغمت إنجلترا مصر على اخلاء هرر وبربره

وزيلع في سنة ١٨٨٤ لتستولى هى على الساحل ومينه وتترك الحبشة تحتل هرر في سنة ١٨٨٧ .

نتائج الحكم المصرى - فى مدة لم تتجاوز التسعة أعوام فى هرر (١٨٧٥ - ١٨٨٤) والاثنى عشر فى بربرة (١٨٧٢ - ١٨٨٤) وصلت الادارة المصرية البحتة فى هذه الاقطار النائية الى نتائج باهرات لم تبلغ بعضها الادارة المصرية الأوربية فى السودان وقد كانت هذه أجمل صفحة فى تاريخ اسماعيل والحكم المصرى .

وحسبنا أن نذكر أن الزراعة قد امتدت فى مناطق الجبال وظهرت لبنين مزارع واسعة باسقات ، وقد عمم المصريون زراعة الكرم والنوز والخبوخ والليمون والبرتقال والمشمش والموز وجميع بقول الدلتا وجبونها من قمح وقصب سكر وبطاطس وقرع وبندر وشمام وبطيخ وخيار وقتاء . أجل كان الهرييون لا يجهلون بعض أشجار الفاكهة ولكنها كانت نادرة الوجود فلم يكن فى ممكة هرر كلها حين دخول المصريين الا أربع عشرة كرمة ولم يكن بها خضروات قط .

وقد انتعشت التجارة بفضل ظهور محصولات جديدة فى السوق كالبن والقطن ، وتأمين الطرق وخلق المدن وتوافد التجار الأجانب والعمال الأوروبيين فى داخل البلاد والعناية بتربية الأنعام وانتشار العملة .

ووجدت لأول مرة فى هرر ادارة منظمة وبوليس وجيش وجرم وقضاء وقوانين ولوائح ، فحتم المصريون اعلان الزواج وتسجيل عقود البيع الخاصة بالعقار والبيوت والبساتين وأنشئت مصلحة للصحة ومستشفى كبير ، وصدرت أوامر تنص على عدم خروج أى جثة من أبواب المدينة دون اعلان السلطات المختصة .

وكان يقيم فى هرر ١٤,٥٠٠ مصرى من مدنيين وعسكريين تزوج منهم

من أهل المدينة واقتنوا أملاكاً وأنفقوا ما استطاعوا في بناء البيوت عملاً بأوامر الحكومة التي كانت تريد أن تعطى مثلاً للسكان ليتنافسوا في الأخذ بأسباب العمران ، فلما أُخلى المصريون هربوا على عجل بيعت أملاكهم بالمزاد فخرجوا صدمتين .

ولو دام الحكم المصري — كما اعترف بذلك قنصل إنجلترا في الصومال — لاعتنق الجبالا الاسلام ، الذي هو خير ألف مرة من الوثنية ، ولهيمنت مصر على الملايين من قبائلهم المنتشرة في قلب أفريقيا ، ولو دام ذلك الحكم لانتقل الصومال من حالة الفطرة والجهل الى حال أخرى ولدخلوا في ميدان الحضارة أفواجا ولتحققت أمنية محمد مختار رئيس أركان حرب الجيش المصري في بداية الفتح اذ كتب في ١٦ أكتوبر سنة ١٨٧٥ مضمناً « أن تؤلف مصر في ظل حكومة اسماعيل حكومة واحدة من البحر الأبيض الى خط الاستواء وأن تصل مملكة هرر الى أعلى درجة في الرفاهة والتقدم في الشرق بعد مصر » .

وقد قام محمد مختار وأعوانه المصريون بأعمال جغرافية جلية كانت فتحاً جديداً ، من ذلك :

أولاً — اكتشاف المناطق بين زيلج وهرر ووضع خريطة للمدينة وضواحيها من صنع محمد مختار وعبد الله فوزي .

ثانياً — اكتشاف ومسح المنطق بين بربرة والدوبار ووضع خريطة لها من رسم عبد الرازق نطمي .

ثالثاً — اكتشاف المناطق بين تاجورا وبحيرة أوسا بواسطة محمد عزت .

رابعاً — اكتشاف مناطق نهر الجب وقساويو بواسطة صدقي وعبد الرازق وحسن واصف .

خامساً — وضع خرائط متنوعة دقيقة لهرر وملحقاتها عملت بمعرفة أحمد وعدي وعبد الكريم عزت .

وقد اعترف كثيرون من علماء الأجانب بآثار الحكم المصري . زار المهندس الايطالى بريكىتى هرر سنة ١٨٩٦ ورأى ما آلت اليه حالها فقال : « ان تبشير العصر الذهبي طلعت على هرر في أيام المصريين اذ أخذت البلاد تنيق من غفلتها ونحيا حياة جديدة وظهر النشاط في الأرض فخرجت من غصون الوديان الوعرة جنات فاكهة وحقول حنطة » .

وكتب (بوليتشكا) النمىوى فى كتاب رحلته يقول : « ان الاحتلال المصرى حادث كبير فى تاريخ هرر وكيف لا يكون كذلك وقد تمكن المصريون من ادخال ثقافة شرقية فى بلد همجى ونشروا التجارة وأمنوا السبل وبالجملة أحدثوا انقلابا خطيرا فى أحوال هرر . وان الذى يعرف الشرق — ولا سيما البلاد الافريقية الحالية من أبسط مبادئ الثقافة — لا يسهه الا أن يقرر أن المدينة المصرية تحتل مكانة عالية من المدينة عامة . ومن الثابت أن استيلاء المصريين على هرر وزيلع وبلهار وبربرة وجميع الساحل لغاية رأس جردفون كانت له ، فى مجموعه ، نتائج ثورية لا فى هرر فحسب بل فى جميع القسم الشمالى من أفريقيا الشرقية ، نتائج لا أظن أن احتلالا آخر وصل اليها فى أفريقيا » .

الفصل الخامس

امتداد السودان صوب منابع النيل

أخطأ اسمايل في حسابه اذ توهم انه قد يكسب عطف انجلترا ومعونتها في تنفيذ سياسته الأفريقية بالاستعانة بموظفيها في حكم السودان وبسط حدوده جنوبا . فالى هذه الادارة المختلطة التي ظلت من سنة ١٨٧٠ لغاية سنة ١٨٧٩ ترجع معظم أسباب ثورة المهدي واضطراب الأحوال في السودان . وقد هيمنت هذه الادارة أولا على شؤون أواسط أفريقيا وأقاليم خط الاستواء (صاموئيل بيكر ١٨٦٩ - ١٨٧٣ وغردون ١٨٧٤ - ١٨٧٦) ثم على شؤون السودان كافة بتعيين غردون في وظيفة الحاكم العام (١٨٧٧ - ١٨٧٩) .

ويلاحظ أنه بينما كانت الأمور آخذة في الاستقرار وحركة الاصلاحات في تقدم مستمر في مناطق الادارة المصرية البحتة في هرر وسواحل البحر الأحمر كانت شؤون السودان المالية والاقتصادية والسياسية والعمرانية في هذه الفترة في ارتباك مستمر .

١ - صاموئيل بيكر في أفريقيا الوسطى (١٨٧٠ - ١٨٧٣) :

يجب أن نذكر أولا أن انجلترا كانت مهتمة منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر بتمهيد سبيل الاستعمار في أفريقيا بواسطة المبشرين والمكتشفين فكان المبشر الألماني (كرايف) مندوبا لجمعية المبشرين الانجليزية وهو الذي اكتشف جبل كينيا في سنة ١٨٤٩ . واكتشف الرحالة

الانجليزى (اسبيك) بحيرة فكتوريا نيانزا (نيانزا بمعنى بحيرة) نبة الى الملكة فكتوريا (١٨٥٨ م) وهى اكبر بحيرات القارة تقع فى شاطها أوغندة وفى جنوبها أفريقيا الشرقية الألمانية القديمة . ولا تبعد من المحيط الهندى بأكثر من ٦٥٠ كيلو مترا وهى تعد لهذا السبب فى منطقة أفريقيا الشرقية . وقد كانت وجهة اسبيك اليها من طريق زنجبار والساحل وهو الطريق الطبيعى . وقد زار اسبيك فى أثناء رحلته أوغندا وملكها امتيزا .

وكان الرحالة بيرتون Burian يصحب اسبيك فى اكتشافاته وكلاهما كان تبعاً لشركة الهند الشرقية ، وقد اشتركا معا قيل الوصول الى منطقة البحيرات فى اكتشاف هرر وزيلع وبربرة وما اليها . كل ذلك يلقى ضوءا واضحا على أغراض السياسة الانجليزية المبيتة وعلى بعد نظرها وقدرة تنفيذها .

وقد اكتشف بيكر فى سنة ١٨٦٤ بحيرة ألييرت أو البيرت نيانزا وهى أهم منابع النيل بعد فكتوريا ، وكانت هذه الرحلة الأولى لحساب الحكومة الانجليزية ، وكان طريقه فى الذهاب و لعودة يمر بالقاهرة واطرطوم وغوند وكورو ، وقد زار بيكر مملكة الأونبورو المجاورة لأوغندة ، وزار ملكها .

وظاهر من كتابات أولئك المستكشفين جميعا أن كراهية العرب الذين نزحو الى أفريقيا وتغلغلوا فيها متأصلة فى نفوسهم سيما وأن أولئك العرب كانوا يمشون المدنية وسط الهمجية والوثنية بلباسهم وعقائدهم ومعاملاتهم التجارية وصقلهم فكانوا المنافس الأول للأوربي الطامع .

وحسبنا ما كتبه بيكر نفسه فى كتبه (ألييرت نيانزا) سنة ١٨٦٤ — وقد كان ذلك التاريخ يوازى بداية حكم اسماعيل — ففيه تبدو خطة قديمة معينة لتحقيق أهداف بعيدة كل البعد من الأهداف العلمية

أو الجغرافية البحتة . قال بيكر في مقدمته : « ان المكتشف يفتح الطريق للمستعمر وأن هذا الأخير بدوره هو الأداة التي يتم بواسطتها بسط المدنية في العالم » وقال : « ان انجلترا تمتلك الوسائل التي تساعد على نشر لواء المدنية وان الطبيعة قد رسمت لها مهمة استعمار العالم » .

وقد حمل بيكر في غضون كتابه على النخاسة وقال ان تجارة الرقيق مزدهرة في الصعيد وان مصر لا تعمل على التضييق عليها في ربوع النيل واقترح أن تمنح الدول الأوروبية قنصلها في مصر والسودان السلطة الكافية للتدخل والاستيلاء على السفن المحملة بالعبيد وتحرير الأرقاء أيا كانوا وقال : « اذا بدأت احداها أسرع الدول الأخرى الى التدخل حتى تحول بينها وبين الاستتار بوطأة النفوذ في مصر » .

فمحاربة النخاسة مبدأ انساني والكشف عن منابع النيل غرض علمي ولتحت ستار هذين العرضين يجب فتح أفريقيا للتجارة والاستعمار .

فطن اسماعيل الى هذه الأغراض الواسعة البعيدة ففكر منذ سنة ١٨٦٥ في امتلاك الساحل الأفريقي للبحر الأحمر . ولا ريب أن العامل الأول الذي ساعد على سرعة انتشار نفوذ مصر في هذه الأقطار هو انتشار العرب المسلمين في داخل أفريقيا وبالأخص على سواحلها الشرقية وقد كان اسماعيل يعلم ذلك تماما ويعلم أن العنصر الوطني هو العنصر الوحيد الذي يجب أن يوكل اليه مهمة الفتح والتوسع في أفريقيا لحساب مصر . ولكن انجلترا لم تكن بغافلة فانها أرادت التدخل كما رأينا تحت ستار محاربة النخاسة وادخال العنصر الأجنبي في مصر وفتوحاتها ليمهد الطريق لها .

وقد وفد على مصر في سنة ١٨٦٩ ولي عهد انجلترا ومعه الرحالة بيكر وطلب الى الخديوى تكليف هذا الأخير بمهمة في أواسط أفريقيا لحساب مصر وكانت أهداف المهمة :

أولا — اخضاع البلاد الواقعة في جنوب غوند وكورو لحكم مصر .

ثانيا - الغاء تجارة الرقيق واحلال تجارة نظامية مشروعة محلها .

ثالثا - أن تفتح لملاحة بحيرات خط الاستواء الكبرى .

رابعا - تأسيس سلسلة محطات عسكرية ومستودعات تجارية في أفريقيا الوسطى على أن تكون غوند وكورو قاعدة تموين لها .

وقد وكل اسماعيل بالاتفاق مع ولى العهد الى بيكر قيادة الحملة لمدة أربع سنوات تبتدىء من أول ابريل سنة ١٨٦٩ .

وظاهر أن اسماعيل قد أفهم أن في مقدور بيكر احتلال جميع بلاد أعلى النيل وتنظيمها وضمها الى مصر في خلال السنوات الأربع وربما كان ذلك ميسورا لو أن بيكر كان من المنظمين أو لو أن الغاء تجارة الرقيق التي ألغها الناس مئات الأعوام وأصبحت جزءا لا يتجزأ من نظام حياتهم ومعاشهم كان من طريق آخر غير طريق العنف والظفرة .

وليس أدل على أن روح بيكر كانت روح مغامر خيالى لا يعالج المشاكل على وجوهها من أنه كان يعتقد أن مجرد انشاء نقطة عسكرية في منطقة من المناطق من شأنه القضاء على تجارة النخاسة في هذه المنطقة .

كانت تجارة العاج من العوامل الرئيسية في تجارة الرقيق لأن مطاردة العبيد وحدها كانت لاتأتى بالربح الوفير اذا سيق أولئك الى الساحل فارغى الأيدي فكان التجار العرب أو البرتغاليون في غزواتهم المسحقة يتهبون العاج ويحملون الرجال والنساء والأطفال أسرى وعبيدا .

وكان كبار التجار كالعقاد وغطاس وغيرهما بالخرطوم محتكرين تجارة العاج وكانت لهم منشآت ومخازن أو زرائب بالقرب من بحر الغزال ودارفور وكردفان وكان لهم جند وخدم وأتباع وأعوان في كل مكان فكانت مصانعتهم أمر لا بد منه .

وصل بيكر الى الخرطوم في سنة ١٨٧٠ وبعد أن قضى فيها عدة أشهر غادرها في ١١ ديسمبر فبلغ غوندوكورو في ١٥ أبريل سنة ١٨٧١ ، وفى ٢٦ مايو أعلن ضمها رسميا الى مصر وسماها « الاسماعيليه » نسبة الى اسماعيل .

وقد ألف بيكر فيما بعد كتابا خاصا بهذه الرحلة عنوانه (الاسماعيلية
أو تاريخ الحملة المرسدة في أفريقيا الوسطى للقضاء على تجارة النخاسة) .
ظاهر من هذا العنوان ومن كل أعمال بيكر أنه على الرغم من أن
القضاء على النخاسة لم يكن إلا أحد الأهداف المرسومة لحملة فقد
تجمعت الأهداف كلها وتضاءلت في ذلك الهدف وحده وفي وسائل العنف
التي اتبعت لتحقيقه .

كان مقام بيكر في غوندوكورو نذير شر لأنه أساء معاملة قبائل
الباري الضاربة حوالى مدينتي غوندوكورو ولادو ، وقد استعان في
قتالهم بطائفة من الجند المصريين المدربين يرأسهم الكولونيل المقتدر
عبد القادر بك ^(١) . ولئن تغلب عليهم فانه لم يخضعهم ولم يكسب مودتهم
بعد أن أعمال فيهم القتل والنهب واستولى على قطعان أبقارهم وخرافهم
وعلى ذرتهم لتموين جنوده .

من أجل ذلك ظلت الحالة قلقة مقلقة وكان الأجناد عاكفين في داخل
المدينتين لا يخرجوا أحدهم على الخروج حتى لا يعرض حياته للخطر .

كتب جيسى الايطالى الذى صحب غردوز خليفة بيكر وهبط مدينة
لادو في أكتوبر سنة ١٨٧٤ يقول : « ان سكان لادو نزلت بهم فوادح
كثيرة في أيام بيكر من ذلك أن بيكر طلع ذات يوم على المدينة وبصحبه
ثلثمائة مقاتل وبلغت السكان مستوليا على اثني عشر ألفا من البقر ولم
يترك لهم في الوقت نفسه من الأذرة شيئا . ومن ذلك الوقت ازداد
الفقر في المدينة وكان لا بد لها من سنوات طوال لتستعيد فيها عدد البقر
الذى فقدته وكان المصدر الوحيد لثروتها ^(٢) .

(١) الكولونيل عبد القادر بك غير عبد القادر باشا حلمى وزير السودان
وحاكمه بعد رؤوف وغير اسماعيل باشا عبد القادر حاكم سواحل البحر
الاحمر وقد كان الثلاثة من العبقريين .

(٢) ظهر بتاريخ ٥ أغسطس سنة ١٨٧٤ مقال في جريدة « الميل »
دفعنا عن بيكر وقد رد على هذا المقال في نفس الجريدة بتاريخ ١٢ أغسطس
مستر وليم « رئيس الميكانيكيين في حملة البحر الابيض »

أى رفق بيكر بمقال جاء فيه :
=

« وبصحبتي الآن اسماعيل أغا وهو أحد الضباط الذين أبلوا بلاء حسنا في عهد بيكر وقد قص على هو وجنوده أعمالا ارتكبتها الحاكَم العام بلغ من فظاعتها ان القلم لا يطاوعني في وصفها (١) » .

وفي يناير سنة ١٨٧٢ اتجه بيكر صوب الجنوب . وأنشأ في أثناء الطريق نقطة عسكرية في فاتيكو التي كانت مركز التخاسين .

ولم بلغ مازندي عاصمة الأونيورو كان فظا في معاملة ملكها كباريجا الذي ذهب ليتيميله الى الحكم المصري فحاول أن يسيطر عليه بالخوف وعامله بحتقار ونظر اليه نظرة السيد الى « العبد الخصى » — على حد تعبير الملك نفسه — فاتهم خصومه هذه الفرصة للإيقاع به فما كان منه الا أن أعلن رسميا عزل كباريجا من الملك وضم مملكته (١٤ مايو سنة ١٨٧٢) ، على أن ذلك لم يمنعه من الاضطراب عاجلا الى الفرار والعودة بعد تدويخ رجاله وارهاقهم في بلاد وحروب وعرة .

وقد قام بيكر في أغسطس بحملة جريئة في فاتيكو ضد أبي السعود العقاد فتمكن من القبض عليه ومصادرة العاج في جميع شونه .

عاد بيكر الى غولندوكورو في أول ابريل سنة ١٨٧٣ اذ ينتهي أمد مهمته وهناك دلف الى القاهرة تاركا القيادة الى رءوف بك (رءوف باشا حكمدار هرر فيما بعد) .

قلنا ان بيكر لا يفكر الا في العنف وفي وسائله وقد بلغ به الأمر أنه كان يفكر جديا في انشاء قوة جديدة من عصابات أبي السعود المسلحة يستعين بها في تحقيق مهمته يتضح ذلك من خطاب هام وجهه

= « أنتى أفضل عدم ذكر تفاصيل فظائع هذه المجازر التي ارتكبت بكل هدوء . وان طائفة من الهجمات العديدة التي شنت على الوطنيين الأمنين في ضواحي غوند وكورو قد قام بها صموئيل بيكر شخصا ، وكان يستولى في هذه الهجمات على ٢٠٠٠ رأس خروف ، ويعمل السلب والنهب في المساكن ثم يشعل النار فيها . وكانت سرقة البهائم ليس الغرض منها ايجاد غذاء للجنود فحسب بل توزيعها على القبائل الاخرى بشرط أن تنضم الى بيكر وتعمل تحت رايته . . »

(١) انظر كتاب جيسى باشا (سبعة اعوام في السودان) الطبعة الانجليزية أو الإيطالية .

البه الخديوى فى فبراير سنة ١٨٧٢ جاء فيه « لقد وصلنى التقرير الذى بعثت به فى أكتوبر من محطة الاسماعيلية حيث وصلت بعد رحلة استغرقت أكثر من خمسة أشهر . . . ان المهمة التى منحتها العقاد لمفادرة السودان وترك تجارته فيه قد أوشكت أن تنتهى ومن رأيك ضم رجاله الى جنودك واحلالهم محلهم تدريجيا اننى أخالفك فى هذا الرأى اذ أن مهمتك فى أساسها مهمة سلام وتقدم ، انك مكلف باستمالة السكان الى الرجال « البيض » الذين ما دخلوا بلدا من بلادهم الى الساعة الا للقتل والنهب والاستيلاء على الأسرى والعبيد . ان الشقة بينك وبين الخرطوم طويلة صعبة فوطد مركزك ودعنه فى غوندوكورو واجتذب الناس اليك لقد أنصهرت بأسك لقبائل البارى فأظهر الآن عدلك نحوهم وترفق عليهم ئيظمنوا اليك والى غاياتك . . . كل هذا العمل المادى والروحانى يتطلب منك وقتا طويلا لا أدرى كم مداد ولكن الذى أعلمه انك متى أديته الى حد ما وأنت مفهم فى غوندوكورو فسينفتح أمامك الطريق الى البحيرات ويصبح ميسرا (١) » .

القران التى نشرناها من هذا الخطاب تدل بصراحة على بعد المسافة بين وجهتى النظر الانجليزية والمصرية ، فاذا تعمد ييكر تجاهل وجهة نظر مصر أو عجز عن اداء المهمة التى ئيظت به فالتبعة عليه .

وقد كلفت هذه الحملة مصر أكثر من مليون جنيه وكانت نتائجها تافهة لاتعدو انشاء ثلاث نقط عسكرية وخط حدود خيالى تتألف منها مديرية خط الاستواء ، ولم يكن الطريق بين هذه النقط غوندوكورو — فاتيكو — فويرا — مأمونا معبدا .

على أن نتائجها الأدبية فى تسوية سمعة مصر وانقاص هيبتها بين سكان تلك المناطق النائية كانت كبيرة . ولعل ذلك كان فى صالح السياسة الانجليزية فقد كتب عضو فى الوزارة الانجليزية الى ييكر على أثر عودته الى لندن فى أواخر سنة ١٨٧٣ يقول « مهما كان من أمر تجارة الرقيق

(١) سجلات عابدين . خطاب من الخديوى اسماعيل الى صاموئيل ييكر فى فبراير سنة ١٨٧٢ .

فان حملتك لابد أن تكون أدت الى بسط النفوذ الانجليزى فى مصر .
كم سنتظر من الوقت حتى يكون لنا سفن بخارية حاملة العلم الانجليزى
فى البحيرات ويكون لنا خط مواصلات منتظم يصل البحيرات بالقاهرة ؟
اننى لا أعرف فى الوقت الحالى فى العالم شيئا يعدل فى عظته التقدم
المطرد السريع الذى يصحب تغلغلنا فى قلب أفريقيا ، ومن الثابت الذى
لا ريب فيه أن الطريق يمر معظمه فى الأراضى المصرية »

وبعد ذلك بأربعة أعوام فى سنة ١٨٧٨ ، أى قبل خلع اسماعيل بسنة
واحدة كتب بيكر نفسه يقول بمناسبة الجدل الذى حدث وقتئذ حول
المسألة الشرقية بعد امضاء معاهدة برلين « لا يعنى الا أن أنظر مقتبعا
الى التغييرات التى حدثت فى مصر والى اطراد ازدياد النفوذ الانجليزى
فيها منذ سنة ١٨٦٩ اذ وُظف الخديوى لأول مرة انجليزيا ومنحه السلطات
المطلقة للقضاء على تجارة النحاس فى أفريقيا الوسطى . وقد كان ذلك
الاجراء بمثابة الحجر الأولى فى أساس الإصلاحات التى تمت بعد ذلك .
فما كادت مهمتى تنتهى فى سنة ١٨٧٣ حتى عين غردون خلفا لى فصار
على النهج . وقد ساعدت محاربة تجارة الرقيق على فتح الباب للتدخل
الانجليزى فأصبح ملكولم باشا فى خدمة الحكومة المصرية للقضاء على
هذه التجارة فى البحر الأحمر وأصبح ماك كيلوب ايضا باشا وبذلك
أسبغت سلطات واسعة على أربعة من كبار الانجليز .

« والواقع أن بلدا مهاجرا = كإنجلترا فى كل عصورها = ليس
فى مقدوره أن يقف كما يشاء فى زمان أو مكان يرتضيه . نحن مدفوعون
الى الأمام ومضطرون بقوة الظروف الى مد حدودنا ولو لم يتفق ذلك
مع رغباتنا (١) » .

ولا شك أن هذه الحقائق الصريحة تلقى ضوءها على حملة بيكر
وتكشف عن العوامل الرئيسية الثابتة التى أدت الى فشلها وفشل مهمة
غردون وغيره من الانجليز أو الأجانب الموالين لهم الذين منحهم مصر
ثقتها لاعلاء كلمتها ونشر نفوذها فى ربوع أفريقيا .

الفصل السادس

٢ - غردون في أفريقيا الوسطى

(١٨٧٤ - ١٨٧٦)

عاد بيكر الى القاهرة في أغسطس سنة ١٨٧٣ وقدم استقالته من وظيفة حاكم « مديرية خص الاستواء » . وفي العام التالى (١٨٧٤) خلفه غردون فى نفس الوظيفة . وكانت مهمته الرسمية توطيد سلطة مصر ومدها الى البحيرات ، وقد نجح الى حد فى تنفيذ الشرط الاول ولكنه تردد وتلكأ فى تنفيذ الشرط الثانى تحت ضغط السياسة الانجليزية .

بلغ غردون الخرطوم فى ١٣ مارس سنة ١٨٧٤ ومعه الضابط الأمريكى شامى لونج والمهندس المصرى ابراهيم فوزى والضابط حسن واصف والمهندس الايطالى روميلوس جسى والمهندس القرلى لبنان وطائفة أخرى من الضباط والمهندسين الانجليز .

وفى أواخر سنة ١٨٧٤ جعل غردون عاصته فى لادو وكان يفكر جديا فى ايجاد مواصلات منتظمة بين النيل والبحيرات وتسيير سفن بخارية فى بحيرة فكتوريا تيانزا ، ولكن شغله الشاغل الاول كان حل مشكلة المواصلات بين مديريته ومصر اما عن طريق الشمال (الخرطوم - النيل) واما عن طريق الشرق (أوغندة - ساحل أفريقيا الشرقية) .

جاء فى يومياته بتاريخ ٢١ يناير سنة ١٨٧٥ : « لقد اقترحت على الخديوى أن يرسل سفينة بخارية الى خليج موباسا الواقع على

بعد ٢٥٠ ميلا في شمال زنجبار وأن يثنىء هناك محطة للتقدم منها صوب
امتيزا ملك أوغندة . فاذا نجحت في تنفيذ هذه الخطة جعلت قاعدتي
في مونياسة وتركت الخرطوم والمراكب البخارية ومتاعها .

« وبهذه الطريقة يمكن فتح الطريق الى أواسط أفريقيا بطريقة عملية
ناجعة خصوصا وأن أجل البقاع في هذه المناطق هي الأراضي العليا
الوشبكة من امتيزا في حين أن البلاد الواقعة جنوبا ، من لادو الى
الخرطوم كلها مستنقعات » .

وكان تدبير الأمر يقتضى عودة لونج الى مصر ليتولى بنفسه اعداد
الحملة المتفق عليها بين الخديوى وغردون . وقد تمكن لونج قبل عودته
من امضاء معاهدة مع امتيزا ملك أوغندة ، بتاريخ ١٩ يولييه سنة ١٨٧٤ ،
يعترف الأخير فيها بحماية مصر .

وقد سبق ذكرنا أن هذه الحملة التي اشترك فيها لونج ورأسها ماك
كيلوب باشا (سبتمبر - ديسمبر ١٨٧٥) قد بلغت نهر الجب في اتجاه
مونياسة وفي أقصى حدود « السومال الايطالى » ولكن انجلترا باسم
حقوق زنجبار على الساحل أرغمت مصر على اخلاء جميع المين التي احتلتها
بين رأس حافون ونهر الجب .

وكان اسماعيل في بداية حملة الجب وقبل احتلال المين على ساحل المحيط
الهندي يرى أن بلاد السومال جميعها تؤلف منطقة النفوذ المصرى ، يدل
على ذلك ما كتبه الى غردون بتاريخ ١٧ سبتمبر (١٨٧٥) في كتاب يقول
فيه : « ان مصب نهر الجب تابع لهذه المنطقة . - وهو النقطة التي
تفصل على الساحل بين اراضى زنجبار وأراضى السومال . وجميع
الخرائط تبين هذا الحد . ولاشك أن جميع اراضى السومال التي تحتل
الآن فعلا القسم الشمالى منها أصبحت تابعة لنا بساحلها الشرقى كما تتبعنا
بساحلها الجنوبى . فاذا ما فتحنا طريقا بين البحيرات ومصب الجب فتحناه

في أرضنا نحن . ولا يزيد هذا الطريق الا بمقدار مائة ميل عن طريق فورموزة (الذي اقترحه غردون من قبل) وحسبه أنه يآمن من العوائق الخارجية (اشارة الى الانجليز) » .

وفي سنة ١٨٧٦ (بعد فشل حملة الجب) قرر اسماعيل فتح طريق بين هرر ومحيرة فكتوريا للاتصال بقوات غردون وإيجاد مواصلات سهلة للتجارة بين البحيرات والساحل (زيلع وبربرة) . وقد صدرت التعليمات الى قائد هرر « بأن يفتح بالتدريج طريقا لغاية كابيتزا Capizza على سواحل فكتوريا » .

ولأجل فتح هذا الطريق الأخير كان يجب أن توطد مصر قدمها أولا على سواحل فكتوريا وفي أوغندة ولكي انجلترا كانت لها بالمرصاد على أن الطريق من ناحية هرر بفضل تقدم المدنية المصرية وانتشار الاسلام كان يفتح رويدا رويدا خصوصا من ناحية الجالا . ومعلوم ان هذه القبائل كانت تحيط بالحبشة وان الحبشة احتلت هرر سنة ٨٧ (بعد أن أرغمت انجلترا مصر على اخلائها سنة ٨٥) وان منليك الثاني الذي أصبح ملكا في نوفمبر سنة ١٨٨٩ هو أول من دعم ممالك الحبشة المختلفة وأخضع لأول مرة اخضاعا فعليا قبائل الجالا في شرق الحبشة وفي الجيوب والغرب . فتمكن من زيادة مساحة الامبراطورية الى الضعف تقريبا ، وذلك بضم مناطق واسعة من الأراضي اليها . واذا أضفنا الى ذلك أن الحبشة اسنولت على منطقة أوجادين الواقعة في وسط شبه جزيرة السومال والتي كانت في صميم منطقة النفوذ المصري تبين لنا مقدار ما أصاب مصر وعاق تقدم المدينة في هذه الأرجاء . وقد ظل سكان هضبة أوجادين مستقلين فعلا تحت راية المهدي عبد الله الذي ظل منذ سنة ١٩٠١ يجاهد ويعلن الحرب المقدسة على المشركين .

كان موقف انجلترا الحاسم من التوسع المصري من ناحية مونيابة

والساحل ومن ناحية أوغندة ومنابع النيل من أكبر العوامل التي ربكت غردون في أداء مهمته فانقلبت غيرته الظاهرة على المصالح المصرية في سنة ١٨٧٥ الى تردد وحيرة واضطراب في سنة ١٨٧٦ .

كتب غردون من موجي في ٢١ نوفمبر سنة ١٨٧٥ يقول : « انه سيتقدم صوب البحيرات ليرفع هناك الراية قبل استائلي .. لأن مصر يجب أن تهيمن على البحيرتين جميعهما : فكتوريا وألبيرت » .

وقد أرسل في يناير سنة ١٨٧٦ الضابط المصري نور أغا (نور بك محمد) وزوده بالتعليقات الآتية : « سل امتيزا اذا كان يريد قوات مصريه في أوروئندوجاني فاذا قال « نعم » فزره واذا قال « لا » فذهب الى نياميونجو لأن هذه المحطة الأخيرة كانت تابعة لكاباريجا وقد أصبحت تابعة لنا الآن بعد أخذنا امرولي » .

وعلى الرغم من مظهر التردد والاضطراب الذي ظهر به غردون في مسلكه فان امتيزا اعتقد أن تمثل الدولة « الحامية » جد في أمره وتقدم لاستقبال الحامية المصرية ، لا في أوروئندوجاني ، ولكن في عاصمته . روباجا .

علم بذلك غردون في ٢ أغسطس (١٨٧٦) من خطاب أرسله نور أغا فكتب اليه : « بما أن هذه هي رغبة امتيزا نفسه فاني سأترك المائة وستين جنديا هناك . وهو وحده المسئول عن ذلك . وقد كنت أريد أن يحتفظ باستقلاله ولهذا السبب كنت اخترت طريق النيل — أوروئندوجاني وكوسيتزا (شلالان ريبون) — ولكن الآن وقد أصبحت لنا حامية في عاصمته فان قوة صغيرة تكفي لحراسة هذه الأماكن ، وسيكون نصيبه الأسر اذا لم يلتزم الهدوء . واني أرى الآن في قبضة يدي تجارة زنجبار كلها . الواقع أن استقلال امتيزا أصبح في حكم المقتود (١) » .

والمعجب أن غردون منذ ارسال ضابطه في يناير كان يجب عليه أن يستمر في اتجاهه نحو الجنوب وأن يذهب على رأس قوة جديدة الى بحيرة فكتوريا وعاصمة اميتزا (وهي تقع في شمالها) ليؤيد مبعوثه ، ولكنه بدلا من ذلك اتخذ طريق الشمال وقفل راجعا طارحا مهمته وراءه . ومن أعمال غردون التي تتم عن قلبه وعدم استقراره مبادرته بتبليغه برقا الخديوى ماحدث في أوغنده . وقد بادر الخديوى من ناحيته بمنحه النشان المجيدى ولكن في الوقت الذى وصل فيه رد الخديوى كان غردون قرر من تلقاء نفسه اخلاء أوغنده التي احتلها المصريون شهورا بحجة أن الجنود كانت في « موقف حرج » وانه لم يكن من « حسن السياسة » اجابة طلب اميتزا .

وقد عادت الجنود من عند اميتزا في ٩ سبتمبر وكان برفقتها الدكتور أمين الألمانى (ادوارد اشنيتر) الذى أرسله غردون لمفاوضة الملك في أمر انسحابهم (١) .

(١) كتب برنارد الن في كتابه (غردون والسودان) الذى ظهر في سنة ١٩٣١ يقول : « بعد احتلال مازندى عاصمة الاونيورو ارسل غردون فرقة من الجنود لاحتلال ماجونجو في اقصى حدود مملكة كاناريجا الغربية وعلى سواحل بحيرة البيرت . ثم سار جنوبا بعد ان اقام خمسة ايام في فوبرة واستقر في امرولى حيث انشا محطة او نقطة عسكرية . وكان في نته وقتئذ ان يمعن في تقدمه نحو الجنوب ويحتل نقطة على ضفاف بحيرة فكتوريا ، ولكنه فضل بعد لاي العودة صعدا الى الشمال . وقد اكتفى بتكليف الضابط المصرى نور أغا بالذهاب الى اوغنده لانشاء نقطتين احدهما في اوروندوجانيا على حدود اميتزا الشمالية والاخرى في كوسيتزا على بحيرة فكتوريا .

» وقد غادر غردون امرولى في ٢٤ يناير وبينما كان يكتشف النيل من دوفيلة الى البحيرات وصله في ماجونجو كتاب من نور أغا انه بناء على طلب اميتزا وضع حامية في عاصمته روباجه على ضفاف بحيرة فكتوريا . وكتب الدكتور فيلكين في تعليقه على مذكرات أمين باشا وهو من المبشرين الانجليز الذين جلبوا واسط افريقيا في عهد الحكم المصرى وزاروا =

وقد استمر غردون في طريقه شمالا حتى وصل الخرطوم في أكتوبر ،
ومن هناك يمم القاهرة ثم لندرة ...

وظاهر أن غردون اذ منع مصر من توطيد قدمها في أوغندة وعلى
ضفاف فيكتوريا ، بعد أن احتلت عاصمتها ، قد فعل ذلك لتفادي اغصاب
الحكومة الانجليزية فقد كتب من امرولى بتاريخ ٩ سبتمبر (١٨٧٦)
يقول : « لقد عادت الجنود من دوباجة (يريد روباجة) . ان امتيزا على
اتصال مستمر بزنجبار .. ويظهر أنه يجهل أن بعثة انجليزية (مؤلفة من
قسيس وضابط بحرية وعمال ..) في طريقها اليه . وقد سحبت جنودى
قبل وصولها .. »

وفي أول سبتمبر سنة ٧٦ أرسل غوردون من امرولى مذكرة خاصة
بالبعثة الانجليزية في أوغندة الى رئيس أركان حرب الجيش المصرى
(وصلت في ١٣ نوفمبر) جاء فيها : « مما لاشك فيه أن ارسال بعثة
مسيحية عند الشعوب الوثنية أمر لا اعتراض عليه . ولكننا إذا درسنا
تكوين بعثة أوغندة ظهر لنا أنها ليست مسيحية في جوهرها اذ أنها تتألف

— أوغندة .. وقد اظهر لى اميزا مرارا كل تقدير للطريقة التى حافظ بها
امين على استقلاله وقت ان كان مهددا بتصرفات نور بك غير الحكيمة
(كذا) . وكان نور بك قد ذهب الى عاصمته على رأس ثلثمائة جندى
مصرى ليصم أوغندة الى مصر . وقد كان تصرف نور بك يتعارض تماما
مع اوامر غردون باشا » .

نضيف الى ذلك ان امين باشا هذا الذى خلف غردون في مديرية خط
الاستواء ذهب في مارس سنة ١٨٨٢ الى الخرطوم لزيارة عبد القادر باشا
حلمى ونجح في الحصول منه على أمر باستدعاء نور بك محمد الذى كان
وقتئذ القائد العام لقوات خط الاستواء ، والضابط بخيت بك بطرقى
كبير ضباط مركز مكراكا .

ويرى (فيتا حسان) وهو يهودى نونسى كان يشتغل مع امين ومؤلف
كتاب بالالمانية عن مديرية خط الاستواء « ان استدعاء هذين الضابطين
المجرىين سببه غيرة امين وخوفه من نفوذهما » .

من قسيس ، وضابط من البحرية الملكية ، وطبيب ومهندس معماري ،
ومهندس ميكانيكي ، وأستاذ ، ورجل زراعي ، واختصاصي في بناء
السفن .

« فهدد البعثة اذن أشبه بتجريدة استعمارية ، وبهذه الصفة يجب
أن تنظر اليها الحكومة المصرية .. »

« واني واثق أن تنظيم هذه البعثة التمديدية من عمل صموئيل بيكر ،
وقد وصلني من انجلترا خطاب يشتمل على نبذة من خطاب كتبه صموئيل
بيكر الى الرحالة جرائت جاء فيها :

« انني متعب من تلك الفتوحات المصرية ... واني لأعجب كيف
لايذهب أحد الفتيان ومعه مائة بندقية سنيدر ليحمي امتيزا وينظم
جنوده . ولولا عوائق الأسرة لذهبت بنفسى » .

« ولا ريب أنه من الأفضل كثيرا في الوقت الحالي أن يستخدم سمو
الخدوي الضباط الأمريكان بدلا منى ، لأننى لا أحب الكتابة في الصحف .
وبصفتى انجليزيا وضابطا في خدمة صاحب الجلالة لست أملك من الحرية
مايلكون » .

والغريب أن غردون مع تنحيه عن مهمته وعجزه عن تنفيذها لتعارضها
مع سياسة بلاده سيعمل بمجرد عودته الى لندرة على العودة ثانية الى
السودان بسلطات واسعة يستعين بها على تحقيق أغراض بلاده .

الفصل السابع

غردون في السودان

(١٨٧٧ - ١٨٧٩)

عاد غردون الى لتندرة بعد أن صدع بأوامر وزارة خارجية بلاده .
و ادعى أنه وضع حدا لتجارة النخاسة في مديريته ولكن بقي أن
يضع لها حدا في جميع السودان . وظهر أنه تحت ستار النخاسة التي
زعم بيكر من قبل أنه قضى عليها كان غردون يطمح ببصره الى منصب
الحاكم العام ، لا في مديريةية خط الاستواء وحدها ، بل في أقطار الوادي .

ذهب غردون ثانية الى القاهرة وأرسل الى الخديوى في ١٠ فبراير
سنة ١٨٧٧ شبه انذار يقول فيه « اعطنى السودان والافلن أسافر » .
وتدخل في الأمر فيفيان قنصل إنجلترا وحمل الخديوى عى كره منه على
قبول طلب غردون وعينه حاكما عاما للسودان في اليوم السابع عشر .

وكانت إنجلترا في ذلك الوقت واقعة تحت « كابوس » التوسع
المصرى صوب منابع النيل ، وكانت العرائض تقدم كل يوم الى الحكومة
الانجليزية ، بعلمها وتشجيعها ، للمطالبة بمنع الخديوى من بسط سيادته
على مناطق أفريقيا الوسطى ، حوالى البحيرات .

سأل فيفيان ، بناء على تعليمات حكومته ، غردون في الموضوع
فأجاب بانه مرتبط بتعليمات الخديوى التي يتحتم عليه بمقتضاها أن يتقدم
في هذه المنطقة وأن يضع سفينة بخارية في بحيرة فكتوريا . على أنه عرض

حلا وسطا يقضى بأن تعلن مصر ، بمجرد الانتهاء من هذه المهمة ، حيدة البحيرة وأن تعترف في الوقت نفسه باستقلال امتيزا بشروط عادلة (١) . وأخيرا عرض غردون حلا آخر تتنازل مصر بمقتضاه عن بحيرة فكتوريا على أن يكون لها الحق في الاحتفاظ بمملكة أوزوجا الصغيرة على البحيرة ومملكة الأونيورو وبحيرة أليرت . ولكن الحكومة الانجليزية طالبت بأن تجلو مصر عن جميع المناطق الممتدة حوالى البحيرات .

وهذا ما حدا بغردون في سنة ١٨٧٨ الى ارجاع الحدود المصرية الى منطقة خلفية بعيدة من بحيرة أليرت نيازا وأمر الدكتور أمين الذى خلفه في أفريقيا الوسطى باخلاء المحطات الجنوبية مع مازندى (عاصمة الأنورو) بحيث تصبح دوفيلة (على بعد ١٠٠ ميل من ماجونجو ومن بحيرة أليرت) أقصى حد للأراضى المصرية فى الجنوب .

روى فيتاحسان (٢) ، أن أمين حاول التمسك من هذا الأمر ، وبدلا من اخلاء المحطات عقد النية على بسط مديريته الى أبعد حدود بحيرة أليرت . ولكن غردون تمسك بقراره وكلف الايطالى جسى الذى كان موجودا وقتئذ فى بحر الغزال بالذهاب الى خط الاستواء وتنفيذ الاخلاء (٣) . ولكن ما كاد غردون يترك الخدمة فى السودان (١٨٧٩)

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٨٤ . مجلد ١٤٧٢ .
اقاهرة فى ٩ أبريل سنة ١٨٧٧ .

(٢) فيتاحسان (الحقيقة من امين باشا) بالالمانية

(٣) كتب فيلكن فى سنة ١٨٧٨ عن ملك الأيور قائلا : « ان كابريجا ماينفك يزعم المحطة (ماحونجو) بهجمات . ومما يؤسف له حقا أنه لم يقص على ذلك الحكم الطالم وكان ذلك ميسورا لعهد قريب لولا المعارضة القوية التى اثارها فى انجسرا قوم ينظرون بعيون غيارى الى كل امتداد للأراضى المصرية صوب الجنوب » .

وفى أغسطس سنة ١٨٧٩ أكد فيلكن أن من أعمال غردون الأخيرة قبل ترك منصبه اصدار الأمر باخلاء الأونيورو « وذلك اخليت محطات اسولى وكودج وكيرد . اما مازندى وكيسونا فكانتا أخيرا قبل ذلك بعامين . وتنشأ فى الوقت الحالى محطات أو نقط عسكرية جديدة لحراسة الحدود الجنوبية كما أن مديرية مكارا أدمجت فى المديريات الاستوائية =

حتى استعاد أمين المحيطات المتروكة . وقد اكتسبت فيما بعد قيمة كبيرة .
كان غردون في أثناء هذه الحوادث عين أمين محافظا لسواكن (على
البحر الأحمر) عقابا له . ولكن بعد رحيل غردون ألفى خلفه رؤوف باشا
هذا الأمر وأبقى أمين في وظيفته .

وليس أدل على التواء القصد على غردون وخبت طويته من ادعائه في
أحدى رسائله ، بتاريخ ابريل سنة ١٨٧٩ ، بأن « حكم المصريين في هذه
لأقطار النائية حكم قطاع ملرق » تبريرا لقوله « بأنه أخل أكثر من
نصف البلاد التابعة لمصر في خط الاستواء » وأن « ٣٠٠ ميل أصبحت
تفصل بيننا وبين امتيرا الآن ^(١) » .

تلك كانت الطريقة التي نفذ بها غردون تعليمات الخديوى الخاصة
ببسط السيادة المصرية على بحيرة فكتوريا وجعلها بحيرة مصرية .

وكان غردون يريد تفويض السيادة المصرية في السومال وهرر :
وغير خاف أن الارتباكات المالية والسياسية والتدخل الأجنبي في مصر كانت

== وقد تكلم فيلكن عن تنظيم مديرية خط الاستواء : « ان الدكتور
أمين هو الآن (١٨٧٩) الحاكم لهذه المنطقة الواسعة . ويوجد ثلاثة
مديرون او وكلاء للحاكم : واحد في مكوكا وواحد في كبرى وواحد في
ماجونجو . وهم يقسمون المحطات بالتساوي تقريبا . ويوجد في كل
محطة وكيل أو مدير مدنى وقائد عسكري » .

ووصف فيلكن العاصمة لادو فقال انها مدينة مشيدة باحكام
وان المستشفى والجامع والمباني الحكومية كلها مبنية بالعلوب الأحمر
وعليها سقوف من حديد . وأن الشوارع مستقيمة وأن حول الجدران
جنانر واسعة فيها من الخضروات والشجر كل نوع وأن ريفا بالشادوف .
وقد انشئت المحطات الأخرى على نمط لادو . وكان رؤساؤها المدنيون
والعسكريون من المصريين أو السودانيين . فكان سليم ستر مديرا لكودج
ومرجان الدناصورى مديرا لفاتيكو وفرج أجوك مديرا لامرولى واسماعيل
أبو حطب وكيلا في رجاف (أنظر Wilson & Felkin, UGANDA & THE EGYPTIAN
TIAN SUDAN 1882.

Hill, Colonel Gordon In Central Africa, p. 349. (١)

وقتئذ في أشدها وكان غردون تلقى دعوة في فبراير سنة ١٨٧٨ لرئاسة « لجنة التحقيق العليا » فلما وصل الى القاهرة رفض كل تعاون مع أناس « استولوا على حكومة البلاد بطرق غير شريفة » وقرر العودة الى السودان .

في ٣٠ مارس (٧٨) يم غردون السويس ولكنه بدلا من أن يذهب الى الخرطوم ليعالج الأحوال هناك رأى أن يقوم برحلة تفتيشية في مناطق السومال وهرر . في شهر أبريل زار زيلع وبربرة وهرر ولكنه قبل وصوله الى هذه المديرية الأخيرة قرر عزل رؤوف باشا الذي كان ينفذ خطة انشائية واسعة في أفريقيا الشرقية المصرية .

وحقيقة الأمر في رأى كاتب إيطالي : « ان المركز الضخم الذي وصل اليه رؤوف باشا بنفوذه الشخصي كان يثير الغيرة والقلق في نفس غردون (١) » .

والواقع أن غردون كان بيت أمر هذا العزل لأنه كان يفكر في تعيين أوربي مثل صاموئيل بيكر الذي كان نقمة على المديرية الاسنوائية مكان الحاكم المصري وقد رفض بيكر . فكتب غردون الى الرحالة بيرتون الذي كان وقتئذ قنصلا لانيجلترا في مدينة تريستا فرفض بدوره . على أن الخديوى الذى لم يحسب غردون لسلطته حسابا أبى الا أن يعين مصرى خلفا لرؤوف باشا . ولكى يؤمن هذه المناطق من شطط غردون انتزع في شهر ديسمبر (٧٨) هرر والسومال من إشراف الحاكم العام للسودان فأصبحتا تابعتين للقاهرة رأساً . وبذلك بقيت هذه المناطق بمعزل عن النفوضى الادارية والسياسية التى كانت ضاربة أطنابها في السودان في العهد الأخير (١٨٧٧ - ١٨٧٩) .

والواقع أن غردون لم يكن رجل ادارة أو سياسة . وكان يحكم السودان كأنه نائب الملك في الهند حكومة مطلقة قائمة على مبدأ تجاهل

خديوى مصر واحلال الأوربيين أو السودانين من طبقة خاصة محل المصريين فى الوظائف العامة .

قال فيت حسان فى كتابه : « ما كاد غردون يحتل منصبه حتى كان أول أعماله الادارية طرد الموظفين القدماء وتكوين بطانته من أشخاص عديمى التجارب من أهل البلاد رفعهم دفعة واحدة الى مراكز لم يكونوا أهلا لها اطلاقا ، وقد حدث فيما بعد ، فى بداية الحركة المهدية ، أن أولئك الموظفين كانوا أول من انقلب على الحكومة ونقض عهودها وأسرارها . » وقد عزلته هذه البطانة عن الأهالى واجترأت فى نلله على ارتكاب كل المساوى ودفعت السودان كله فى أحضان اليأس وزادت الطين بلة . « ولاشك ان المراسيم والأوامر التى لا يبرح يناقض بعضها بعضا وتدخل ادارة وضيفة وموظفين غير أكفاء أوجدت ارتباكا عاما فى أحوال البلاد . وليس أدل على فساد حكومة السودان واختلالها فى عهد غردون . من سنة ١٨٧٧ الى سنة ١٨٧٩ ، من العريضة التى رفعها تجار البلاد وأعيانها الى الخديوى اسماعيل سنة ١٨٧٨ » .

وكان النموى سلاطين بك (باشا فيما بعد) عين فى غضون سنة ١٨٧٩ مفتشا للمالية ثم حاكما لدارفور . وقد تكلم عن أحوال السودان ابان الثورة المهدية وقبلها فى كتابه المشهور (الحديد والنار فى السودان) . جاء فيه بخصوص العهد الذى نحن بصدده : « فى العهد الأخير بوجه خاص كان السودانىون الذين وصلوا الى عليا المناصب وكذلك أقرباؤهم المعيتون فى الوظائف الصغيرة ، يعتمدون على الاثراء فى أقصر وقت . وقد عين غردون لتاجر الثرى اليأس باشا مديرا لكردفان فاستاء خلق كثير . وقد خلف عبد الرحمن بك ناجى اليأس باشا مديرا وكان مثله تاجرا من كردفان ... ولاريب أن الروح « التجارية » المتأصلة فى مهنتهم كتجار كانت تسوقهم الى استغلال البلاد لمصلحتهم المادية ومصلحة أقربائهم ... »

« ولما كان من الصعب تجاهل الرأى العام فقد عزل الياس باشا وعبد الرحمن بك وعين مكانهما أترالك أو مصريون .

« على أننا نحن الأوروبيين ، على الرغم من أننا كنا قلة وكانت كراهية الناس لنا بوجه عام غير شديدة لتأصل حب العدالة في نفوسنا كنا في مناسبات عديدة سبب الاستياء .

« فقد حدث أننا ، مع حسن نياتنا ، كنا كثيرا ما نصدر قوانين ومراسيم تجرح السودانيين في عاداتهم وتقاليدهم وشعورهم وتبعث على مر الشكوى .

« وقد كان لأول اعلان (الحرية ^(١)) — بناء على أوامر الحكومة أسوأ تأويل في البلاد .

« ذلك أن تجارة الرقيق كانت مشروعة من الناحية الدينية . وكانت هذه التجارة تقوم السكان بانتظام بعناصر قية جديدة تؤدي أجل الخدمات للزراعة وتربية الماشية . ولم يكن الشارون يشغلون أنفسهم بالفظائع التي ارتكبت للحصول على العبيد وجلبهم الى سواحل النيل حيث يباعون . ولكن يجب علينا أن نعترف بأن العبد بعد اتمام الصفقة كان يرعاه سيده ويكرمه .

« وكان محمد أحمد (المهدي) يعرف كل هذه الشكاوى فعمل على استغلال الاستياء العام » .

ولنتقف الآن على مسألة الرقيق قليلا لعلاقتها القوية بإدارة غردون وبأحوال السودان قبل الثورة المهدية ^(٢) .

(١) منشور أصدره غردون لتحرير العبيد .

(٢) لا بأس هنا من ذكر كلمة عن النخاسة والنحاسين . الروية أو الديم عبارة عن نطاق محصن كان يستعمل في الوقت نفسه متجرا أى مركزا لتجارة العاج والعبيد ولوازم المعيشة . وكان لمعظم كبار تجار الخرطوم شركاء أو وكلاء لهم وظيفة ثابتة في الزرائب . وكان يوجد من هذه الزرائب اثنتا عشرة في بحر الغزال . وكان للوكلاء جنود غير نظامية أو بارنجر مهمتهما الحراسة وفقهاء كانت تجارة الرقيق من نواحي —

كانت تجارة الرقيق الشغل الشاغل الأول لغردون منذ وصوله الى الخرطوم بصفته حاكما عاما في مايو سنة ١٨٧٧ . وظهر منذ البداية على الأقل أن غردون كان يتردد في تنفيذ سياسة العنف التي نادى بها حكومته وحاولت فرضها عليه وعلى ملكولم ، وعلى بيكر من قبلهما ، وانه كان

= اختصاصاتهم . وكان أولئك الفقهاء مقدسين في نظر عامة الشعب رعا من أنهم كانوا محترفين بالتجارة الوضيعة ، يبيعون التعاويذ ويدجلون . كانوا يتنقلون بين الزرائب لا تخرج من أفواههم كلمة دون ذكر الله ونبيه ، وكانوا يخلطون بعباداتهم أعمالا منكرا ييرا منها الشرع .

ولا ريب ان كل تعرض لتجارة الرقيق او للزرائب كان معناه التعرض لنظام قائم على المصالح الاقتصادية والدينية في السودان . لان تجارة العاج (او العاج الابيض) كانت ذات اتصال بتجارة العاج الاسود (العبيد) وفروع التجارة الأخرى كما أن العبيد كانوا يقومون بجميع الأشغال في السودان (أشغال منزلية وزراعية) . وبالجمللة كانت الزايب عبارة عن قواعد حصينة يستند اليها نظام اجتماعي واقتصادي واسع لا يبدله ولا يغيره الا حركه تطور طبيعي في الاقتصاد والاجتماع .

فكان القول بالقضاء على النخاسة بقوة السلاح معناه قلب الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية القائمة دفعة واحدة والجري على سياسة هدامة مخربة مخوفة بالآخطار والصعاب وان طبيعة السودان المترامي الاطراف بمجاهله الواسعة وغاباته وجباله كانت تساعد النخاسين على الاحتماء والتخفى في جهات لا حصر لها من المستحيل مراقبتها .

روى الايطالى جسي في كتابه (سبعة أعوام في السودان) « ان الحكومة المصرية ارسلت في سنة ١٨٢٧ للمرة الاولى حملات في افريقيا الوسطى لفتح طرق جديدة . وقد انشأت وقتئذ محطات على بحر الغزال وبحر الزراف والنيل الابيض لمقايسة المنسوجات القطنية وغيرها بالصمغ والحبوب والعاج . والواقع ان التجارة كانت حكرة بيد الحكومة ولكنها تركت حرة حوالى سنة ١٨٤٨ . فحصل كثيرون من تجار الخرطوم عمل انهم في هذه المنشآت وكانوا يدفعون كل سنة للحكومة ضريبة من العاج تعادل أقصى كمية كان في استطاعتهم الحصول عليها في شهر . وقد صار أولئك التجار من الأغنياء .

» وكانت تجارة الرقيق الى ذلك العهد لاوجود لها في السودان النيل ولم تبدىء الا في سنة ١٨٦٠ . وكانت تجارة رابحة ... =

يدرك تماما أخطار هذه السياسة من وجهة النظر المصرية وانها كانت مخالفة لعقيدته وآرائه .

كتب غردون في أثناء تطوافه في المديرية الجنوبية ، بتاريخ ٢١ يونيه سنة ١٨٧٧ ، يقول : « ان الصعوبة الكبرى في إلغاء النخاسة أصبحت

== « ولما اراد الخديوى اسماعيل القضاء على هذه التجارة وفظائعها عقد اتفاقا مع التجار واشترى محطاتهم وفحيرتهم وسلاحهم وماشييتهم وعاجهم وعبيدهم وحرر العبيد في نفس الوقت . ولكن هذه المحاولة الكريمة كانت عديمة الجدوى لان التجار بعد ان وضعوا المال في جيوبهم انشأوا محطات جديدة في جهات اخرى نائية .

» وقد اتخذ غردون اذ كان حاكما لمديرية خط الاستواء الاجراءات الآتية :

اصدر مرسوما باحتكار لعاج وحل الشركات التجارية . ثم انشأ نقطا عسكرية على نهر السوبات مثلا لمراقبة الطرق وخصوصا الأنهر التي تمر فيها النوجار (مراكب واسعة) محملة بالعبيد لمصادرتها « وقد كان لتطبيق هذه الاجراءات بشدة بواسطة غردون في افريقيا الوسطى من سنة ١٨٧٤ الى سنة ١٨٧٦ وفي السودان من سنة ١٨٧٧ لغاية سنة ١٨٧٩ نتائج خطيرة .

وقد خدم جيسى غردونا منذ البداية وكان من اكبر صنائعه واعوانه في سياسته النعسفية . فاعترافاته لها قيمتها قال : « بمقتضى مرسوم أصدره غردون كان رؤساء الزرائب المنتشرة على طول ساحل بحر الزراف والنيل الأبيض مجبرين على اخلاء منشأتهم في ظرف ثمانية اشهر ، يصير بعدها للحكومة الحق في مصادرة العاج والاستيلاء عليه .

» وقد سببت هذه الاجراءات للحكومة خسارة ضرائب سنة كاملة . وعدا ذلك فقد ترتب على إلغاء الزرائب التي كانت المراكز الطبيعية لتعوين الأهالى بلوازم المعيشة ازدياد نفقات حملتنا ، في ذلك البلد الواسع البعيد من كل مركز تجارى بنسب مريعة » .

« أما فيما يتعلق باحتكار العاج فلم يكن قرارا حكيما لان هذا الاحتكار جعل صيد الفيل يقل بطريقة محسوسة في المديرية المصرية وجعل محصول العاج في البلاد الجنوبية (الأوتورو بوجه خاص) ، بدلا من الذهاب في طريقه الطبيعي صوب الشمال ، يتجه نحو الجنوب . وظلت الاراضي المصرية جد متأخرة لاسكك تجارية فيها ولا تجارة » .

وهذا ما صرح به عربى لجيسى في السودان سنة ١٨٧٩ : « في أول الأمر كان لا يحمل الا العاج مقابل أقمشة وبضائع من الزجاج .

==

الآن واضحة أمامي . كم كنت أتمنى لو أن « جمعية أعداء العبودية » كان في مقدورها أن ترسل الى أحد أعضائها القادرين على فهم المسألة على حقيقتها ليبين لي طريق حلها . انى أملك سلطة مدنية وعسكرية مطلقة فو حكمت بالاعدام على شخص أو عشرة لما كان لأحد أن يعترض على . ويجب اعتبارى أنا وحدى المسؤول عن النخاسة اذا استمرت ، وهاك موقفى : ان دارفور وكردفان يقطعهما قبائل ضخمة نزاعة الى الحرب والقتال ، أكثر من نصف مستقلة تحت امرة شيوخها . ومعظم أراضي الصحراء تندر آبارها وتفصل بينها مسافات شاسعة . وبعض هذه الآبار معروف لهذه القبائل وحدها .

« واذا عرفنا أن بعض هذه القبائل تستطيع أن ترسل للحرب من ألفى الى ستة آلاف فارس على ظهور الخيل أو الابل تبين لنا أن الثورة في ذلك الاقليم ليست مما يستهان به . أقول ذلك عن علم دفعت ثمنه . » وهذه القبائل تغزو شعوب الزوج في الجنوب أو تقايض القبائل البدوية المتسوجات بالعبيد فيما وراء الحدود المصرية المزعومة . ولذلك

== وكنا نستقل حمل العاج في زمس وجيز ونأخذ من الأهالى بلا مقابل ما يحتاج اليه من غلال وماشية لان البلاد كانت غنية بهذه الموارد ثم تعاقبت السنون وأخذ بعض التجار يهاجمون السكان ويأخذونهم عبيدا وأخذ السكان يقاومون وصار من المتعذر الحصول على شىء بغير الرصاص والبارود .

« وأصبح العثور على العاج من الصعوبة بمكان وكان الأهالى بمجرد رؤيتنا يحرقون منازلهم ويختبئون في الغاب . وقد زادت الحكومة البلاء بتحريمها نقل العبيد بطريق الأنهر لانه في الوقت الذى كان نقل العبيد فيه مباحا بواسطة السفن كانت نسبة الوفيات في العبيد لا تزيد عن عشرة في المائة وذلك على الرغم من أن العبيد كانوا يكومون تكويما بعضهم فوق بعض ، والآن ماذا يحدث ؟ تجتمع عصابات ضخمة من العرب في كردفان ثم تنتشر في البلاد لنهبها واجتياحها ، وفي هذه الحالة يضطر العبيد الى شق الجبال والصحارى وقطعها طواب الشهور والشهور قبل الوصول الى كردفان . واذا أضفنا الى ذلك أن الماء والحب يندر وجودهما في أثناء الطريق وضع لنا السبب الذى من أجله لا يصل الا ثلث القافلة الى غايتها . »

فان العبيد يدخلون الأراضي المصرية جماعات لا يزيد عدد الواحدة منها عن أربعة أو خمسة . على أنه لا شيء يمنع من دخول فرق من مائة جندي ، لأننا ليس لنا على حدودنا نطاق مضروب من الديدبانات كما هو الحال في روسيا .

« وقد اعتادت هذه القبائل بيع العبيد الى صغار التجار المنتشرين أفواجا في كل صقع . ولا يلبث أولئك التجار الذين يفدون من جميع المناطق المصرية أن يذهبوا الى المراكز الأهلة بالسكان لبيع عبيدهم الثلاثة أو الأربعة لآخرين .

« والحق يقال لو أن الحكومة البريطانية نفسها كانت سيدة هذه البلاد فلا أدري كيف يمكنها القضاء على تجارة الرقيق ، اللهم الا اذا زحزحت حدودها حتى شعوب الزنوج وأنشأت فيها خطا من المراكز العسكرية . ولست بحاجة الى القول ان الحكومة الانجليزية لن تبلغ من الحماقة درجة التعرض لخسارة شديدة والاضطرار الى مد حدودها لغاية بحيرة (انشاد) (١) » .

وفي ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٧٧ كتب غردون من دارفور الى أخته : « يحيل الى أن الحل الوحيد لا يعدو التحرير الكامل اما بقوة السلاح ، وفي هذه الحالة ترتكب مظلمة كبرى ، واما بدفع تعويض لاطاقة لنا به في الوقت الحالي . ولعل أفضل السبل رفع الحظر القانوني فيما يتعلق بنقل العبيد على أن تنظم الحكومة رقابتها عليه . ولكن اقترحا كهذا سيثير ثائرة أفراد كثيرين (٢) » .

كان غردون مقتنعا كل الاقتناع بأن اتفاقية سنة ١٨٧٧ تتعارض مع مصالح مصر مما حمله الى التنديد بتصرفات ملكولم منذ تعيينه في يناير سنة ١٨٧٨ مديرا لمصلحة الرقيق في البحر الأحمر .

(١) Hill, Colonel Gordon In Central Africa (1874-1879)

(٢) Letters of General C. G. Gordon To His Sister, p. 119

وكانت الحكومة الانجليزية ، وقد قلنا ذلك من قبل ، في شهر مارس سنة ١٨٧٨ تهم غردون بأنه « يهادن تجار الرقيق كمن لا يحس في نفسه القوة الكافية لمناصبتهم العداوة » .

وقد ذكرنا أن هذه الحكومة بالذات ، بعد أن أرغم ملكولم على تقديم استقالته كانت تعتبر غردون « مسؤولا وحده عن الاجراءات الحاسمة الواجب اتخاذها للقضاء على تجارة الرقيق في المناطق التي يحكمها وفي سواحل البحر الأحمر » .

وهذا ما يفسر لنا انه ابتداء من ذلك التاريخ (يوفية سنة ١٨٧٨) شرع غردون يغير سياسته ويطرح آراءه وعقائده ويعلنها حربا شعواء على تجار الرقيق في السودان . وصارت لغته وأفعاله كلها مطبوعة بطابع العنف :

كتب من الخرطوم في ٢٧ يولية (٧٨) : « لقد أخذنا اثنتي عشرة قافلة من العبيد في مسافة شهرين ، وهي نتيجة لا بأس بها » . وفي أول أغسطس : « لقد أخذنا قافلة أخرى مكونة من مائتين وخمسين عبدا في دارفور ، فيكون مجموع القوافل التي أخذناها في شهرين أربع عشرة » . وفي ٨ أغسطس : « اني أوجه كل يوم ضربات مميتة ضد تجارة الرقيق وقد أنشأت من أجل ذلك نوعا من « حكومة الارهاب » . فأعدمت شنقا رجلا ملوش صبيا وانى لن أطلب الاذن بذلك من أحد . ولا يهمني أن يوافق الخديوى أو يعارض (١) »

ومن هذه الآونة صارت مكافحة الرقيق عند غردون شبه عقيدة دينية يتحمس لها ويجاوز كل حد من أجلها . . .

وكان الخديوى بالطبع حائقا على غردون وتصرفاته وان كان ذلك لم يمنع الحكومة الانجليزية من المبادرة بالكتابة ، بتاريخ ١٣ نوفمبر سنة

١٨٧٨ ، الى لاسيل ، مدير القنصلية العامة في القاهرة ، تكلفه « بأن
يعبر للخديوى عن اغتباط الحكومة الانجليزية بالعمل الحازم الذى
يقوم به غردون ضد تجارة الرقيق ^(١) » .

وقد اتخذ هذا العمل الحازم صورة حرب صليبية كانت لها أسوأ
النتائج فى المديرية الجنوبية : بحر الغزال وكردفان ودارفور .

أشرنا من قبل الى حجز الزبير فى القاهرة على أثر الخلاف الذى
نشب بينه وبين اسماعيل أيوب (١٨٧٥) ، ويظهر أن الخديوى كان يخشى
من نفوذه العظيم فى السودان « لأن الذى لا شك فيه ، كما يقول
سلاطين باشا ، ان هذا الرجل كانت له ارادة حديدية وذكاء خارق ،
وكان من هذه الناحية يعلو بمراحل تجار العاج والرقيق الآخرين . وفى
ذلك سر نجاحه العظيم » .

وقد نجح الزبير فى السيطرة على بحر الغزال ومساعدة الحكومة
المصرية فى اخضاع دارفور . وبعد سفره الى القاهرة عين ابنه سليمان
ليحل محله . وعين الحاكم العام من جهته حسن باشا حلمى ليكون ممثل
الحكومة فى دارفور .

وكان السلطان هارون المطالب بالعرش لا ينى بحرك الفتن والقتل .
وقد احتسب هو وبعض أنصاره بجبل مرة الوعر ولكن حسن باشا حلمى
تمكن من كسره مرتين وأرغمه على الانسحاب .

وعندما وصل غردون الى الخرطوم (١٨٧٧) كانت دارفور تدخل
تحت السيطرة المصرية . وقد عجل غردون بالذهاب الى دارفور ليرى
أحوالها بنفسه ، وهناك اتخذ اجراء متعوسا اذ أنقص حاميه دارفور
انقاصا جائرا ووزع عددا كبيرا من الرجالة والفرسان بين الأبيض
والخرطوم .

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٨٤ مجلد ١٥١١

ومن رأى سلاطين « ان هذه الاجراءات الاقتصادية كان لها فيما بعد
أفدح العواقب » .

وفي أبريل سنة ١٨٧٩ عين غردون مسيداليا بك الايطالى الذى
كان منذ بضعة أشهر حاكماً لداره (فى جنوب دارفور) مكان حسن باشا
حلمى^(١) وقد حل محل مسيداليا فى داره سلاطين بك الذى وصل اليها
فى أغسطس سنة ١٨٧٩ وكان قبل ذلك اشتغل بعض الزمن مفتشاً للمالية .
وبعد وصوله علم أن مسيداليا يريد التغيب فى أجارة فنصحه بالبقاء
نظراً لأن هارون لم يُخضع كل الاخضاع فيؤمن جانبه فكان رد مسيداليا
« ليس هناك مطلقاً ما يدعو الى القلق وان جنود الحامية تكفى وزيادة
تهدئة جميع المصاعب المحلية الصغيرة » .

وبينا ذلك كانت قلائل خطيرة قائمة فى بحر الغزال وكردفان وكان
خطرها يهدد دارفور .

كان بحر الغزال فيما مضى لا يقطنه الا الزنوج الذين هم السكان
الأصليون . ولكن حدث بعد ذلك لعهد قريب أن العرب الدناقلة (من
دقيقة) وأن الجعليين الذين كانوا يشتغلون بالزراعة فى وادى النيل
هاجروا الى مديريات الجنوب وانضوا تحت راية كبار النخاسين الذين
اتهبوا البلاد وبسطوا عليها سلطانهم .

وكان الزير باشا زعيم الجعليين الأمر الناهى فيها . وكان ابنه سليمان
منذ سنة ١٨٧٥ قد انسحب على رأس عصابات مسلحة الى الشاكة فى
دارفور الجنوبية . وكانت الدوائر الحكومية تخشى أن تنضم قواته الى
قوات هارون .

(١) كان غردون يقول ان حسن باشا حلمى « مجنون قد سبب خراب
المديرية » وهذا المجنون فى زعمه كان رفض ترحيل الجنود من المديرية
رغمًا من هدوء الاحوال الظاهر . فاضطر غردون الى الذهاب الى دارفور ثانياً
ليشرف بنفسه على تنفيذ اجرائه (سجلات عابدين . خطاب من غردون
الى باروت بك من سواكن بتاريخ ١١ يناير سنة ١٨٧٨) .

وفي بحر الغزال كان يقيم ادريس أبتر وهو « دتقلاوى » وكيل الزير منذ حملة دارفور ^(١) . وكان يوجد وقتئذ شيعةان تتنازعان السلطة الأولى شيعة الزير أو العرب الجعليين وهم من سلالة عباس عم النبي والثانية شيعة (الدتقلاوى) وهي من سلالة دتقل (العبد) . وكانت الأولى ، وهي أشد بأسا وعددا ، تظهر كل ازدياء لأبناء العبد . لذلك ما كاد غردون يصل الى الخرطوم حتى يادر الطماح وكيل الزير وأوجد في نفسه الحذر من سليمان زير ومن طموحه الى الاستقلال ونصحه بأن يعمل على توطيد سلطة الخديوى في تلك المديرية .

عندئذ أرسل غردون الضابط المصرى ابراهيم فوزى الذى كان تحت امرته فى خط الاستواء الى بحر الغزال وكلفه باخراج البلاد من سلطة الشركات . وبمجرد وصول الحاكم الجديد بادر عمورى وغطاس ووكلاؤهم باظهار خضوعهم والتنازل عن ثلاثة أخماس الصمغ وریش النعم والعاج الذى كان حكرة للحكومة .

وكان سليمان زير مستقلا بالأمر فى شاكه ومعه أربعة آلاف مقاتل . فلما علم بمقدم غردون الى دارفور — وكان لحق بفوزى — طلب عفوهم وذهب اليه بنفسه فى داره فى أغسطس سنة ١٨٧٧ . فما كان من غردون الا أن وزع قواته بين وكلائه سعيد بك حسين (الذى عين مديرا لشاكه) ونور بك عنقرة (الذى عين مديرا لسرجا وأريب فى دارفور الشرقية) . ثم أصدر أمره بعد ذلك الى سليمان بأن يعود الى شاكه . وقد امثل سليمان للأمر رغما من تصرفات غردون المهينة وأرسل عدة خطابات الى غردون يستعطفه فيها استعطاف الابن « لأبيه » ويتوسل اليه أن يعينه فى وظيفة .

(١) فى زمن رحلة الدكتور شفاينفورت « أصبح ادريس وكيل غطاس ، وكان فى الزيرية شخصية كبيرة يستبد بالأمر والسلطان بعد أن كان عبدا بسيطا فى الخرطوم ، وهو من أصل زنجى وكان له مع ذلك نفوذ على النوبيين » .

ولكن غردون كان شخصية شاذة غريبة الأطوار لا يعرف المصانعة كثير القلب ، سريع التأثر ، يلين وقت الشدة ، ويشدد وقت اللين ، عنيدا جائرا في أحكامه ، قليل المعرفة بالرجال ، يقضى معظم وقته في التأمل والتصوف والتجول على ظهور الجبال في أرجاء السودان وصحاريه .

أبي غردون أن يجيب سليمان الى طلبه واستنفد حلمه حتى بات يخاف انقضاؤه عليه اذ كتب يقول من داره بتاريخ ٧ سبتمبر انه قضى ليلة منحوسة وهو يفكر في حنق سليمان الذي ألقاه في أحضان اليأس بينا لا يزال يملك قوة مؤلفة من ٤٠٠٠ رجل في بحر الغزال « ولكن زعيما أكبر قوة (ادريس) معي الآن . ولذلك فاني لا أعبا بتلك القوة » .

وفي أواخر سبتمبر (١٨٧٧) ذهب غردون الى شاكّة من طريق داره وقرر تعيين سليمان ، بعد لأي ، مديرا لبحر الغزال ، مملكة أبيه القديمة ، ومنحه لقب بك .

ولما وصل سليمان الى مركز مديريته ، ديم زير (نسبة الى أبيه) طالب ادريس أبتز بتقديم حساب عن أعماله .

وفي أثناء ذلك كان الضابط المصري ابراهيم فوزي من ناحيته قد تجمعت لديه الأدلة القاطعة على أن ادريس رجل « شرير وخطر ودساس من الطراز الأول » فقرر القاءه في غياهب السجن . ثم أخذه معه الى الخرطوم حيث اضطر الى الذهاب للعلاج .

وقد دفع فوزي بعد وصوله الى هذه المدينة الى ادريس كما دفع الى جميع شركات بحر الغزال ، مبلغا كبيرا من المال كتمن لمقدار كبير من العاج الذي كان صادره ، فاستمال ادريس بعاله قنصل ألمانيا ، فردريك روسيه ، الذي بادر بالابراق الى غردون في سواكن — وكان قد بلغها في تطوافه المستمر — زاعما أن ادريس بريء وانه سجن ظلما .

فلما عاد غردون الى الخرطوم (يناير ١٨٧٨) حاول أن يفتح فوزي بترك ادريس يعود الى مديريته ففضل فوزي تقديم استقالته من وظيفة

مدير بحر الغزال . وقد قبل غردون هذه الاستقالة ولكنه أراد استغلالها
لارضاء فوزى وادريس معا فعين الأول مديرا لخط الاستواء مكان
الامريكى بروت Prout الذى كان يحكمها منذ ديسمبر سنة ١٨٧٦
والثانى مديرا لبحر الغزال برتبة بك !

كان رد سليمان الوحيد ازاء هذا التحدى أن أعلن عصيانه ورفض
أن ينسحب الا للقوة . ثم أخذ قواته في ديم زير وهاجم مباغته قنطرة فسلم
حصنها بعد مقاومة عنيفة في الأيام الأولى لسنة ١٨٧٨ .

كانت قوات سليمان تفوق قوات ادريس وكان القضاء على هذه
الآخيرة مسألة حياة أو موت للزير وثيخته . كتب الزير الكبير الى ابنه
سليمان ، بتاريخ ١٣ مايو سنة ١٨٧٨ يقول : « لقد أصبح ادريس أبتر
مديرا وسيكون همه القضاء على أعبائنا وخدماتنا للحكومة . فعجل
بطرده هو ورجاله وذريتهم ولا يفتك في الوقت نفسه أن تعمل على طاعة
أوامر الحكومة وتوثيق صلاتك بها » .

فبدلا من استدعاء ادريس واعادة سليمان الى وظيفته ليتجنب بذلك
تحول معركة النفوذ الى حرب طاحنة لا تؤثر في الدمار والقوضى لم ير
غردون في كتابات الزير الى ابنه الا تحريضا على العصيان . وسرعان
ما عقد مجلسا حربيا أصدر حكما بالاعدام على الزير وابنه بتهمة الخيانة
العظمى !

ولما كان غردون مصمما على اعداد العدة لحرب نظامية أخذ يفتش
عن رجل « حازم » قوى . وكان يوفكر وقت اقامته بخطط الاستواء ، في
أثناء رحلاته ، ضاغنا على ابراهيم فوزى لأسباب شخصية ، فانهز هذه
الفرصة وأوحى الى غردون بخنق ابراهيم فوزى وتعيين الدكتور أمين
مكانه مديرا لخط الاستواء (١) .

(١) عند عودته الى مصر في سنة ١٨٧٩ تبين لغردون أن اتهامات يوتكر
لفوزى كانت باطلة فطلب الى الخديوى ترقية الى رتبة كولونيل ومنحه
٣٠٠ جنيه كتذكار للأيام التي قضياها معا في السودان (انظر : Neufeld,

A Prisoner of the Khalifa

وكذلك ابراهيم فوزى باشا : السودان بين يدي غردون وكششر .

وكان في ذلك الوقت جيسى الايطالى قد ترك خدمة الحكومة واستعان
بالمصور الفنان بوخت Bucher ويدكتور في العلوم الطبيعية لاكتشاف
وادي السوبات وبلاد الجالا في السودان الشرقى لحساب ايطاليا .
فأقنع يونكر غردون بحمل جيسى على ترك حملة السوبات وقبول رئاسة
الجيش المنوط به تأديب العصاة . وستثبت الحوادث أن هذا الرجل
(جيسى) كان أكبر مغامر بين الأجانب الذين تكاثروا في السودان في عهد
الادارة المختلطة وأقدرهم على تطبيق سياسة العنف وهو رابع الثلاثة :
بيكر وملكولم وغردون .

سافر جيسى ومعه يوسف باشا الشلالى وحوالى أربعين من الجنود
والضباط لبدء حملته : وقبل وصوله لى رومبيث كان يبقى التجيدات
باستمرار على طول الطريق من فاشودة ولادو ومكركة وغيرها . ولم
تكن الأحوال ، من يوليه الى ديسمبر سنة ١٨٧٨ ، في فصل الأمطار ،
تسمح بحرب هجومية .

وقد تجمعت عنده قوة تزيد عن ٧٠٠٠ رجل فاتجه بها الى قلعة حيث
التزم الدفاع مدة ثلاثة أشهر مكتفيا برد هجمات الزبير . ثم وصلت
اليه تجيدات جديدة في مارس سنة ١٨٧٩ فشرع في الهجوم ، وتمكن في
أول مايو ، من كسر الزبير وادغامه على الهرب وترك ثروته الكبيرة في
ديم زبير فاستولى على معظمها الدناقلة من أعوان ادريس .

وقد حاول جيسى اللحاق بالزبير ولكنه لم يمتد اليه فعاد ادراجه الى
ديم زبير وهناك جاءه أمر من غردون بالذهاب للقائه في دارفور حيث
استقر به المطاف .

وكان غردون في العهد الأخير هانجا يعارض في كل فكرة سلمية
ولا يفكر الا في البطش القتال اذ كتب في ٢٤ يناير (٧٩) يقول : « ان
اهلاك عصابة الريير يعتبر نقطة تحول دقيقة في مشكلة الرقيق » ، مع
أن عصابة ادريس كانت تؤيدها حكومة غردون .

وقد كانت حكومة القاهرة تعلم استفحال الشر في السودان وتفكر في وضع حد لسياسة غردون فكتب نوبار الى حاكم السودان يقترح عليه فيه الموافقة على ارسال الزبير رحمت فكان رد غردون في التاريخ السابق (٢٤ يناير سنة ٧٩) :

« اننى أعين في جميع نقط الحدود وكلاء أوربيين ليمنعوا مرور كل قافلة من قوافل العبيد ... »

« وسأمنح جيسى ألف جنيه اذا نجح في القبض على ابن الزبير . وآمل أن يشنقه . لأنه لو أرسل الى القاهرة لرحبوا به . »

وفي أثناء اقامته الثانية في دارفور ، حوالى ١٨٧٩ ، كان سليمان زبير بعث اليه في شكاة ثلثة رؤساء من أعوانه ليطلبوا اليه أن يصدر أمره الى جيسى باخلاء بحر الغزال .

روى جيسى أن غردون باشا استبان في أولئك الرؤساء التسعة نفرا من المحرضين على مذابح ديم ادريس فكان رده عليهم أن أمانهم في الحال رميا بالرصاص .

وقد روى سلاطين حادثة أخرى كان لها أثرها قال : علم غردون أن تجار الأبيض في كردفان كانوا يبيعون السلاح والذخيرة الى عصاية سليمان . فكان الجلابة يفكون هذه الأسلحة ويهربونها وسط بضائع أخرى في مديرية بحر الغزال حيث كان يشتريها الثوار بثمان فاحش . ونظرا لندرة النقد كان العبيد يستخدمون للتبادل والمقايضة .

ورغما من الغاء كل تجارة في المنطقة الواقعة في جنوب طريق القوافل (الأبيض — داره) كانت تجارة الأسلحة تزداد كل يوم . فعمل غردون « عملا أخرقا كانت له نتائج مدوية في أنحاء السودان » اذ أصدر أمره الى مشايخ القبائل العربية (البقارة والرزيقات الخ) بالانقياض على جميع الجلابة الذين يصادفونهم في أراضيهم وجلبهم تحت الحراسة الى داره وطويشة وأم شنقة والأبيض .

وقد فرح العرب بهذا القرار الذى أَرْضَى جشعهم . ولما كان من الصعب فى هذه الحالة التمييز بين التجار الشرقاء — وكان منهم فئة كثيرة أو قليلة — والمهريين لم تفكر السلطة مطلقا فى التفرقة بين الصالح والطالح وانطلق العرب فى كل مكان وراء طريدتهم الجلابية وكانوا يسلبون أمتعتهم وما يملكون ويسوقوهم أفواجا شبه غرايا سوق الأنعام الى داره وطويشة وأم شنقة .

ونظرا لأن الجلابية كانوا جميعا — الا ما ندر — من سكان منطقة وادى النيل الزراعية وخصوصا الجعليين فقد وسعت هذه الحوادث مسافة الخلاف وجعلت العداوة القديمة تتأصل بين قبائل الغرب العربية وبين سكان وادى النيل .

« فاذا نظرنا الى الأمر من الناحية الانسانية لم يسعنا أن نتكرر من حرد الجلابية بهذه الطريقة الظالمة العنيفة مدعاة للقول . .

« وكان الجلابية المطرودين من البلاد الجنوبية من أهائى كردفان ووادى النيل (الجعليين والشايقية والداقلة) هاجروا من ومنهم للآثراء من مزاولة التجارة والرقيق وتركوا وراءهم أصدقاءهم وذويهم الذين كانت تهمهم شؤونهم ومصالحهم خصوصا وانهم كانوا يشاركونهم ماليا فى مشاريعهم .

« ولهذا السبب كان أمر غردون بطرد الجلابية ذا أثر بعيد فى سمعته ومكانته بين سكان وادى النيل ^(١) » .

التقى غردون بجيسى فى طويشة وبعد أن علم مجرى الحوادث أمره بالعودة الى داره للبحث عن سليمان على أن يعود هو الى الخيم صوم . وقد

(١) سلاطين باشا - الحديد والنار فى السودان . يجب الرجوع الى اصل الطبعة الالمانية لهذا الكتاب او الى الترجمة الفرنسية . اما الترجمة العربية المنقولة عن الترجمة الانجليزية فهي كأختها ناقصة مشوهة لا يمكن السوئل عليها وقد تصرف ونجت باشا فى الترجمة الانجليزية ولم يكن امينا .

طلب الصابط المصري يوسف بك الشلالى الى غردون أن يصطحبه في رحلته
اذ كان لا يريد البقاء بأية حال تحت امرة جيسى .

وفي دارة علم جيسى أن سليمان بعد أن ترك بحر الغزال ذهب مع
نواته الى منطقة دارفور الجنوبية فيادر الى تعقبه وأخذ معه اسماعيل أفندي
برنو وهو من أصل مصرى ، وقد ولد بدارفور ، « وكان يمتاز بشجاعته
ومعرفته التامة بأحوال البلاد » .

كان جيسى يريد ارغام سليمان على التسليم ، بأى ثمن ، فلجأ عند
بلوغه الكلكه الى اسماعيل برنو ، وكان صديقا لسليمان منذ زمن طويل ،
وكلفه مهمة لدى الأخير في معسكره في غرة (١) .

وكان جيسى يعرض في حالة الخضوع تأمين حياة سليمان وأعواته وصرف
مرتب شهرى لائق له ولهم .

وقد أبى رابع أكبر أنصار الزير أن يسلم أمره الى جيسى ونصح
سليمان بالتريث والحذر ولكن اسماعيل أقنع سليمان بأن المقاومة لا طائل
وراءها وكتب الى جيسى يستقدمه على عجل في غرة فحضر ومعه دناقلته
من رعا ع ادريس . وهناك نجح اسماعيل (١) في اغراء سليمان وصحبه بناء
على العهد الذى قطعه جيسى على نفسه ولكن جيسى كما يظهر لم يكن أميناً
على العهد وكان مخادعا يريد « رأس » سليمان لتنفيذ وصية غردون
فاستند الى وشايات الدناقلة الذين زعموا أن الزير يبعث الرسل الى
رابع . وأصدر اليهم الأمر باعدام سليمان وأعواته رميا بالرصاص .

حدث ذلك في ١٥ يوليه سنة ١٨٧٩ . وكان خمسة مشايخ قد انفصلوا

(١) من العجيب ، ولهذا السكوت مغزاه ، أن جيسى في مذكراته التى
ظهرت بعد موته (سبعة أعوام فى السودان) لم يشر اقل اشارة الى هذه
المهمة الخطيرة . ولم يرد ذكر اسماعيل برنو مرة واحدة فى كتابه .
وسلاطين هو وحده الذى تكلم عنه وعن مهمته فى كتابه (الحديد
والنار فى السودان) .

من سليمان ورايح (١) وظلوا في البلاد فأصدر جيسى أمره بالبحث عنهم واحضارهم الى الفاشر ، وكان يحكم المدينة ميسيداليا بك « الذي شنقهم في ساحة السوق دون محاكمة » .

تلك خاتمة الحرب التي توقع بعض المؤرخين الرسميين « أن تكون قتيبتها المحتومة قطع دابر الفتنة » .

وقد أجمل سلاطين نتائج هذه الحرب فقال : « ان الحكومة في هذه الحرب قد تكبدت خسائر فادحة في الرجال والأسلحة والذخيرة ، في حين أن قبائل الجنوب العربية البقارة والتعاشة والحبانية والرزقات التي أصابت ، قبل خضوع سليمان وبعده ، غنا كبيرا من السلاح والبازنجر ، أصبحت من ذلك الوقت تعتمد بما كسبت من جاه وقوة خنقت لنا فيما بعد مشاكل وعرة » .

وأخيرا استدعى غردون في يونيو (٧٩) ولكن بعد أن تخرجت الأمور وطفح الكيل . وقد اثبتت الحوادث صدق حكم شاي لونغ الأمريكى الذي ذكرناه من قبل « لقد وجد غردون السودان في سلم ورفاهية وتركه في سنة ١٨٧٩ ، ينوء بالدين ويهم بالثورة » .

(١) ذهب رايح بنفر من جنده الى منطقة بحيرة تشاد وتمكن بدهائه وتدبيره من تأسيس امبراطورية قوية هناك . وقد تمكنت فرانسوا بعد حرب عوان من قتل رايح والاستيلاء على ملكه (٢٢ أبريل سنة ١٩٠٠) .

الكتاب الثالث

السودان من سنة ١٨٨١ إلى سنة ١٨٨٥

الفصل الثامن

الثورة المهدية لغاية قرار إخلاء السودان

ان السودان في الوقت الحالى تحده جنوبا بلدة نيمول بجوار دوفيله وتبلغ مساحته مليون كيلو متر مربع .

وعلى الرغم مما أصاب مساحة السودان الجغرافية من نقص وزيادة وتقلبت كبيرة أوجدتها الظروف العسكرية والسياسية منذ عهد محمد على خصوصا من ناحية الجنوب (البحيرات وممالكها) ، والشرق والجنوب الشرقي (أراضي البحر الأحمر والمحيط الهندي) ، فان مدلول كلمة (السودان) لا يزال الى اليوم مبهما . فالانجليز في كتاباتهم يخلطون بين السودان والنيل ووادي النيل ، والمصريون يطالبون تارة « بالسودان » وطورا « بوحدة الوادى تحت تاج واحد » .

وكانت أنشئت لأول مرة في ٢١ فبراير سنة ١٨٨٢ في مصر وزارة « السودان وملحقاته » . وفي نفس السنة اعتبر الكولونيل ستبوارت الملحقات جزءا من السودان في تقريره الشهير الذى وسف فيه حدوده : « ان حدود السودان المصرى ، في سنة ١٨٨٢ ، هي كالاتى : تبندى الحدود بالقرب من رأس بناس على البحر الأحمر وتسير على درجة ٢٤ من

خط العرض الشمالى حتى تصل الى نقطة غير مائة بين ليبيا والصحراء الكبرى . ومن هذه النقطة تتجه نحو الجنوب الغربى حتى ملتقى الزاوية الجنوبية الغربية من دارفور . ومن هناك تنحدر رأسا الى الجنوب لغاية الدرجة ١١ من خط العرض الشمالى . ثم تتجه نحو الجنوب الشرقى من طريق موبوتو وبحيرة نيانزا حتى تصل الى مدخل بحيرة فكتوريا نيانزا . عندئذ تصعد الى الشمال الشرقى ، مشتملة على مديرية هرر ، حتى تبلغ المحيط الهندى عند رأس جردفواى (أوجردفون) ، ومن هناك تتبع ساحل البحر الأحمر لغاية رأس بناس » .

أى أن مساحة السودان المصرى كانت تعادل مساحة فرانس وألمانيا وأسبانيا مجتمعة .

والواقع أن سياسة التوسع المصرى فى السودان كان قطبها الذى تدور حوله : النيل ومنابعه . وكانت تهدف الى تكوين كتلة متجانسة متماسكة تؤلف بينها وحدة اللغة والدين والثقافة . ولكن التدخل الأوروبى فى أفريقيا وسياسة « التقسيم » كان لهما القسط الأكبر فى إيجاد عوامل التحلل والتفكك فى مصر نفسها وفى امبراطوريتها السودانية .

١ — أسباب الثورة

كانت مصر والسودان منذ أواخر عصر اسماعيل فى حالة « هيجان » وكانت أسباب الاستياء العميقة فى مصر تؤدى حتما الى الثورة العامة ولكن هذه الأسباب كانت فى السودان سطحية فى مجموعها لا تؤدى الا الى ثورات وقلاقل محلية متقطعة لولا الروح الدينية التى انتظمتها وتمنحت فيها .

جند المهدي أتباعه وأعوانه من أشد عناصر السودان تأخرا وأكثرها تعلقا بالبدع والخرافات والعقائد الساذجة : البقارة والدرابيش .

البقارة أو رعاة البقر كانوا من أكبر تجار الرقيق في الغرب وقد أصابهم خسارة كبرى من جراء تصرفات غردون العاشمة ضد النخاسة . وحسبنا أن نذكر أن عثمان دجنة أفضل قواد الخليفة في السودان الشرقي إبان الثورة كان أيضا من تجار الرقيق الذين أدهمهم غردون وصادر أملاكهم وثروتهم (١) .

أما الدراويش فقد وصف الكولونيل ستيوارت في تقريره المرسل من الخرطوم ، بتاريخ ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٨٢ ، نظام الفقهاء والدراويش المؤيدين لهم ، ومذهبهم . قال ستيوارت ان الفقهاء كانوا يفرضون ضريبة على العرب ويأخذون منهم الأموال والهبات نظير علاجهم أو القضاء على عقم النساء والحيوانات وما شاكل ذلك من طرق التسجيل والتطبيب . وقد أصبح الفقهاء مع الزمن أغنياء ذوي نفوذ .

وكان الفقيه يستخول الدراويش ويتخذ منهم حشما يتعهدون ماله ويعلمون شأنه وكان الدراويش يتسابقون لخدمته حبا في الكسل والبطالة وتهربا من الضرائب . لأن الحكومة رغبة منها في مصانعة السكان والتقرب اليهم كانت أنت عملا أخرقا باعفائها الفقهاء والدراويش من دفع الضرائب فانتشروا في كل قرية وفي كل قبيلة بالسودان وكانوا هداة الشعب الروحانيين ومعلمي الشبيبة ، وكانوا يرغمون الناس على دفع ضريبة « عشرية » وليس أدل على تغلغلهم في الحياة العامة وقوة نفوذهم من أنه في قبيلة دابازنة : في جنوب القصارف ، كانت القرى التابعة للفقهاء لا تقل عن ٦٢ . وقد نتج عن ذلك أن الأهالي لم يكن في استطاعتهم دائما الاتفاق على الفقيه ودراويشه ودفع ضرائب الحكومة في الوقت نفسه .

كان أنصار المهدي اذن يكونون أغلبية الشعب وان لم يكونوا من

(١) قال غردون : « ان بيضة الثورة الحالية قد وضعت في خلال الثلاثة الأعوام التي أتبع لي فيها ان أحكم السودان على مبادئ غير المبادئ التركية » .

خياره وأفضله . وكانت المدائن المصاوبة لمجرى النيل خصوصا من سنار الى دنقلة ، حيث استأصلت المدينة المصرية منذ ستين عاما ، يتألف من عناصرها الحضرية التي تؤيدها بعض عناصر البدو ، حزب المقاومة . وهذه العناصر السودانية والمصرية من جند ، ونجار ، وموظفين ، ورعية ، كانت لها طوال الشهور والسنين في الثورة مواقف رائعة من البطولة والتضحية .

٢ - عهد القادر معلمى في السودان :

كان غردون استقال من وظيفة حاكم عام السودان في يناير سنة ١٨٨٠ ، فعين مكانه ، في مارس سنة ١٨٨٠ ، محمد رؤوف باشا . وقد ذهب بجمعية رؤوف محمد مختار ومحمد عزت وضباط آخرون لدرس مناطق الحدود من الحبشة لغاية مصوع ووضع خرائط للمناطق التي لم تكتشف .

وفي تلك الأثناء رفع المهدي راية العصيان وقد زادت هزيمة راشد بك في قدير (٩ ديسمبر سنة ١٨٨١) الحالة السياسية والعسكرية في البلاد تعقيدا .

والذى لا ريب فيه أن رؤوف باشا لم يكن حازما في علاج الموقف في بدايته ، وكانت حكومة القاهرة من ناحيتها ، أمام التهديد الانجليزى ، عاجزة عن مده عاجلا بالمعونة اللازمة ، مما ساعد على تقوية المهدي وازدياد نفوذه في نظر العامة التي أصبحت تعتقد في « رسالته » .

شرعت من ذلك الوقت البقارة والدرأويش تلتف حول رايته لمحاربة « الكفار » و « المشركين » سواء في ذلك الأتراك (المصريين) أو الأوربيين المسيحيين الذين وفدوا على السودان منذ بيكر والادارة المختلطة وكان لهم القسط الأوفى في إسقاط هيبة مصر ومكاثتها في السودان .

وقد فطنت الحكومة المصرية الى خطورة الموقف فاستدعت رؤوف باشا

وعينت مكانه عبد القادر باشا حلمى وهو من خيرة قوادها .

وفى أثناء الفترة التى انقضت بين استدعاء رؤوف (٤ مارس ١٨٨٢)
ووصول عبد القادر (١١ مايو) قام جيغلر باشا الألمانى ، الذى كان
عينه غردون مديرا عاما لمصلحة البرق (التلغرافات) ، بأعمال وكيل
الحاكم العام بالخرطوم . وكان هذا الموظف كعظم الأوربيين ، تنقصه
الكفاءة والاخلاص فسرعان ما أبرق الى القاهرة بأن الحالة لا تستدعى
ارسال فرق جديدة ، وأرسل فى نفس الوقت حملة الى النيل الأبيض
كانت هزيمتها سببا فى استفحال الثورة فى هذا الصقع .

وفى أغسطس (٨٢) ترك المهدي قدير ميمما الأبيض عاصمة
كردفان فوصلها فى ٣ سبتمبر . وقد جرت أمام المدينة موقعة هزم
فيها المهدي وخسر زهاء ١٠٠٠٠ رجل فعول على ضرب الحصار حول
الأبيض وباراه .

وكانت هذه أول ضربة أصابت المهدي ، وبيننا ذلك كان عبد القادر
حلمى ، وهو من أوسع الرجال خبرة ودراية بثؤون الحرب
والتنظيم ^(١) ، لا يفتر يعمل على تدعيم وسائل الدفاع عن الخرطوم
واعادة تنظيم البلاد وفقا لأحدث الطرق وذلك على الرغم من قلة
موارده وانقطاع كل معونة من القاهرة خصوصا فى أشهر الحرب
الانجليزية والاحتلال من يولية الى سبتمبر .

وكان عبد القادر باشا يدرك بصائب فكره ان نجاح المهدي يرجع
الى انتصاراته غير المنتظرة على جيوش نظامية والى دعايته الدينية
الكاذبة وتسلمه على عقول الجماهير الساذجة فشرع يتصل بزعماء البلاد

(١) تكلم امين باشا فى مذكراته عن عبد القادر بمناسبة زيارته له
فى الخرطوم فى مارس سنة ١٨٨٢ قال : « تبدو على عبد القادر سما
الذكاء العالى وقد تلقى العلم فى أوروبا . وتبحر فيه ، وهو يجيد
الفرنسية ويتكلم الألمانية » .

ومشايتها ويوزع عليهم رسائل يثبت فيها العلماء بنصوص من القرآن والحديث بطلان دعوة المهدي . وكان في الوقت نفسه القوة المحركة للدفاع ، لا يكتفى بقيادة الجند بنفسه وضرب العصاة في ناحية سنار بل يرسل الحملات في كل جهة بقيادة خيرة ضباطه ليحول دون انتشار الثورة واتساع رقعتها .

ولكن كان لابد من التفكير في فك الحصار عن البحر الأبيض عاجلا وكان لا يرحح يطالب القاهرة بارسال مجندات قوية عديدة تمكنه من الزحف الى هذه المنطقة البعيدة على أن يترك جيشا « للتغطية » وراءه .

وكانت الأبيض محاصرة منذ سبتمبر ولكن عبد القادر لم تصه من القاهرة النجدة الأولى الا في ديسمبر ، وذلك أن أول اجراءات الاحتلال كان حل جيش عرابي نظامي فكانت الفرق الجديدة المجندة المرسله الى السودان ، ضباطا وجنودا ، تعوزها الدربة والالمام الكافي بفنون الحرب .

فلم يكن أمام عبد القادر الا أن يعول على نفسه ويستغل الى أقصى حد موارده المحدودة ، فعزل جيش المدينة (الخرطوم) في معسكر على الضفة الغربية من النيل ، وكان الحاكم العام يقوم بنفسه باعطاء دروس للضباط وتلفين الجند بمبادئ الفنون العسكرية وتدريبهم على التمرينات البدنية واصابة الأهداف (ضرب النار) .

وقد كتب ستيوارت الرقيب الانجليزي في أواخر ديسمبر يقول : « ان التعليم يستمر وأن بعض الجنود قد ساروا بخطى واسعة في طريق التقدم » .

وكانت خطة عبد القادر التي كشف عنها ستيوارت ترمي بمجرد الانتهاء من جمع جيش مؤلف من ٥٠٠٠ جندي وتعليمه وتدريبه الى

اتخاذ الطريق الذى يذهب من الخرطوم الى الأبيض وعمر بيارة وبلاد
قبيلة الكبابيش البسة الموالية للنفوذ المصرى .

وكان عبد القادر يعد عدته وعديده من جمال ومدافع جبلية وميرة
وذخيرة ليضمن نجاح حملته .

وفى رأى بعض المؤلفين كانت خطة عبد القادر ترمى الى حشد
جيش أكبر لا يقل عدده عن ١٥٠٠٠ أو ٢٠٠٠٠ مثلا ليتمكن من
ترك عدد كبير منه يكفى لحاية الطريق الطويل الذى يفصل الخرطوم
من الأبيض . وفى حالة عدم وصول العدد المطلوب (من القاهرة)
كان مصمما على البقاء بقواته متحصنا فى الخرطوم وفى سنار ، وعلى
اقامة تحصينات حول كردفان ليعزل أنصار المهدي ويدع الثورة تأكل
بعضها فى غرب السودان . ولاشك أن فصل قوى المهدي الروحانية
والمادية عن مناطق النيل الخصبة ومراكز الجاذبية فيها كان سيؤدى
حتمًا الى تحللها وموتها .

وعلى أية حال كان المهدي لا يقر له قرار وفى حالة زعج مستمر لعلمه
بتساع مذاهب عبد القادر الفنية والأدبية بدرجة أنه كان يوصى
أنصاره بالدعاء بصوت عال فى ختام كل صلاة :

اللهم يا قوى يا قادر اكفنا شر عبد القادر

ولكن وجود الانجليز فى مصر لم يكن من شأنه تذليل المهمة
لعبد القادر . وقد كتب الجنرال ولسن ، فى ٢٨ أكتوبر ، يقول ان
الجيش المصرى قد تم تحطيمه وأن الحكومة المصرية لا تملك الوسائل
الكافية لصد تقدم المهدي .

ولأجل أن نتبين ماهية هذا التحطيم ونتائج المحتومة فى السودان
يجب أن نذكر ماكان كتبه شريف باشا الى القنصل ماليت بتاريخ
٢١ أكتوبر : « ان السلطات العسكرية البريطانية تدمر ذخيرتنا

وعتادنا الحربى . ولاشك أن اجراء كهذا كان من الممكن تبريره كل
التبرير وقت أن كان الجيش العاصى تحت السلاح . أما الآن فيلوح لى
أنه لاسيلى الى تبريره (١) .

وفى أول يناير سنة ١٨٨٣ أبرق عبد القادر الى الخديوى طالبا
ارسال فرقتين أخريين لتأليف قوة احتياطية فى الخرطوم .

ومما جاء فى هذه البرقية « أنه ترتب على تأخر ارسال الجنود
استفحال الثورة فأصبح من الضرورى إيجاد نقطة ارتكاز للفرق
الذهابة لانتفاذ بارة وكردفان » .

وفى اليوم ذاته قرر عبد القادر الذهاب الى المسلية ليقود الجنود
بنفسه ويظهر جميع المنطقة الكائنة بين سنار وراثة . لأن أحد المكائفى ،
وهو من أكبر أنصار المهدي ، كان قد تمكن قبل وصول عبد القادر
(٧ يناير) من قطع المواصلات بين سنار والمسلية وقل القوات
المصرية .

وكان القائد المصرى يريد اخاد الحركات المتفشية فى الأقطار
المجاورة قل الزحف على الأبيض ويرى أن فقدان هذه المدينة بفرقتيها
السودانيتين ومستودعها الواسعة من مدافع وذخيرة نكبة لاطافة
لنا بها ستتضاعف من جرائمها مصائبنا فى الحرب .

وبينا هو فى سنار يحارب ويسوس ويدير اذ وصله (فى أواخر يناير
سنة ١٨٨٣) برقية من الخديوى توفيق يأمره فيها بمحشد قواته كلها
فى الخرطوم وانتظار وصول بعض كبار الضباط من القاهرة . ولما كان
عبد القادر يجهل أن أولئك الضباط هم هيكس وأعوانه الأوربيون
بادر بالرد على الجناب العالى بأن الثورة قائمة فى بعض أراضى المديرية

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ . مجلد ٢٤٤٢

الشرقية وأن الجنود اذا انسحبت تخرجت الأمور للغاية ، وان جيش الأبيض اذا لم يتحرك في الحال لانقاذ المدينة ضاعت وضاعت معها دارفور .

وقد أيد الكولونيل ستيوارت في برقية له ان قنصل انجلترا بالقاهرة ، بتاريخ ٢٦ يناير ، كل أقوال عبد القادر وزاد « بأن الحالة أصبحت في منتهى الخطورة وأن الخديوى يجب عليه أن يترك عبد القادر وشأنه » .

ولكن ستيوارت كان في ناحية وكان الخديوى ومستشاروه الانجليز في القاهرة في ناحية أخرى ، وقد أفهموه أن عبد القادر يطمح الى الاستقلال في السودان ، وذلك تحقيقا لخطه مدبرة في وزارة الخارجية الانجليزية (١) .

(١) يتضح من البحث في سجلات محامين ان احمد حمدي بك ياور جناب الخديوى كلف بالسفر الى الخرطوم في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢ « ليقابل الكولونيل ستيوارت ويعلم أن مأموريه (حمدي) ليست سوى مشاهدة الاحوال والعرض عنها (كذا) للاعتاب الكريمة ... ويستحضر عبد القادر باشا الى الخرطوم ويسلمه الامر العالى بالفناء نظارة السودان وانفصاله عن حكمادريتها وحلول علاء الدين باشا مكانه في الحكمادرية .. »

وفي ١٧ ربيع اول سنة ١٣٠٠ هـ (٢٦ يناير سنة ١٨٨٣) أرسلت ارادة سنية برقية الى حمدي بك ليخبر سرا علاء الدين باشا بأن يراقب حركات واحوال الكولونيل ستيوارت ويرسل بها تلفرافات شفره « . وقد جاء في اول تقرير له (برقية ٢٦ فبراير سنة ٨٣) ما يأتى : « حينما كنت مع سعادة هكس باشا في الطريق كان يسأل من المسافرين عن الاحوال ولما يخبروه بتحسن الحالة يرى عليه علامات الكدر حتى أن سعادته قال ذات يوم اذا كان الامر كذلك فلا فائدة في حضوري من تندر « .

وظاهر من التقارير الاولى أن مبعوث الخديوى كان لا يميل الى عبد القادر باشا والكولونيل ستيوارت ، ولكنه أمام سلطان الحوادث واعمال عبد القادر اضطر الى تغيير رايه ومطالبة الخديوى بابقائه .

جاء في تقرير ١٦ مارس : « .. كذا علم أن سعادة عبد القادر باشا لما حضر للخرطوم تشبث باجراءات نافعة نحو تلافى الحالة .. ولو كان صار اسعافه لما كان اتسع الامر .. »

وقد اضطر عبد القادر الى العودة من رانة الى الخرطوم في ٦ فبراير قبل أن يتمكن من تطهير سنار من العصاة » مع أن الانتصارات الأخيرة

== « ومراعاة للحالة الراهنة والاجراءات التي باشرها وظهرت مبادئها الحسنة بجهات سنار والبحر الأبيض ولما له من الحيل السياسية في جذب القلوب مع ايقاع الرعب بين الأشقياء يكون بقاؤه على ما هو عليه لحين نهو الحركات في الجزيرة أوفق .. »

« يتراءى للداعى أن كل جهة يستنب فيها الأمن والراحة يصير استبدال حكامها بغيرهم ممن لهم كفاءة في الادارة وان لا يصير توظيف اشخاص من اهالى السودان في وظائف مهمة .. »

وجاء في تقرير ١٤ مارس : « بلغ الداعى اكيدا أن سعادة الجنرال سكس الذى أوردى أمس بأنه لا يتدخل في اشغال جيجلر باشا سينشر اعلانا للاهالى ظاهره نوع وباطنه التدخل في اشغال الحكومة بحجة بث العدل ورفع الظلم عن المتشكين اليه وجذب قلوب الأهالى وميلهم للدولة الانجليزية الذى هو من رجالها العظام الموصوفة بالعدل والكرم ، وحيث ان الأهالى ذاقوا حلاوة ذلك مدة فردون باشا المؤسس لما هو واقسع فسهل الأمر الخ .. »

وجاء في تقرير ٢٠ مارس « بما أن سعادة الحكمдар الحالى وسعادة «فومندان أن متعودين على لين الجانب ووفرة الانقياد فدواعى الوقت والحال كانت موجبة لفضول (بقاء) سعادة عبد القادر باشا الآن لما عنده من الادارة والسياسة ... ولئن كان ما نسب اليه قريبا من الصحة ولكن لما بدا فيه من الغيرة والنشاط هو لا يعول عليه في جانب الصالح العمومى وحيث ذلك فالحال يدعى (يدعو) لأن يكون وكيل الحكمдар والمديرون الذين يتعينوا ومديرو شرق السودان ووسطه وغربه من ذوى الادارة والسياسة ليتمكنوا من تنفيذ اغراض الخديوى ويعيدوا رونق العمار والاصلاح .

« سعادة الجنرال هكس ومن معه ليسوا على شيء وانما هم متبعين (متبعون) تعليمات ولو وجد أمامهم اناس يلدركوا الامور ويعملوا أمام اجراءاتهم التي يخشى منها حواجر بطرق غير محسوسة لا يمكنهم أن يتمكنوا من تمشية اغراضهم وينقادوا خوفا من ظهور امورهم .. »

وفي ٥ ابريل كتب حمدى بك يقول : « لا يزال يتراءى للداعى أن دواعى الوقت وما هو مشاهد من اجراءات سعادة عبد القادر باشا يقضيان بوجوده بالسودان ... حيث لم يكن موجودا من بضاهيه . وما ان التقارير الواضح (الموضحة) بها الحالة بتأخر وصولها فيحسب سوديتى ومراعاة للصالح العمومى وجب عرضه (عرض الأمر) تلفراقيا والراى مفوض أفندم »

أثبتت ، كما قال ستيوارت في برقية ٩ فبراير ، أن المصريين إذا حسنت قيادتهم تجنبوا الهزيمة .

وأمام الحاح ستيوارت وعبد القادر أذن الخديوى للأخير بالذهاب الى جزيرة سنار لمحاربة المكشفي فوصل واد مدني في ١٣ فبراير في طريقه الى سنار ومن هناك قاد عساكره الى مشرع الداعي حيث كان يقيم المكشفي متخفيا مع ١٢٠٠٠ مقاتل في غابة على جانب الطريق فهزمه في ٢٤ فبراير وقتل له ٢٠٠٠ (واقعة الداعي) .

وقد هرب المكشفي الى ود برجوب في الجبلين فاستمر عبد القادر في مطاردة زعماء الثورة والتكامل بهم وتشليت شملهم وانتصر عليهم انتصارا كبيرا في ٢٦ مارس سنة ١٨٨٣ . روى مؤرخ أن عددا كبيرا من العربان أنصار المهدي قد قتل في المواقع الأخيرة فاغتم أحد كبار مشايخهم وقال لعبد القادر باشا « لقد أفنيت الرعية بطشك يا سعادة الباشا فدع عنك هذه المناوشات واقتل الديبة من رأسها » فأجابه عبد القادر باشا « اذا لم نظفر برأسها يا شيخ العرب تقطع من ذنبها حتى ندرك الرأس فنسحقه » .

وكان عبد القادر جريا على خطة « تقطيع الذنب حتى بلوغ الرأس » يريد السير جنوبا على طول النيل الأزرق لتصفية الثورة وقطع دابرها في هذه المنطقة لعاية جبل خولى .

ولكن في ٥ مارس كان هيكس باشا الانجليزى وصل الخرطوم ليحل محل القائد المصرى وظهر أن انجلترا ، سيدة الدلتا ، كانت تؤثر أن تدع الثورة تمتد وتقوى في ربوع السودان فكان لابد من كسب الوقت بكل وسيلة حتى تتمكن قوات المهدي المعيرة من تهديد مصر وارغامها على اخلاء السودان بعد استنفاد قوتها لسياسية والاقتصادية التي انتهكها الحرب والاحتلال ونحويل الاحتلال المؤقت الى احتلال ثابت محتوم .

٣- هيكس في كردفان :

لاشك أن استدعاء عبد القادر وتعيين قائد أوروبي مسيحي غريب عن البلاد مكانة لاخاد ثورة دينية بحثة كان لهما أثر بعيد في القضاء على البقية الباقية من هبة مصر وتقوية الحركة المهدية ، وهما بداية فصل جديد في تاريخ السودان .

وصل هيكس الخرطوم على رأس ١٠٠٠٠ مقاتل وكان جلهم من جنود عرابي القدماء الذين سئموا الحرب وكان يراد التخلص منهم . ولو أنهم أرسلوا قبل ذلك لكون منهم عبد القادر جيشا قويا مدربا قادرا على انقاذ كردفان والتشكيل بلهدى . ولكن الخديوى توفيق كان يرفض كل مطالب عبد القادر الخاصة بإرسال نجدات بحجة أن ما أرسله الى السودان حتى ذلك العهد بلغ ١٠٠٠٠ جندي .

وفي أثناء ذلك سلمت حامية بارة ، وكانت مؤلفة من ٢٠٠٠ رجل ، على أثر انفجار مستودع الذخيرة (٥ يناير) وسلمت عاصمة كردفان ، الأبيض بعد حصار دام ستة أشهر (١٧ يناير سنة ١٨٨٣) .

وكان يحاصر الأبيض ٨٠٠٠٠ من الأنصار سلاحهم الوحيد الحراب والسيوف (لا بنادق ولا مدافع) ، وكانت القوة المدافعة لاتزيد عن ٥٠٠٠ رجل مخندقين في الحصن يذودون ذباد الشجعان وقد اضطروا الى التسليم بسبب القحط والمجاعة . روى شاهد عيان أن أربعة أو خمسة من السوريين يعيشون سوية دفعوا ٥٧ ريالاً ثمن كلب . وكان غذاء المدينة الصمغ وأوراق الشجر « ولما رأيت الجنود السود يقتلون عبيدهم ويأكلونهم آليت أن ألوذ بالفرار » .

وقد روى شاهد آخر ، الأب بونومي رئيس المبشرين السابق في الأبيض « ان الجنود بعد مقاومة مليئة بالبطولة كانوا يموتون جوعا في الخنادق . وان أردب الفصح كان يباع بـ ٢٢٠٠ ريال ، ورأس الحمار

٣٠ ، والفرخة : ٣٥ والبيضة بريالين . . وأن القائد كان يرفض التسليم وأخيرا بعد أن صار الجند هياكل عظمية ، تركوا السلاح يقع من أيديهم وانطلقوا يفتشون عن طعام لهم . وكان ذلك في يوم ١٧ يناير فدخل الدراويش بغير قتال .

قتل العصاة الأعيان والموظفين بعد أن أخذوا منهم مليون ريال وباعوا النساء والأطفال كالعبيد . وقد أدمج ثلاثة آلاف جندي سوداني مدرب (جنود الحامية) في جيش المهدي ووكل الى ضباطهم بتقنين قواته فنون الحرب . وعدا ذلك فقد استولى المهدي على ٥٠٠٠ بندقية وخمسة مدافع ومستودعات ضخمة من الذخائر .

تلك كانت « النكبة الفادحة » التي كان عبد القادر يحسب لها ألف حساب ويعمل على تلافيها . وقد تركت عودته خلفه فراغا تعج فيه الفوضى ، وكان الثوار بعد سقوط الأبيض ينوون تقسيم قواتهم الى ثلاث جماعات : جماعة يقودها الفقيه منا لزحف على دنقلة ، وجماعة تزحف على دارفور بقيادة الشيخ رحمة فاتح بارة ، وكان المهدي بنفسه سيتولى قيادة الجيش الثالث الى الخرطوم .

وفي هذا الوقت بالذات صدر مرسوم في القاهرة ، بتاريخ ٢١ مارس سنة ١٨٨٣ ، بإلغاء « وزارة السودان وملحقته » وأنشئت مكانها « ادارة خاصة » في رئاسة مجلس الوزراء .

وقد بلغت خسائر مصر في السودان الى ذلك العهد ١٦٢٩٦ رجلا و ١٧٦٦٩ بندقية و ١٤ مدفعا و ٨٧٩٠٠ خرطوشة كما ورد في تقرير لستيوارت بتاريخ ٦ مارس . وبفضل ماغنمه العدو في بارة والأبيض بدأ يستعمل الأسلحة النارية ضد جنود هيكس .

وكان اللورد دوفرين موجودا في القاهرة ، في هذه الآونة فكتب اليه هيكس ، في ٢٥ مايو ، يقول انه « بعد اخلاء الثورة » في سنار سيسحب جنوده توا الى الخرطوم وسيترك حاميات في كانة والدويم .

وانه بتضح من جميع التحقيقات التي عملها « ان الحركة الثورية في مجموعها حركة دينية بحتة » وهذا ما يحمله على الظن بأن المهدي يفقد الكثيرين من أنصاره وان الاعتقاد في المهديوية أخذ يضمحل وشيكا .

وليس أدل على جهل هيكس بالحقائق وافتقاره الى النظر الصادق من حسن ظنه وتفاؤله . والذي لا شك فيه أن فرقه كانت قليلة العدد قليلة التدريب قليلة الأجر . أما الفرق القديمة التي تتألف منها حاميات الحصون وكانت في كفاح مستمر في أطراف السودان فقد تجدد لها مبلغ ضخيم من المرتبات المتأخرة . ولذلك كان علاء الدين باشا الحاكم العام الجديد ورفيق هيكس باشا في حملته يطالب حكومة القاهرة بارسال ٤٦٠٠٠ جنيه شهريا لدفع مرتبات الجنود والموظفين .

وهذا المبلغ كان لا يشتمل على الديون المتأخرة وأثمان الصفقات التي تمت فعلا وبلغ مجموعها ٨١٠٠٠ جنيه وكان لابد من دفعها .

وكان هيكس من ناحيته يطالب قنصل إنجلترا ماليت بأن يساعد على ارسال ٦٠٠٠ جندي آخر للقيام بحملة في الكردفان بمجرد انتهاء فصل الأمطار ، جاء في كتابه المؤرخ ٣ يوتية : « كلما فكرت في أن الهزيمة ليس معنا فقدان دارفور وكردفان فحسب بل سنار أيضا ومن المحتمل الخرطوم . . لم أجد بدا من الاستهانة بأي خطر في هذه السبيل » ، وكان يقدر نفقات الحملة في الستة أشهر المقبلة بـ ١٢٠,٠٠٠ جنيه خلاف أجور النقل .

وقد بادر ماليت ، في ٥ يوتية سنة ٨٣ ، باخبار غرانفيل بحقيقة الحال « ان سعادتك تعلمون أنه من المستحيل على الحكومة المصرية أن تقدم الأموال المطلوبة للسودان وان العمليات الحربية المقترحة قد تبوء بالفشل اللهم الا اذا جرت العمليات على خط واسع وأمكن تموين الجيش التموين الكافي . ويحق لنا أن نتساءل عما اذا لم يكن من اللازم أن ترسل

تعليمات الى القائد هيكس لكي يحصر عمله داخل حدود نفوذ الخديوى
الحالية فى المناطق الواقعة بين النيل الأبيض والنيل الأزرق » .

ولكن الحكومة الانجليزية لا تحرك ساكنا وتترك الأمور فى أعنتها
نعملة ظاهرة .

وفى شهر أغسطس (فى ٥ منه) كتب هيكس الى ماليت ينبئه أن
التأخر لجنود كركوج خمسة وعشرين شهرا ، ولقازوغلى تسعة ، وانه
لا كساء عندهم ولا غذاء ، وان متأخر ال ٨٠,٠٠٠ جنيه الموعودة لم تصل
بعد ، وان الجنود يخرجون عن الطاعة ، وان وسائل النقل معدومة كلها .
وأخيرا ختم القائد رسالته قائلا : « نظرا للحالة العامة فى مجموعها
لا يخالبنى شك فى أن الأفضل الاحتفاظ بالنيلين ومديرية سنار والتريث
حتى تحل مشكلة كردفان من نفسها » .

وتلك كانت الخطة الأخيرة التى نادى بها عبد القادر بتنفيذها بعد
عودته الى القاهرة . قل نعموم شقير بك فى كتابه (تاريخ السودان) :
« وكان عبد القادر باشا اذ ذاك قد عاد الى مصر فألح على الحكومة
ببقاء الجيش محافظا على النيل الأبيض من الخرطوم الى فاشودة لمنع
امتداد الثورة الى جزيرة سنار وترك المهدي وشأنه فى كردفان الى أن
يظهر للناس ثقاه أو تضيق به البلاد فيضجحل من نفسه » .

على أننا نختلف المؤلف حين يقول بعد ذلك : « وكان هذا رأى
الكثير من ساسة الانجليز ولكن الحكومة لم تزل مصممة على سحق
المهدي فى كردفان خوفا على دارفور وبحر الغزال فأمرت هيكس باشا
بالزحف على المهدي فى الحال فكتب تنغراف فى ١٦ مايو الى حكومة
مصر يقول انه لايتحمل مسؤولية الحملة الا اذا كانت له القيادة العامة
عليها ولما لم تلقت الى طلبه قدم استعفاءه فى ٢٣ يولييه سنة ١٨٨٣
فاهتمت اذ ذاك بالأمر ونقلت سليمان باشا نيازى محافظا على عموم

شرقى السودان وجعلت هيكس قومنداناً عاماً على الحملة وأمرت
علاء الدين باشا بمرافقته كقومندان ثان للحملة .

فالحكومة المصرية ائتمرت بأمر الانجليز أو بعبارة أدق بأمر وزارة
الخارجية الانجليزية ، حين استدعت عبد القادر حلمي في ظروف دقيقة
كانت نقطة تحول في ثورة السودان وعينت مكانه هيكس ثم احتلت
القائد الانجليزى على الزج بنفسه وبجيئته المتخاذل في مجاهر كردفان ..

ولقد كان كل رد مالي على اقتراح هيكس المتقدم (٥ أغسطس) ،
الخاص بالاحتفاظ بالنهرين وسنار وترك مشكلة كردفان تحل من نفسها ،
أن حل الحكومة المصرية على تعيين هيكس قومنداناً عاماً على الجنود
المصرية في السودان (بدلا من رئيس أركان حرب) وبادر ، في
١٨ أغسطس ، بارسال تهانيه اليه . وقد حاول في الوقت نفسه أن
يخفي سياسته فأكد له ، بهذه المناسبة « أن هذا التعيين قد أجرته
الحكومة المصرية من تلقاء نفسها .. » وان تعليمات حكومته تمنعه من
إبداء النصيحة ، فيما يتعلق بأعمال الحكومة المذكورة ، نظرا لأن سياسة
حكومة صاحب الجلالة ترى لزاما عليها أن تتحاشى ، بقدر الامكان ،
التدخل في شؤون الحكومة المصرية في السودان .

ومعلوم أن خطة هيكس ، التي رسمها عبد القادر ، قد لقيت أكبر
تأييد من اللورد دوفرين في القاهرة ، ولكن الحكومة الانجليزية كانت لها
خطتها البعيدة الهدف وكانت تخرج بالصمت عن جواب حاصم متظاهرة
بترك الأمور وشأنها مكثفية بتصريح مبهم بعدم مسؤوليتها .

ويتضح جليا من النظر في المحفوظات الانجليزية أن الرأي السائد
في وزارة الخارجية ، في شهر مايو ، كان يميل الى وقف كل مكتابة رسمية
بين هيكس وماليت « لتخليص الحكومة الانجليزية من كل مسؤولية » .
وفي نفس ذلك الشهر (مايو) غادر دوفرين القاهرة الى الآستانة .

وقد كتب هيكس الى دوفرين ، في يولييه ، كتابا توجس فيه الكارثة التي حلت به في نوفمبر ، قال ، بعد أن ذكر أنه « أصبح ولا سند له منذ رحيل دوفرين » ان أوامره لم تكن محل عناية السلطات المصرية المحلية وان « التأخيرات » لا نهاية لها وان المؤن والجمال اللازمة غير مهياة رغما من الحاجة الملحة وان الفرسان تنقصهم الخيل وان فصيلة من الرجال (البيادة) انضمت الى العدو بأسلحتها .. وكان ختامه في النهاية : « انى لا أرى سيلا الى الزحف قبل سبتمبر ، اذ يتم جمع المحصول واعداد مؤونة الجيش ولكن لن يوجد وقتئذ عشب لقوت الخيل ودواب الجمل . وقد بلغ استهتار الموظفين وتعنتهم أسوأ حد ، وكثيرا ما هددانى اعمال النظر في مشروع الحملة الى قطع كل أمل ... وقد أبرق الى حسن باشا قومندان النيل الأزرق (سنار) بأن جيشه أصبح بلا ميرة » .

نشر الرسالة السابقة ألفريد لايال في كتابه عن اللورد دوفرين وعلق عليها قائلا : « حقا لا يوجد أحد سوى اللورد دوفرين ، يظهر عظما صادقا نحو القومندان البائس الذى تحيط به الأعداء وتتخلى عنه الحكومة التى يشتغل فى خدمتها ، بينما تشيلدرز Childers ، فى إنجلترا ، منذ تعيينه وزيرا للمالية فى مايو سنة ٨٣ ، لا ينظر بغير زعج الى كل ماقد يظن أنه محاولة لمديد المعونة اليه (أى هيكس) فى حملة تنصلت فيها الحكومة (الانجليزية) من كل تبعة ^(١) » .

ولكن يجب علينا أن نقرر أن هيكس لم يكن الرجل الذى فى استطاعة مواجهة الموقف . وكانت تعوزة خبرة عبد القادر واقتداره وعلو همته . وكان سريع التأثر كثير الاستسلام للأوهام . وشاهد ذلك ماكتبه الى ماليت ، بتاريخ ٦ سبتمبر ، يبينه بعزمه على السير بجيشه الى كردفان فى اليوم الثامن ثم يقول انه سيلاقى مثاق

(١) Alfred Lyall, The Life of The Marquis of Dufferin Ava. 2 vols.

انظر الجزء الثانى ص ٥٥ .

كبيرة في طريقه من جراء الماء ولكنه عظيم الأمل في أن تكون للترقيات التي عملها ، في هذا الصدد ، نتائج طيبة .. وفي ختام برقيته : « ان الاعتقاد في المهدي في تناقص مستمر » .

انخدع هيكس بأمثال هذه التصريحات وسار بجيشه في الصحراء والطرق الجذباء مسافة أربعين يوما والعدو يتعقبه ويراهته من بعد ومن كتب فلما غادر هيكس الرهد صوب منهل البركة حيث يكثر الماء والآبار كانت قوات المهدي سبقتة اليه فاضطر الى الاتجاه الى غابة شيكان حيث وصل في ٣ نوفمبر . وفي اليوم الخامس كان الأعداء مختبئين في كمين فباغتوا الجيش وأعملوا فيه القتل فمحوه بعد أن قضى الجوع والظما على نصفه . وكانت الخسارة في الرجال والعتاد ٩٩٧٧ جنديا و ٤٠٠٠ جمل و ٣٥ مدفعا جبليا و ٧ مدافع كروب و ٦ مدافع من نوع آخر ومليون خرطوشة .

وقد علق اللورد دوفرين على نبأ هذه المجزرة البشرية بقوله في كتاب أرسله الى اللورد فيتزموريس بتاريخ أول ديسمبر سنة ١٨٨٣ : « ما كان يجوز لهيكس المسكين أن يطوح بالجيش الصغير الوحيد الذي تملكه مصر في مغامرة خائبة الى أقصى حد . ومهما كان من الأمر فاني لا أظن أن الخرطوم وسنار والنيل والمواصلات بين بربر وسواكن يجب التفكير في اخلائها نهائيا أيا كان التفهقر المؤقت الذي تلمسه الخيطة .. »

« ولا يسعني السكوت على ضياع الخرطوم . واني لأميل الى القيام ببعض التضحيات في سبيل الاحتفاظ بموقع في وسعه صد تقدم المهدي صوب الشمال . موقع مصري ولكنه في الوقت نفسه مركز أمامي من مراكز المدنية » .

ولكن كان لوزارة الخارجية الانجليزية خطتها البعيدة الغور وكان لها هدفها الذي لا يحيد عنه .

الفصل التاسع غردون في الخرطوم

منذ ابتداء الثورة والهزائم المتوالية في قدير وبارة والأبيض وشيكان خسرت مصر في السودان ٢٧٠٠٠ رجل و ٥٦ مدفعا و ٢٠٠٠٠٠ بندقية و ١,٥٠٠,٠٠٠ خرطوشة .. وفي مصر نفسها لم يبق الا جيش صغير جديد تحت امرة السردار الانجليزى وود وقوة بوليس يرأسها بيكر . وكانت الفكرة السائدة في وزارة الخارجية الانجليزية ارغام مصر على اخلاء السودان ، وقد هيأت هزيمة هيكس في انجلترا الفرصة لتكليف غردون بتنفيذ هذه السياسة . وقد كتب بيرنج (اللورد كرومر فيما بعد) الذى خلف ماليت في مصر ، بهذه المناسبة ، الى حكومته ، بتاريخ ٢ ديسمبر (٨٣) يقول : « بالاشارة الى برقية أمس من سيادتكم آتشف بأن أحيطكم علما بأن الحكومة المصرية ضد استعمال غردون على الاطلاق لأسباب أهمها أن حركة السودان ذات صبغة دينية فتعين مسيحي في القيادة العليا قد يكون من شأنه تغيير أفضس القبائل التى لاتزال موالية للحكومة » .

وفي مذكرة كتبت في سواكن ، بتاريخ أول يناير سنة ١٨٨٩ أى بعد ذلك بخمسة أعوام ، قال اللورد كنتشر « حين انتشر نبأ هزيمة هيكس الكاملة في كردفان اعتقدت في الحال جميع قائل البدو والعرب في السودان الشرقى أن مهديا جديدا ظهر لاتخاذهم من أيدي المسيحيين ، الذين كانوا ، على حد قوتهم ، يسيطرون في القاهرة » .

والواقع أن الحكومة الانجليزية كانت لا تجهل هذه الاعتبارات وبالأخص نتائج تعيين أوريين مسيحيين في السودان منذ سنة ١٨٧٠ .
بل هذه الاعتبارات هي التي جعلتها تفرض غردون فرضا على حكومة مصر لاخلاء السودان كما فرضت من قبل بيكر وملكولم وغردون وهبكس وخليطا من الأوروبيين أمثال جيسى وأمين وسلاطين وغيرهم للقيام بمهمات كبرى دقيقة في المناطق المصرية في أفريقيا .

وكان غردون ينتظر وصوله المقرر في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٤ . فلم تدخر الحكومة المصرية في أثناء ذلك وسيلة لتصحيح الموقف . وقد أرسل شريف باشا رئيس الوزارة المصرية ووزير الخارجية ، بتاريخ ٢١ ديسمبر سنة ١٨٨٣ ، اى بيرنج ، مذكرة شفوية تبين وجهة النظر المصرية في سياسة الاخلاء ، هذا نصها :

« ان أول اعتراض يخطر على البال عند النظر في اخلاء السودان بواسطة مصر هو نص فرمان ٧ أغسطس سنة ١٨٧٩ الذى يحرم بصفة قاطعة على الخديوى كل تصرف في الأراضي المصرية .

« على أنه لو فرض أن مصر كان في مقدورها ، وبحض ارادتها ، التنازل عن ممتلكاتها السودانية ، لوجب عدلا أن نستبين النتائج المترتبة على ذلك :

« ان الحكومة ، في الوقت الحالى ، تحتفظ بسلطانها على السودان جميعه ، مخلا مديرية كردفان والمراكز المصاغة لسواكن . واذن يكون المراد بالاخلاء ترك الثورة تحتل السودان الشرقى كله ومديريات بربر ودنقلة وكذلك مجرى النيل من منابعه الى نقطة لم تحدد بعد كحد جنوبى لمصر . واذن يصير المهدي السلطة الوحيدة المسلم بها في هذه المناطق الواسعة كما أن القبائل التى ظلت موالية لمصر والقبائل المترددة كالكبابيش ستضطر الى الانضمام الى العصاة وتضخم صفوفهم .

« وبعد أن تكون ساعدت على ازدياد نفوذ المهدي تتضاءل مصر في أضيق حدودها وتستعد تحت لكى تلاقى مباشرة صدمة الجماهير المتعصبة . وعليها أيضا أن لاتهمل أمر قبائل البدو العديدة التي تحيط بها من كل جانب ، ولاشك أن هذه القبائل المجبولة على حب النهب والتي تجذبها مصر جذب السراب لن تبقى صماء لا تسمع دعوة المهدي اليها .

« وبعض هذه القبائل كالعبادة وقسم كبير من اليشارية الموالية حتى اليوم والتي تمتد من بربر الى اسما وقتنا قد تصبح مصدر قلق دائم للحكومة .

« وسترى مصر نفسها ، وقد سبت حدودها الطبيعية فصارت عوراء من كل النواحي ، مضطرة ، في سبيل أمنها ، الى استبقاء جيش ضخم فوق طاقتها .

« واحتلال السودان ، على العكس ، مع حسن الادارة ، يتيح لمصر تجنيد الجند بشن زهيد في هذه الممالك بل وتحصيل هذه الممالك نصيبا من ثقات ذلك الجيش الذي يساعد في وقت واحد على حفظ الأمن في السودان وحماية مصر نفسها .

« والثابت ، منذ أقدم العصور الى محمد علي ، أن مصر كانت دائما تلجأ الى الهجوم صوب الجنوب لتتقى غارات شعوب النيل الأعلى . ولذلك فان حكومة سمو الخديوي لا يسعها أن تسلم بترك أراض ترى أنها لازمة جدا لأمن مصر وسلامتها .

« على أننا لو نظرنا الى الأمر من ناحية المدنية لم يسمع المنصف ، أي . كانت وجهة النقد الموجه الى الادارة المصرية في السودان ، الا أن يعترف بأن الى جهود مصر يرجع الفضل في أن الممالك الممتدة حتى البحيرات أصبحت اليوم ضمن العالم المعلوم ، والى مصر يرجع الفضل

في أن بيوتا تجارية أوربية أمكن تأسيسها في السودان ، وأن رحلات علمية استكشافية قد عملت ، وأن بعثات من المبشرين المسيحيين قد وطلت .

« وليس من اليسير انكار ما قامت به مصر للحد بقدر الامكان من تجارة الرقيق ، ساعد المهدي على تجنيده أكبر انصاره من بين أولئك الذين عرقلت الادارة المصرية تجارتهم الشائنة .

« ولكن لأجل أن توالى عملها في السودان وتوطد سلطتها وبالتالي تحمي مصر تحتاج حكومة سمو الخديوى الى معونة مؤقته قوامها جيش مكون من زهاء ١٠٠٠٠ رجل .

« وستستعمل هذه القوة المسلحة أولا في فتح الطريق بين سواكن وبربر ثم تستبقى كحامية لوقت محدود الى أن تتمكن الحكومة من تجميع وحشد قوات تحمل محلها .

« ولا حاجة بنا الى القول انه لا يخطر على بال الحكومة مطلقا ارسال حملة الى كردفان . ولكنها ستكتفى بالتهيؤ للبقاء في الخرطوم لتأمين جانب السودان الشرقي وتهيمن على مجرى النيل .

« ولنظرا للصفة الديلية التي تتسم بها الثورة ترى حكومة صاحب السمو أن أنسب تدخل في هذا الظرف هو التدخل التركي ، وهي تعتقد أن الباب العالي لن يحجم عن تقديم هذه المعونة الى بلد كصر سبق أن مده بقوات في القرم وكريد والصرب وبلغاريا . وأن الحاجة الملحة العاجلة الى مثل هذه المعونة لن تحفى على الباب العالي ليحول دون انتشار الثورة في طرابلس الغرب وبلاد العرب . على أن الحكومة شديدة الرغبة في أن كل ارتباط من هذا النوع يدعم باتفاق مع بريطانيا العظمى سواء أكان ذلك بأن تتولى حكومة صاحب الجلالة المفاوضة باسم مصر أو بأن تتفق مصر رأسا مع الباب العالي » .

وقد عرقلت انجلترا مشروع ارسال جنود تركية بتحتيمها أن تقوم تركيا بالاتفاق على الحملة من مالها كما عرقلت كل فكرة أخرى تتعارض في شكل من الأشكال مع سياستها الخاصة باخلاء السودان حتى أصوان أو وادى حلفا . وقد أفلحت في الوقت نفسه استعدادها للمعاونة على حفظ النظام في مصر والدفاع عن هذه الأخيرة وعن مين البحر الأحمر . أرسل شريف باشا ، بتاريخ ٢ يناير سنة ١٨٨٤ ، مذكرة سرية الى بيرنج يشير فيها الى مذكرة ٢١ ديسمبر ويبين له « الضرورة التي تحتم على مصر الاحتفاظ بأعلى النيل » .

والواقع أن مصالح مصر أصبحت تصطدم مع مصالح انجلترا اصطداما عنيفا خلف سياسة الاخلاء . وقد يادر بيرنج ، في ٥ يناير ، بإبلاغ الحكومة المصرية أن حكومة صاحب الجلالة لا تعتقد أن مصر في امكانها الدفاع عن الخرطوم ، وترغب في سحب القوات من داخل السودان ، بما فيه الخرطوم .

ولكن شريف لم يتزعزع . وفي هذه الفترة وصلت برقية غراشيل الشهيرة التي أبلغ بيرنج بمقتضاها ، الحكومة وشريف باشا ، بتاريخ ٦ يناير « انه من الضروري في المسائل الهامة المتعلقة بشؤون الادارة وسلامة مصر أن تتبع مشورة حكومة صاحب الجلالة مابقى احتلال القوات الانجليزية المؤقت في البلاد » .

لم يبق أمام شريف الا أحد أمرين : الخضوع أو الاستقالة وقد أثار الاستقالة ونشر على الملأ نصها (٧ يناير) :

« ان حكومة صاحب الجلالة تحتم علينا اخلاء السودان ، وليس لنا الحق في الموافقة على ذلك الاخلاء لأن الباب العالي وهو المالك الشرعى قد وكل إلينا أمر هذا البلد .

« تقول حكومة جلالة الملكة أن مصر يجب أن تتبع مشورتها دون

مناقشة . وفي ذلك اعتداء على مرسوم ٢٣ أغسطس سنة ١٨٧٨ الذى يحكم الخديوى بمقتضاه مع وبواسطة وزرائه . اتنا نستعمل لأنه حيل بيننا وبين الحكم طبقا للدستور » .

ولكن انجترا ما كان ليعنيها انتهاك الدستور أو حقوق بلاد احتلتها بالقوة . ومهما كان من الأمر فإن الاخلاء الذى تريده لم يكن ذلك الاخلاء المرتب المنظم الذى تقتضيه الظروف ولكن اخلاء مضطربا عاجلا من شأنه ازالة الحواجز دفعة واحدة أمام قوات الثورة والقوضى فى أرجاء الوادى ونوكيد فصل السودان وملحقاته ، وتعريض حياة الحاميات المصرية والمدنيين لخطر محقق وإيجاد حالة تهديد ضاربة على أبواب مصر .

وقد أبت وزارة نوبار ، التى ألقت فى ١٠ يناير ، اخلاء مجردا ، ولا ريب أنها كانت تريد اخلاء مرتبا منظما كما يبدو من ابلغها بيرنج ، منذ يوم ١٤ يناير ، أنها قررت إيفاد عبد القادر باشا حلى وزير الحرية الى الخرطوم ليشراف على سحب الحاميات من السودان .

وكان نوبار يقول : ان القيادة العليا لن يسلم زمامها الى يد أفضل من يد عبد القادر الذى يعرف من السودان مالا يعرفه غيره فضلا عن أنه ضابط شجاع كفء .

ومن تحصيل الحاصل القول بأن الحكومة الانجليزية عارضت فى فكرة نوبار التى كان يؤيدها بيرنج لأنها لا تتفق مع الهدف المرسوم . ومن العدل أن نقرر أن جميع الممثلين الانجليز ، فى أثناء ثورة السودان وفى أطوارها المختلفة ، كانوا باستمرار على خلاف تام أو جزئى مع حكومة لندن من جراء سياستها المصرية لأنهم كانوا يجهلون أو يتجاهلون أحيانا هدفها الحقيقى الذى لا يأتلف مع منطق الحوادث والحقائق الظاهرة .

لذلك نرى القائد فالنتاين بيكر باشا الذى كان فى السودان الشرقى منذ ١٧ ديسمبر يعلن الى بيرنج ، فى كتاب مرسل من سواكن ، بتاريخ ٧ يناير ، « انه يعتقد كل الاعتقاد أن ضياع السودان سيكون ضربة فادحة لمصر وأن النفقات الضرورية للدفاع عن مصر نفسها ستكون مصدر خراب مالى لها فى المستقبل وأكثر أضعافا من المبالغ التى تكون قد أنفقتها فى السودان فى الماضى » .

وقد بحث بيرنج نفسه بكتاب سرى ، بتاريخ ١٩ يناير ، الى اللورد غراثيل ، جاء فيه : « قابلت الخديوى هذا الصباح ، وقد أطلعنى فى أثناء الحديث ، على خطاب وصل اليه أخيرا من السير صمويل بيكر . وقد أبدى بيكر فى هذا الخطاب أسفه الشديد على اخلاء السودان مؤكدا أنه ، بفضل سياسة غلادستون ، أصبحت مصر فى حالة يرثى لها وأنها قد استبدلت العبودية بحريتها . ثم رجا الخديوى أن يعمل كخديوى وأن يحارب بكل عزة هذه المقترحات — يعنى بصفة خاصة الاقتراح المتعلق باخلاء السودان (١) » .

وأخيرا ، فى ٢٥ يناير ، وصل غردون الى القاهرة ، وقلده الخديوى سلطات الحاكم بأمره . وفى اليوم السادس والعشرين سافر الى السودان . ولكنه فى اليوم ذاته أوصى بإرسال الزير الى السودان نظرا لكفاءته وحزمه وثقوفه الواسع فى ذلك الاقليم .

وفى أثناء الطريق كان غردون يرسل مذكرات الى بيرنج . وهذه المذكرات تكشف عما كان يشغل باله من ناحية « اخلاء السودان » . ومنها يتضح أنه كان يريد « اخلاء » مرتبا متدرجا من شأنه حصر النقوضى فى حدود ضيقة وانقاذ أعمال المدنية التى قامت بها مصر فى السودان . ولارِب أن هذه السياسة « المنطقية » التى لا تستغرب على

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ . مجلد ٣٦٦٥

طبيعة غردون والتي لم ترق في أعين حكومة لندرة تفسر لنا من ذلك الوقت السر في مسك الحكومة الانجليزية ازاء غردون وامتناعها عن ارسال النجيدات الضرورية في ميعادها والتضحية به في صورة من الصور .

جاء في مذكرة غردون الأولى التي وصت القاهرة في أول فبراير :
« ان مشككة المشاكل هي معرفة كيف ولمن تترك ترسانات الخرطوم ودقنة وكسلا ؟ ومعلوم انه لا توجد أسر عريقة في هذه المدن وان الخرطوم وكسلا حديثان لأن بداية انشائهما ترجع الى أيام الفتح في في عهد محمد علي » .

وفي ٨ فبراير (سنة ١٨٨٤) كتب غردون لى بيرنج من أبو حمد :
انك لا تجهل أن نظاما عاما للبريد والبرق موجود في السودان وأن محكم قد أنشئت وادارات مالية وغيرها قد أسست ، وأن البلاد ، بصفة عامة ، قد ألقت ، راحة طويلة من الزمن ، حكومة تراقب وتوجه وتدير الى حد ما .

« فالاخلال بهذا النظام ان لم يكن محوم ، في الطرف الخالي ، معناه ، في نظري ، دفع البلاد الى الفوضى الكاملة . فكم فيما تؤول اليه الأحوال ... »

« من أجل ذلك أرى أن الحكومة المصرية يجب عليها الاحتفاظ بركزها كدولة متبوعة ، وتعيين لحاكم العام والمديرين وأن تكون في ممارسة سلطتها شبه محكمة استئناف عليا . على أن لا يخرج اشرافها وادارتها العليا عن الصفة الأدبية البحتة .

« وعنى الرغم من كل ماحدث ، أراني في اغتباط لشعوري بأن هيئة حكومة القاهرة ، الا فيما يتعلق بمسك جنودها في ميادين القتال ، لم يصعب تخنخل جدى . وأن القوم لا يزالون ينظرون الى حكومة القاهرة

باعتبارها الممثلة الشرعية للسلطان في شخص الخديوى ، وان الانفصال
التام ، في نظرهم ، اذا تحقق ، كان أمرا ادا .

« لذلك ألح في أن تكون الخطة التي تتبعها قائمة على الاخلاء
evacuation لا الترك abandon وأن يحل محل الفرمان الذى
أستمد منه سلطاتي فرمان آخر يعترف برقابة مصر الأدبية ومركزها
كدولة متبوعة (١) » .

هذه الوثيقة الهامة كانت تحمل امضاء غردون بصفته (الحاكم العام
للسودان ومديريات البحر الأحمر) .

وفي ٢٨ فبراير كتب بيرنج الى حكومته يقول انه لا يوجد الا أحد
أمرين : اما اخلاء السودان كله ونجنب أى مجهود لايجاد حكومة ما فيه
قبل الرحيل واما العمل بكل الوسائل الممكنة في الوقت الحالى على
توطيد حكومة ما تحل محل الادارة المصرية السابقة .

« ان غردون من أنصار الفكرة الأخيرة واني على اتفاق تام معه ..
» وأيا كانت وجهة النظر من الناحية السياسية أو العسكرية أو
المالية لا مرء في أن الموقف سيكون في منتهى الخطورة اذا نحن سمحنا
للقوضى المطلقة أن تهيم في جنوب وادى حلفا ، هذه القوضى التي
ستعقب حتما ذهاب غردون » .

وقد أوصى بيرنج في ختام رسالته بارسال الزير باشا خصوصا وأن
طلبه هذا يؤيده بقوة غردون ونوبار .

ولكن الحكومة الانجليزية تمسكت برفضها بحجة أن الزير من تجار
الرقيق التقدماء . والحقيقة أنها كانت تخشى أن يؤدي استعمال الزير
الى سحق حركة المهدي وایجاد حكومة وطنية قوية ، بعد رحيل غردون

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ مجلد ٣٦٦٧

وبالتالى الى عرقلة الخطة الانجليزية المبينة في لندرة وأهدافها البعيدة
في السودان .

والحق يقال كان غردون معارضا للترك وللإخلاء معا اذ كان يرى
(برقية ٢٦ فبراير) أن المهدي يجب سحقه اذا أرادت مصر أن تعيش
في سلم وطمأنينة » اذكر دائما هذه الحقيقة وهي أنه اذا تمكن المهدي
من أخذ الخرطوم أصبحت مهمتنا أكثر وعورة منها بالأمس ... واني
أكرر أن الإخلاء ممكن ولكنكم ستحسون بآثاره في مصر ، وانكم
سترغمون على مواجهة موقف جديد أشد خطورة للدفاع عن مصر » .
وأخيرا طلب غردون في برقيته ارسال ٢٠٠ هندی الى وادي
حلفا ومال ...

والحكومة الانجليزية ، كدأبها ، لا تجيب طلبا لغردون أو للسلطات
المحلية الانجليزية أو المصرية ، في القاهرة : لا زير ولا جندا من تركيا
ولا جندا من الهند .

وفي أول مارس ، بعد أن أعلن تمسكه بسياسة الإخلاء المحتمل ،
قال : « لقد كان الزير أملي الوحيد . سأعمل جاهدا ، قدر الطاقة ،
على تنفيذ تعليماتي ، ولكنني موقن كل الايقان انني سأؤخذ في الخرطوم » .

وفي ٨ مارس . « أمام العاصفة التي ستنتصب على كتدنا لماذا لانستعمل
وود وقواته (المصرية) للسير الى دنقلة ومن هناك الى بربر . ان الطريق
مأمون والجمال كثيرة » .

الواقع أن غردون كان يضرب على حديد بارد . وكانت كل تصرفات
السلطات في لندرة والقاهرة معه وسكوتها عن نصرته مما يساعد على
اتساع الثورة وانضمام أنصار جدد كل يوم لها . وقد كان لاعلان
نبأ ترك السودان على ملاء من السودانيين ، في ذلك الوقت أكبر الأثر
في تقوية نفوذ المهدي واضعاف قضية مصر .

لم يسمع غردون الا أن توفر على تنظيم المقاومة في الخرطوم وقد سار على نهج عبد القادر في تحصين الخرطوم والاستعانة بكبار الضباط المصريين والسودانيين ولكنه على الرغم من قوة جلده وذكائه كانت تنقصه راحة عقل عبد القادر وقدرته الواسعة وبصره بالرجال ولم يكن على أية حال « رجل الساعة » للقيام بمهمة دينية عسكرية معا . وقد حاول أن يقلد عبد القادر فكتب بتاريخ ٢١ فبراير ، الى الشيخ البصير ، أحد أقرباء المهدي ، ورئيس العصاة في النيل الأبيض خطابا مملوءا بالآيات القرآنية والأحاديث التي تثبت كذب دعوة المهدي . ولكنه في الوقت نفسه أظهر روحه الانجليزية بوعده بانقاص الضرائب ومعاملة الموظفين الوطنيين بالعدل والحسنى .

ولا ريب أن أخطاء الادارة المصرية ، وهي أخطاء في طبيعة كل ادارة للبشر — اذا استثنينا اجراءات العنف التي اتخذت ضد تجارة الرقيق وما اليها من مصادرة وبطش وعدوان — لم تكن الا عاملا ثانويا جدا في الاستياء العام . ولا نعدو الحقيقة اذا قلنا انه لم يكن هناك استياء عام بالمعنى الصحيح وأسباب جدية كافية لايجاد ثورة . ان الثورة المهدية ، بصفتها الدينية البحتة ، لم تكن كغيرها من الثورات . انها حركة قد نشأت ونمت ووجدت غذاءها ومادتها في النفوس لا في العوامل المادية البحتة . وقد كان الدراويش والفقهاء والأعراب الذين تتألف منهم كتائب المهدي يتهافتون على الموت تسوقهم فكرة روحانية وعقيدة تسلطت عليهم وألهبت تعصبهم وتحمسهم للقتال . واذا حللنا منشورات المهدي كلها تبين لنا أنه لا يوجد أية اشارة الى الادارة المصرية والى الضرائب وحتى الى تجارة الرقيق . كان المهدي يستحث أنصاره وعصبه على محاربة النصارى (الأجانب) والترك الذين زعم المهدي « أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره صريحا بقتالهم وأخبره بأنهم كفار لمخالفتهم لأمر الرسول باتباعه واراדתهم لاطفاء نور الله تعالى الذي

أراد به اظهار عدله » ، وكان يعدهم الجنة والثواب في الآخرة . وكانت انتصاراته ودعاواه المصطنعة من رؤى يرى فيها النبي فيقول له كيت وكيت ويبرزه بكيت وكيت تخدم دعايته بين القبائل والجهال والمشعوذين والسذج وهم السواد الأعظم في البلاد .

ولذلك كانت منشورات غردون على أهل الخرطوم في شهر فبراير لاقت بصلة الى الحقائق الراهنة ، وكانت تنم عن فكر مشوش مضطرب ، وهي قائمة على محاربة الثورة بالقضاء على الأسباب التي مهدت لها ، وهذه الأسباب في نظر غردون أهمها تجارة الرقيق ووسائل العنف التي استعملت للقضاء عليها وفداحة الضرائب وطرق جبايتها وهي تلخص في غشم الولاية وظلمهم .

وقد بينا من قبل أن معظم التبعة ، ان لم يكن كلها ، يقع على « الادارة المختلطة » التي بدأت تثير الفتنة في السودان منذ دخولها في سنة ١٨٧٠ ، وان العامل الديني كان هو المحرك الأكبر الذي انتظم الحركة في البلاد .

قال غوردون في أحد منشوراته : « ان السودان قد فصل عن مصر فصلا تاما وقد جئتكم حاكما مفوضا عليه فجعلت محمد أحمد سلطانا على كردفان ، وألغيت الأوامر الصادرة في منع الرقيق ، وأغضيت عن المتأخر من الضرائب لغاية سنة ١٨٨٣ وعن ضرائب سنتين في المستقبل ، وسأجعل حكومة وطنية من أهل البلاد ليحكم السودان نفسه بنفسه ، وقد نذبت الشيخ عوض الكريم أباسن ليكون مديرا على الخرطوم . »

كان المهدي منذ موقعة شيكان يستعد للزحف على الخرطوم وقد ظهرت الحكومة المصرية أمامه ، في شخص غردون ، بمظهر العاجز الحائر . وبينما كان العصاة يشرعون في حصار الخرطوم (١٢ مارس سنة ١٨٨٤) كانت الثورة تنتشر حوالى النيل ، في سنار وفي اتجاه بربر .

وكان خطرهما من ناحية المدينة الأخيرة يهدد بقطع طريق النيل (حلغا - أبو حمد - بربر) وطريق السودان الشرقى (سواكن - بربر) أمام كل حملة تركية أو انجليزية لانجناد غردون .

والذى يزيد من حرج الموقف ودقته اشتداد الحالة في السودان الشرقى ، حيث كان الايذان ببدء الثورة في منتصف سنة ١٨٨٣ حين نجح عثمان دقنه ، وهو أشد أعوان المهدي بأسا ودهاء وجلدا على الكفاح ، في حملة قبيلة الهدندوة والقبائل الأخرى على الانضواء تحت راية المهدي وتطويق سواكن . فلم يمض نصف عام (في أواخر سنة ١٨٨٣) حتى كانت الحاميات المصرية كلها في المدن المحصنة المختلفة لغاية حدود الحبشة محاصرة (سنهت وطوكر وكلا وأماذيب وغرة والقضارف والقلابات) .

وكان القائد الانجليزى بيكر يريد انقاذ سنكات أولا ولكنه علم من قومندان حامية ملوكر أن المدينة قد فقدت ذخيرتها فذهب لنجبتها من سواكن على رأس خليط من الفرسان المصريين (٣٠٠) والفرسان الاتراك (١٥٠) وجندرمة القاهرة والاسكندرية (١١٥٠) وعساكر مصوع (٤٥٠) والمشاة الاتراك (٤٢٩) وعساكر الزبير باشا السودانية (٦٧٨) والطوبجية المصرية (١٢٨) ومجموعهم ٣٦٥٠ . ولما نزل في ترلكتات (٢٨ يناير سنة ١٨٨٤) احترب مع عبد الله أمير الساحل وانجالت الموقعة عن محزنة خسر فيها بيكر ٢٢٥٠ جنديا و ٩٦ ضابطا و ٤ مدافع ونصف مليون خرطوشة و ٣٠٠٠ بندقية فقفل راجعا الى سواكن وترك سنكات تحت رحمة الفناء أو التسليم .

وقد قاومت سنكات مقاومة البطولة قبل سقوطها في ٨ فبراير سنة ١٨٨٤ بدأ حصارها في ٥ أغسطس سنة ١٨٨٣ ، ومنذ ١٨ أكتوبر من نفس السنة كانت جميع المواصلات مع الخارج قد قطعت بأكملها . وبعد أن أكلت آخر قطة وآخر جمل عاش القومندان توفيق بك

والمدافعون على القيران والكلاب والأحذية... وأخيرا أكلوا الحشرات وأوراق الشجر والطيور الجارحة التي كانت تخلق أو تحوم حول المكان . وعلى الرغم من الجوع وتهدم الحصن الذي كانت تحميه أكياس من الرمل فإن الجنود كانوا لا تخور عزيمتهم . فلما لم يبق شيء يقتاتونه رمى توفيق وجنوده المدافع في الآبار ودمروا كل ما قد ينفع الدراويش ثم خرجوا - ونسأؤهم وأطفالهم في أعقابهم - وكان الجميع ٧٠٠ نفس - وحملوا على العدو حملة شعواء ودوخوه وغلبوه مرارا حتى اضطر العدو الى جلب مجندات جديدة وسحقهم تحت عدده وقد ذبح الرجال وأسر النساء اللواتي نجون من الموت ، وباع الأطفال عبيدا . وقد قاتل توفيق بشجاعة الى الممات .

كتب جاكسون في كتابه عن (عثمان دقنه) يقول : « في أثناء الستة الأشهر الأخيرة من المعارك كان دفاع البطل توفيق بك الصفحة الوحيدة الرائعة » .

وعلى أية حال كانت هناك صفحات رائعة كثيرة في السودان شرقا وغربا منذ الأبيض » .

وفي أثناء ذلك كان بيكر غادر سواكن على عجل بغلول قواته في حالة هرج ومرج لانظير لها . ولما كانت منطقة البحر الأحمر تهيم انجلترا بنوع خاص فقد قررت ارسال حملة بقيادة جراهام لاتقاذ طوكر ، وكانت مهمته محدودة ، ولكن طوكر سقطت قبل انجادهما (٢٠ فبراير) .

وكان توفيق بث قبل ضرب الحصار الكامل حول مدينته ، من يولية الى سبتمبر ، أوقع بعثمان دقنه هزائم كثيرة ، فكان لا بد من سحق دقنه نهائيا اذا أريد . من جهة ، انقاذ كسلا والمواقع الأخرى المحاصرة ومن جهة أخرى فتح طريق بربر لمنع سقوط هذه المدينة الأخيرة وانجاء الخرطوم .

وقد انتصر جراهام ، في أواخر فبراير ، على العدو في معركة التيب
قتل ٢٠٠٠ قتيل (من ٦٠٠٠) خلاف الجرحى ، واحتل من جديد طوكو
في أول مارس ، وفي ١٤ منه هزم عثمان دقنه في تمای ، مركز جيشه ،
وقتل له ٢٠٠٠ من « الأنصار » .

وكان النيل جميعه ، ابتداء من الخرطوم ، يتطلع في محتته نحو السودان
الشرقى ، كتب الكولونيل ستوارت في أول مارس الى بيرنج يقول :
« لقد تبين لى فى سياحتى الأخيرة على النيل لأبيض أن السكان
يتحفزون . ويظهر أن المهدي يؤثر أن لا يتحرك الى الأمام ينتظر قبل
أن يتحقق من نأ الحملة الانجليزية المنتظرة .. » فاذا نظرنا الى الأمر
من هذه الزاوية لم يسعى الا الاغتباط من كل قلبى ، بنزول جراهام
فى سواكن . وأرى أن يتقدم الى بربر بعد هزيمة عثمان دقنه ، فهذا
هو السبيل الوحيد لانقاذ حاميات سنار وغيرها .. »

وفى ١٣ مارس أبلغت وزارة الخارجية الانجليزية بيرنج انها لا توافق
على الاقتراح الخاص بالزير ولا على مناورة بربر . وبعد ذلك بثلاثة
أيام ، فى ١٦ مارس ، كتب اللورد غراڤيل الى بيرنج : « اتنا موافقون
على الحركة التى قام بها جراهام شطر سنكات ولكننا لا نسمح مطلقا
بتقدم أية قوة فى اتجاه بربر حتى تصلنا المعلومات الكافية عن الأحوال
العسكرية وحتى تتأكد تماما من ضرورة هذا التقدم لتأمين غردون
لا أكثر » !..

وفى شهر مارس ، وعلى الرغم من هزائمهم ، انتهز عرب عثمان دقنه
فرصة سكون جراهام القهرى وقطعوا الطريق بين سواكن وبربر
وأخذوا يهددون طريق كوروسكو الذى يعتبر خط الانسحاب الوحيد
لبربر ولمدافعيها النساء والآلاف الرجال والنساء والأطفال .

وفى ٢١ مارس كتب بيرنج الى حكومته : « يلوح لى أنه ليس من

المستحسن مطلقا منع جراهام من مهاجمة عثمان دقنه ، اذا اقتضى الأمر ،
لفتح الطريق الى بربر » .

وفي ٢٣ مارس جاء رد وزارة الخارجية الانجليزية : « وصلت برقيتكم
المؤرخة ٢٢ الجارى بخصوص اقتراح جراهام الزحف الى ايمانيب ومهاجمة
عثمان دقنه في مقره الحالى .

» ان حكومة صاحب الجلالة تستنكر كل عمل حربى جديد ليس
له هدف معين » .

على أن وزارة الخارجية لاتلبث أن تقول بعد ذلك : « ولكن اذا
كان جراهام يرى أن تأمين طريق بربر يستدعى هذه العملية فالتا تأذن له
بالتقدم لغاية ايمانيب » .

ثم بعد كل هذا الروغان والتردد خشيت وزارة الخارجية مغبة الابهام
السياسى والوقوف بين لا ونعم فكشفت بما تنطوى عليه وقررت ابلاغ
بيرنج ، « رفضها ارسال حملة الانجليزية الى بربر » .

وفي نفس اليوم أرسلت وزارة الخارجية برقية سرية الى بيرنج لتقول
له « ان غردون مطلق الحرية فى البقاء بالخرطوم أو فى الانسحاب عن
طريق الجنوب أو عن أى طريق آخر » .

معنى ذلك أن انجلترا كانت تريد التضحية على طول الخط بغردون
وبربر ودقنلة وكسلا والسودان جميعا وحامياته وآلاف المدنيين والأفقس
وكل مايمكن اتقاذه ، وانها كانت تريد فى نفس الوقت اطلاق العنان
للفوضى والمذابح والنهب والسلب لتفعل فعلها وتأتى على جميع منشآت
الحضارة والعمران التى أقامتها الادارة المصرية منذ عهد محمد على .

وبذلك كانت انجلترا تريد أن توجد فى السودان حالة تسمح لها
بتطبيق النظرية القانونية « الأرض التى لا مالك لها »

لتمهد لنفسها فرصة الاستيلاء عليه من جديد عندما تسمح الظروف وامتلاكه بحق الفتح .

وهذا الغرض المستر الذى تهدف اليه الحكومة الانجليزية منذ تدخلها فى السودان وارغام مصر على استدعاء عبد القادر باشا أو بعبارة أدق منذ تعيين بيكر على رأس حملة خط الاستواء كان لابد من بلوغه باى ثمن ، وهذه السياسة العليا منطقها الوحيد فى وسائلها الجبارة التى تبررها الغاية . وكان بيرنج وأمثاله من الممثلين الانجليز ، كما قلنا ، يعارضون فى هذه السياسة لأن منطق الحوادث كان يهولهم .

وعبثا كتب بيرنج الى حكومته ، بتاريخ ٢٦ مارس يقول ردا على برقية ٢٥ السرية : « تشرفت باستلام برقية أمس .. وانى على كل الأحوال لا أستطيع أن أحاول تبليغ رسالة كهذه قبل أن أعرض الأمر من جديد على سيادتكم . فاسمحوا لى أن أقدم برجاء حكومة صاحب الجلالة أن تضع نفسها مكان القائد غردون والكولونيل ستيوارت . ان هذين الضابطين قد أرسلتهما حكومة صاحب الجلالة للقيام بتنفيذ مهمة من أصعب المهمات وأخطرها . وقد رفضت الحكومة اقتراحهما الخاص بارسال الزبير باشا الى الخرطوم مع أن هذا الاقتراح لو نفذ ، من بضعة أسابيع ، لتغير الموقف كله ولأمكن تمادى نتائجه المتوقعة .

« وفى حالة استلام غردون وستيوارت التعميمات التى تشتمل عليها البرقية المشار اليها آنفا فانهما سيستخلصان منها ، ان الحكومة الانجليزية ستتخلى عنهما وعن معهما ، وانهما لا يجوز أن يفكرا فى وصول مساعدة ما من هذه الحكومة بعد اليوم ...

« والحق يقال انى لأعتقد فى استحالة انجاذ غردون حتى فى الصيف باستعمال الجنود الهندية .. واذا فرض وتعدرت المساعدة فى الوقت الحالى فانى أقترح بالحاح أن يكلف غردون بالاحتفاظ بمركزه فى الخرطوم

في أثناء الصيف وأن ترسل اليه حملة في أول الخريف بحيث تصل النجدة في حينها اذا كان الحصار لا يزال باقيا .. »

ثم يقول بيرنج في الختام : « بما أننا أرسلنا غردون الى الخرطوم يلوح لي أن في عنقنا التزاما أدبيا ، من الناحيتين الالسانية والسياسية ، يقتضى منا عدم التخلي عنه » .

ولكن قضى الأمر ، وظلت فكرة الحملة الشهيرة (حملة بعد الأوان The Too LATE Expedition معلقة بين التردد والاحجام ولم يتقرر أمرها في لندرة الا في آخر أغسطس . أى بعد خمسة أشهر من تاريخ عرض اقتراحها .

وقد كان غردون باهامه على بينة من الأمر يستشف أبعد البواطن في سياسة حكومته . شاهد ذلك برقيته الى بيرنج بتاريخ ٣١ مارس : « أخاف أن تكون الآن موغلا في تضيق وقتك بلا جدوى وأن لا ينتج عملك الا بعد الأوان » .

وفي أثناء ذلك كانت السلطات تكتفى بإبقاء سواكن والساحل تحت حماية السفن الانجليزية بينما في داخل السودان الشرقى ، على أثر السحاب قوات جراهام ، اضطر معظم السكان ، على كره منهم ، الى الانضمام الى العصاة .

وقد كتب الكولونيل تشيرمساید ، في ٩ أبريل ، من سواكن ، يصف الحالة : « ان العصيان الحالي قد أدمج في « اتحاد » جميع القبائل العربية التي كانت بطونها وأفخاذها المتعددة المختلفة يندر في التاريخ أن تتحد وتتألف منها كتلة واحدة الا اذا استثنينا عصور الحركات الدينية القوية . وهي تؤلف مؤقتا شعبا خاضعا منظما رزق شجاعة خارقة مستميتة . ويؤدى عثمان دقنه مهمته كعامل للمهدى دون أن يتقاضى أجرا أو يتلقى أقل مساعدة مادية من مال أو غيره » .

وقد أرسل عثمان دقنه ٤ مدافع الى العرب المحاصرين الذين كان عددهم في ازدياد حول بربر ، في حين أن المدينة كانت لا تملك الا مدفعا واحدا وقوة حربية صغيرة (٢٨١٠ جنود نظاميين وغير نظاميين ضد ٥٠,٠٠٠ مسلحين بالبنادق والحرايب والسيوف) . وعبثا أرسل حسين باشا خليفة المدير النداء بعد النداء طالبا من حكومة القاهرة انجاده من طريق سواكن أو من أصوان حيث وصلت قوات مصرية جديدة (منذ مارس) .

سقطت بربر في ٢٠ مايو ، وقد أعمل العرب حين دخولها القتل في الإهمال والمدافعين على السواء (٢٠٠٠ قتيل) ونهبوها عن آخرها . وكان لهذه الحوادث المتتالية وقع أليم في مصر . وقد أبلغ بيرنج حكومته أن الرأي العام في مصر تأثر . وان احدى الصحف المصرية كتبت تقول :

« ان الصحف الانجليزية حين علمت التخلي عن بربر للعصاة تعلن غير هيابة ان المدن الأخرى ستلقى نفس المصير وشيكا . » وهذا أمر لا نظير له في التاريخ . وان هدف السياسة الانجليزية واضح . لن نخطو خطوة واحدة لا تقاذ السودان ، في الصيف ولا في الشتاء ، أو لا تقاذ غردون .

« وقد نجحت انجلترا بهذه السياسة التي لا ضمير لها في نقض عمل محمد علي وخلفائه في السودان من أساسه (١) » .

وبعد الاستيلاء على بربر قصد الدراويش دقنة حيث صدهم مرارا قائد الحصن مصطفى باشا ياور وأوقع بهم خسائر جسيمة فبقيت الخرطوم وكسلا وسنار ودقنة والقلابات تقاوم في أخرج ساعاتها .

(١) لم نعثر على النص العربي الاصلى .

وأخيرا وصلت الحملة الموعودة (حملة بعد الأوان) مصر في شهر
سبتمبر . ولم تصل حلفا الا في شهر أكتوبر لانتفاذ الخرطوم من طريق
النيل ، ولكن حين وصلت طلائعها بالقرب من الخرطوم كانت المدينة
قد سقطت (٢٦ يناير سنة ١٨٨٥) .

وقد عانت المدينة في أثناء الحصار ضروب البلاء وأصابها في الأشهر
الأخيرة الجوع والقحط وفقد غردون خيرة أعوانه من القواد المصريين
والسودانيين ومن بينهم القائد السوداني محمد علي باشا الذي انتصر مرتين
انتصارا رائعا على الأعداء ولكنهم تمكنوا منه وأخذوا جيشه على غرة
على النيل الأزرق في سبتمبر فمزقوا شمله .

ويستدل من أقوال شهود العيان ان جنود الحامية في الشهر الأخير
أكلوا حير المدينة وان اردب الاذرة كان يباع بألف ريال .

وقد اقتحم الدراويش المدينة في مطلع الفجر وقتلوا كل الرجال
حتى الشيوخ والمرضى وأعملوا النهب والسلب كعادتهم فلم يبقوا على
شيء وباعوا النساء والأطفال بيع العبيد . وذبحوا جميع موظفي الحكومة
وأسرهم وكثيرين من التجار والسكان الآمنين ومعظم جنود الحامية .
ويقدر عدد القتلى في الخرطوم بـ ٢٠,٠٠٠ ، وقد استمرت المذبحة
ست ساعات . ودام النهب والتخريب ثلاثة أيام أصبحت المدينة بعدها
كومة أنقاض . وقتل غردون فيمن قتلوا . . .

وقد اضطرت حملة بعد الأوان أن تعود أدراجها بعد أن بلغت هدفها
الحقيقي : الوصول بعد الأوان . وقد كتب كرومر في هذا الصدد
يقول : « ان سوء التقدير الذي ارتكبه غلادستون وصمة في سمعة
انجلترا وليس في وسع التاريخ المصنف ولا القاضي المتعيز محوه أبد
الدهر » .

وكان غردون يصدق حسه والهامه ومعرفته بيوطن السياسة الانجليزية يتوقع وصول الحملة بعد الأوان اذ كان كتب في يومياته بتاريخ ١٣ أكتوبر سنة ١٨٨٤ : « لقد كتب على الخرطوم أن تؤخذ تحت عين الحملة وأنها في اللحظة التي تصل فيها تماما . ولقد تظن الحملة أن عليها أن تسترد المدينة ، ولكن مثل هذا العمل لن يقدم ولن يؤخر وسيجر الى معركة دامية بلا جدوى : والخير كل الخير في أن تعود أدرابها في أمن وسلام وهي تأكل الخزي وتشربه » .

وقد علق مترجم (يوميات غردون) الى الفرنسية على ذلك بقوله : « يلاحظ أن الحكومة البريطانية قد ضربت بجميع آراء غردون عرض الحائط الا هذا الرأي فقد أخذت به » .

وكان غردون توقع أنه « سيؤخذ في الخرطوم » وقد أخذ فعلا وقتل فحاولت السياسة الانجليزية أن تستغل موته مع أنه من ضحاياها .

ومن العجيب أن الصحافة الانجليزية ، بعد موت غردون ، أصبحت تسمى السودانيين « عصاة » و « متعصين » مع أن الحكومة الانجليزية ، على ملاء البرلمان ، في سنة ١٨٨٤ ، كانت تصرح أن السودانيين يقاتلون في سبيل استقلالهم . . . وهذه الحكومة نفسها ، لم تردد بعد انتصارات جراحهم في التيب وتمأى ، في الاعلان عن أسفها لموت ٥٠٠٠ من الدراويش . . .

على أن سيل الحوادث لم يقف . فقد كتب مدير كسلا ، بتاريخ ١٣ أبريل سنة ١٨٨٥ يقول : « لقد أكلنا كل الخير . ولا يوزع على الجنود الا قليل من الحبوب . ولقد وصلنى كتاب من قومندان سنهيت ينصحنى فيه أن أنجو من المدينة عبر خطوط العدو ولكننى لن أبرح مكانى وسأهمل على العدو » .

وبعد الخير أكل المحاصرون الكلاب . وكان يموت جوعا من جنود

الحامية ، في يولية ، من ٤٠ الى ٥٠ يوما فاضطرت المدينة الى التسليم في يوم ٣٠ . وبعد التسليم جاء الى كسلا عثمان دقنسه وثلاثة أمراء وبسطوا فيها حكم الارهاب . وقد وضعوا البطل الذائد عن المدينة في الحديد ثم قتلوه .

واستولى الدراويش على جميع أملاك الحكومة والتجار والأهالي ، وأخذوا كميات عظيمة من الذهب والفضة ومستودعات ضخمة بلغت حمولة ٦٠٠٠ جل توجهت الى الخرطوم .

وفي ٢٠ أغسطس ، بعد مقاومة بشة طويلة أسلست سنار بدورها ، وعفى المدير والحامية كلها محقا (من ٣٠٠٠ الى ٤٠٠٠ رجل) .

أما دنقلة فان الماجور كنشور كان كتب الى السير وود من المدينة في ٣ أغسطس سنة ١٨٨٤ : « ان الحالة في هذه المديرية أصبحت دقيقة للغاية ، وهى بلد غنى أهل بالسكان والناس فيها باقون على ولائهم ، وقد تطوعت كل قرية بارسال رجال منها للقتال الأخير . وكلامهم يختلف كل الاختلاف عن أنصار المهدي الذين لن يترددوا ، لو أتيح لهم ، في غزو البلاد وتخريبها . وهم لا يظهرون أقل ميل الى المهدي .

» وقد استلم المدير ثلاث مرات الأمر بالانسحاب ولكنه يقول : كيف أترك أولئك القوم الذين أولوني كما أولوا الحكومة المصرية ثقتهم ، ويقول ان دنقلة مفتاح مصر وأن أنصار المهدي متى استولوا على موارد هذه المديرية أمكنهم السبر الى الأمام عن طريق النيل . .

» وبلغ المدير والأهالي في طلب ارسال جند لنجدهم وانى أويد هذا الطلب بكل قواى » .

وفي ٦ أغسطس (سنة ١٨٨٤) كتب الميجرتون ممثل انجلترا في مصر ، الى وزارة الخارجية البريطانية ، يشئ على شجاعة مدير دنقلة ، الذى لا يزال ، رغما من أمر الانسحاب ، يضرب العدو ويخذه ، ومن رأيه

أن بعض القوات المكلفة بالدفاع عن مصر يكون استعمالها أتم وأفضل لو أنها أرسلت صوب الجنوب قليلا ، الى ما وراء الشلالات ، لغرض مد اليد الى غردون ، وتيسير سبيل النجاة له عبر دبة ودقنة .

« ولكن النيل سيكون عاليا بعد زمن وجيز ، والمدة قصيرة محدودة لأمكان ارسال حملة نهريّة . لذلك يتحتم ارسال الحملة في الحال والا كان ارسالها في حكم العدم » .

وقبل سقوط الخرطوم بزمن لم تسعف دقنة بل أخليت بالقوة . وقد كتب المجرتون الى حكومته ، بعد ذلك بعام ، في ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٨٥ يقول : « اننى أتذكر جيدا أن الحملة التي نفذ بها قرار ترك السودان هي التي كانت أصل الرزايا والنكبات القاصمة التي لا عدد لها وان العجلة التي نفذ بها أيضا اخلاء دقنة هي التي تسببت بأعمال التخريب الواسعة بهذه المديرية » .

الفصل العاشر المدينة المصرية

وصف الدكتور آبت باشا رئيس الجمعية الجغرافية بالقاهرة حالة دنقلة ، بعد إعادة فتحها في سنة ١٨٩٧ ، فقال : « ان أراضي دنقلة كانت كثيرة السكان كثيرة الخصب والنماء تحت الحكم المصري قبل غزوة المهدي التي قضت عليها .

» وقد كانت ضماؤها عامرة بالسواقي التي لا سبيل الى الاستغناء عنها وقت هبوط النيل . وكان عددها يبلغ الـ ٨٠٠٠ لم يبق منها اليوم الا حوالي الألف . وتلك نكبة لمنطقة تتوقف حياتها على الماء والري ، أين الآن تلك الزراعات ومحصولاتها الوفيرة ؟ أياها نذهب لا نرى الا آثار الإهمال والهرج . ويحق لنا أن نأمل أن تتمكن الحكومة المصرية من اصلاح هذه البلاد التي دخلت لحسن الحظ من جديد في حوزتها ، ووضعها بآمن من تقلبات الطائفة ، وذلك بعادتها تدريجيا الى حالة الرفاهية واليسر الأولى ^(١) » .

Dr. Abbate Pacha, Aegyptica, 1909, (١)

» في أثناء الخمسة اشهر التي قضتها في مديرية دنقلة ، سنة ١٨٩٧ ، شاهدت في كل مكان أشنع أنواع البؤس والشقاء ، وقد هلك أربعة اخماس السكان ، وبقيت معظم الأراضي مقفرة بلا زرع ، وأهملت النخيل اهمالا جعل محصول البلح لا يكاد يكفي لقوت بقية السكان التي كانت تضطر جاهدة لتعيش . وكانت معظم السواقي قد حرقت أو حطمت واكل الدراويش كل السدواب التي كانت تديرها ولم يكن في البلاد أثر تجارة أو مال . وكان الفتيان قد أهنتهم حروب المهدي والخليفة . وحملت الفتيات الى منازل البقارة حريما لهم .

أما الخرطوم فانها بعد سقوطها وموت المهدي الذي وقع في ٢٣ يونيه سنة ١٨٨٥ أقام الخليفة عبد الله في أم درمان وجعلها مقرا له لأن الخرطوم كان أصابها من التدمير ما جعلها غير صالحة للسكنى .
والمصريون هم الذين أنشأوا الخرطوم وكسلا في السودان النيل وبربرة على خليج عدن وجلديسة في هرر وأدخلوا وسائل العمران الحديثة في حواضر السودان المختلفة .

وقد كانت الخرطوم قبل الفتح المصري قرية للصيادين مكونة من بعض الخيم والعشش المتفرقة ، وفي سنة ١٨٢٣ ، على أثر انشاء معسكر دائم ، حلت التكلات ^(١) محل الخيم وحلت محل العشش المساكن المبنية بالطوب (اللين) المجفف في الشمس ومبان أمتن مخصصة للضباط . ثم

= « وكانت حالة البلاد بين أبو حمد والخرطوم أشد تعاسة . وكنا نرى هنا وهناك الذين اخنى عليهم البؤس ، وخصوصا المسنين والعجائز ، اجتمعوا معا لمحاولة تكوين قرية . والذي حرنا في فهمه وزاد من عجبنا كيف يوم كان أولئك القوم يعيشون ؟ وقد كان النبات المشوك يغطي تقريبا كل الأراضي التي كانت من قبل مزارع زاهية . وكانت مظاهر التخريب والتدمير ماثلة في كل مكان . وقل الانيس فلا ناس ولا دواب . واختفت الكلاب وانقطع كل أثر لها . » مقدمة (Wailis Budge, The Egyptian Sudan)

ويمكن ان نضيف الى ما تقدم ان الخراب عم سكان السودان قاطبة نفتكت بهم الثورة والحروب والأمراض فنقص عددهم من ٨,٥٠٠,٠٠٠ في سنة ١٨٨٢ الى ١,٩٠٠,٠٠٠ في سنة ١٩٠٥ أي بعد ٦ سنوات سلم .

(١) تكل ، بضم التاء والكاف) وجمعها تكلات مساكن من حطب الدرة والهشيم على شكل دائرة ترتفع عن الأرض نحو متر ويعلو هذه الدائرة شكل هرمي بارتفاع مترين تقريبا (انظر غرائب الزمان في فتح السودان لمحمود طلعت طبع سنة ١٣١٤ هـ) .

ويقول هاري جونستون في كتابه عن النيل The Nile Quest ان الخرطوم كانت قرية صيادين مكونة من العشش وان ابراهيم باشا في سنة ١٨٢٣ اختارها كمعسكر يسيطر على النيل الأبيض والنيل الأزرق معا ويسهل الدفاع عنه . ومن ذلك الوقت أخذت تنمو نموا سريعا بفضل موقعها حتى أصبحت حاضرة السودان .

شيد جامع فسوق فمبان أخرى • وفي سنة ١٨٣٠ جعلها خورشيد باشا ،
الحاكم العام للسودان (١٨٢٦ - ١٨٣٩) عاصمة البلاد الرسمية ، وأقام
فيها قصرا للحكومة ومبانى عمومية وحوضين على النيل الأبيض والنيل
الأزرق وحدائق . ولما زار محمد على الخرطوم ، سنة ١٨٣٨ ، كان يوجد
بالخرطوم ثكنات عسكرية ، ومستشفى ، وحوالى ٤٠٠ أو ٥٠٠ بيت •
وقد كان خورشيد باشا أول حاكم حث الأهالى على ترك عششهم
المصنوعة من سيقان النبات وجلود البقر وبناء مساكن بالطوب الأحمر •
على أن معظم هذه المساكن كانت دائما مهددة بالانهيار عند ارتفاع
النيل من تهطل الأمطار وقد مات الدكتور توسكانيلى ، بالخرطوم ،
سنة ١٨٤١ ، تحت أنقاض بيته اذ جرفه فيضان استثنائى •

ويقول الدكتور أبيت باشا أن منازل أكثر مائة ارتفعت وريدا
رويدا هنا وهناك ، وكانت مبانى الحاكم والمديرية وبعض منازل الموظفين
والتجار بالآجر (الطوب المطبوخ) فكانت لها روعة وسط المساكن
المحيطة بها • ثم بنيت ترسانة ، وثكنة ، ومخزن ذخيرة ، وجامعان ودار
للمبشرين وبدىء فى غرس شجر التين والبرتقال والليمون والموز
والنخيل فى الجنات ، وأخذت حدائق الخضارة تنتشر فى وقت معا حول
أجل المبانى وأحقر الأكواخ التى كان يقطنها جنود الحامية • «

وكان بران رولى ، فى سنة ١٨٥٦ ، يقدر عدد سكان الخرطوم من
٤٠ الى ٤٥ ألفا ، وقدرها أبيت ، فى سنة ١٨٨٢ ، من ٥٠ الى ٥٥ ألفا •
والواقع أن الخرطوم قد أصبحت منذ عهد محمد على ، على حد قول
المؤرخ اميل بورجوا ، « رأس جسر المدنية فى أفريقيا » •
وقد نشأت كسلا بجانب القرية القديمة فى هذه الناحية •

وكان يقطن القرية قبيلة الخلائقة التى تدعى أنها هاجرت من سواحل
بلاد العرب الجنوبية منذ سنة قرون ، وقد كان وصول الأسرة المرغية

في سنة ١٨٤٠ سببا في حدوث انقلاب في أحوال البلاد لأن الجنود المصرية ، في هذه السنة عينها ، قد تملك منطقة كسلا وأخضعت قبائل الهدندوة التي لاتهدأ .

وقد ساد الأمن والنظام في ربوع السودان الشرقي كله مما أدهش صمويل بيكر : « ان ضم السودان واخضاع القبائل العربية الكثيرة لنفوذ مصر كانا الخطوة الأولى الضرورية لاصلاح شؤون هذا البلد ، وعلى الرغم من أن المصريين سادة قساة لا يعنيه أن يكفلوا بالرفاهية المقبلة للشعوب المغلوبة (كذا) لا يجب أن ننسى أن جميع القبائل ، قبل الفتح ، كانت في احتراب مستمر . ولم تكن هناك حكومة ولا قانون ، فكانت البلاد من أقصاها الى أقصاها مغلقة في وجوه الأوربيين ^(١) لا يجروا أحد منهم على دخولها واليوم يتجول السائح في أرجاء مصر العليا (السودان) آمنا مطمئنا كما يتجول المتنزه بجبات (هايد بارك) في لندرة . وفي وقت زيارتي لكسلا ، سنة ١٨٦١ ، كانت القبائل العربية متباينة يحكمها رؤساؤها أو مشايخها الذين كانوا مسؤولين أمام السلطات المصرية عن جباية الضرائب المفروضة على رهطهم . ومنذ ذلك العهد وضعت القبائل كلها بجميع أسائها وضروبها تحت سلطة الشيخ الكبير أحمد أبو سن .

« وقد خلقت يد الظلم الحديدية تطورا يثير العجب عند العرب فان نظام الحكم الذي أوجده المصريون قد عجزهم وجعلهم أذلة ^(٢) » . وكانت زراعة القطن في كسلا زاهية بين سنتي ١٨٤٠ و ١٨٧٤ . كتب فليمنج ، سنة ١٩٢٢ يقول « بعد مضي ثلاثين عاما على احتلال كسلا جازت الزراعة مرحلة التجارب وقرر أحمد باشا ممتاز الذي كان

(١) بلغ تعداد الأوربيين في سنة ١٨٨٢ في السودان من ١٠ الى ١٥ ألف نسمة .

(٢) S. Baker, The Nile Tributaries of Abyssinia (٢)

أدخل الصناعة القطنية في طوكر ادخال الخليج « الميكانيكى » في كسلا .
ولا تزال زراعة القطن في السودان الشرقى ، حتى اليوم ، تسمى
بـ « ممتاز » .

« ولغاية العهد الأخير كان سكان كسلا يزرعون هذه الشجرة
العربية التى كانت لا تعرف أثناء نموها باسم « القطن » ولكن باسم
« ممتاز » . ولا يزال الزارع على ضفاف الرهد يزرع « الممتاز » وينسج
منه دمورا جيد النوع .

« وهو الذى أدخل مصنعا للنسيج في كسلا وبني معملا للخلج
القطن . وقد جلب الآلات من مصوع عبر الجبال ، وكان مشروعه قد
أشرف على التمام في سنة ١٨٧٤ .

« فلما سقطت كسلا في يد الدراويش سنة ١٨٨٥ لم تلبث هذه
الآلات التجارية السلمية التى كلف ثقلها فوق الجبال مصاعب ومشاق
لاحد لها أن أصبحت حديدا ضربوه وحولوه الى آلات حرب .^(١) »
وفي تقريره الى ماليت ، المؤرخ ٢٣ يولية سنة ١٨٨٣ ، تكلم ستوارت
عن زيارته لكسلا ومعمل القطن الذى بلغت تكاليفه من ٢٠ الى ٣٠,٠٠٠
من الجنيهات ثم قال : « لقد كان المعمل تاما في كل ناحية منه ذا محركات
قوة ١٠٠ حصان و ٢١ آلة خلج^(٢) » .

وقد احتل المصريون دارفور سنة ١٨٧٤ وشرعوا منذ توطيد
اجتلالهم في أوائل سنة ١٨٧٥ في تنظيم ادارة حكومية في البلاد واصلاح
شؤونها .

كانت مدينة الفاشر عند دخول المصريين مجموعة توكون أو عشش
ببنية بغير نظام حول قصر الأمير على شاطئ البركة التى تتوسط المدينة .
وكانت الحرائق في كل عام تجتاحها . وكانت البركة في كل عام تمتلئ

(١) Sudan Notes and Records, vol V, No. 2, 1922

(٢) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ . مجلد ٣٥٥٦ .

بالماء الذى يفيض من واد فى غرب المدينة وكان الأمير عبد الرحمن بنى سدا لتحويل الماء حتى يمكن تموين السكان به فى الخمسة الأشهر التى تجف فيها البركة وكان يكفى فحر آبار صغيرة فى قاعها لينبع الماء بغزارة .

وسرعان ما شرع (اسماعيل باشا أيوب) فى بناء سور متين حول مقر رئاسة الجيش ثم ابتنى لنفسه شققا مؤلفة من غرف نوم بحمامات الخ واقتدى به الضباط فابتنوا بيوتا متينة ذات نوافذ وأبواب من الخشب . وقامت وراء هذه البيوت مساكن للجنود (قشلاقات) مبنية بالطوب الأخضر ولكن بطريقة محكمة . ثم بنى ديوان المديرية بطريقة هندسية فخمة . وأخذت المدينة رويدا رويدا تتشأ . عندئذ صدر أمر من السلطات المصرية بتحريم بناء عيش من القش مستقبلا . ووضع تصميم عام للمدينة تقرر بمقتضاه أن تلتقى الشوارع الجديدة فى زاوية قائمة وأن لا يقل اتساعها عن عشرين قدما . وقد اقتدى التجار فى الحال بالحكومة وأخذوا فى بناء بيوت جميلة على خط مستقيم بحذاء السوق وشرع محمد بك خير من أهالى الفاشر فى بناء صف من المنازل التجارية بالحجر بدلا من القش ثم أنشأ تجار آخرون من الأغنياء فى بناء صف آخر من العمارات مواز للأول وقد تركوا بينهما قضاء حرا خصص للمحصول الذى يجلبه الفلاحون من حقولهم . وقد وجهت العناية الى زراعة الخضر وكانت جميع فصائل الجنود تزرع الخضر على حافة البركة وتقيم الأسوار حول حدائقها وكان الجنود قبل حلول فصل الأمطار يزرعون الدخن حول المدينة وكان لكل كتيبة مساحة معينة من الأرض لهذه الزراعة . وبمجرد ابتداء مياه البركة فى النفاد يزرعون القمح فى قاع البحيرة . وجملة القول بدأت الفاشر ، تحت تأثير المدنية المصرية ، تبدو فى شكل مدينة جديدة مبنية كلها بالطوب الأحمر (١) .

(١) هذا ملخص مذكرات خطية مأخوذة من تقرير الكولونيل بيردى Purdy وهى موجودة بالجمعية الجغرافية بالقاهرة . (انظر كتاب دوان تاريخ عصر اسماعيل . الجزء الاول من الكتاب الثالث ص ٤٧٠ - ٤٧٤) .

وكل ما عيب على الإدارة المصرية أن بعض الحكام كانوا من المرتشين وان الضرائب كانت مرهقة في جبايتها وتوزيعها ولا شك أنه لا توجد إدارة « بشرية » منزهة عن الأخطاء . وحسب الحكومة المصرية أنها كانت دائما تعمل على اصلاح كل مختل وانها لم تتردد في القاء ممتاز باشا في السجن تحت التحقيق مع أنه كان من كبار الحكام المصلحين .

وكثيرا ما ذكر الانجيز الباشبوزق وقسوتهم في جباية الضرائب ويحسن بنا أن نذكر بهذه المناسبة ما كتبه غردون من الخرطوم بتاريخ ١٤ نوفمبر سنة ١٨٧٨ الى ريفرس ولسن على أثر اطلاعه على تقرير لجنة التحقيق التمهيدى الخاص بالحالة المالية في مصر .

« . . يسرنى أن ألاحظ أن الاختلال الذى تتكلم عنه لم يوجد قط في السودان وان المساوىء القليلة الموجودة قد محوتها كقرض الضرائب على النخل قبل أن يحمل الثمر أو على الأرض التى ابتلعتها الرمال أو جرفها النهر الخ . أما فيما يتعلق بجباية الضرائب فمما لا ريب فيه أن الأهالى دائما هم الفائزون لأنهم قادرون دائما في هذه البلاد الواسعة على القرار من الجباة . وقد زاد متأخر الضرائب وتعاضم . ولا فائدة من تهوين الأمر . فالسكان لا يدفعون الا اذا قسرتهم على ذلك قسرا . وقد استعملت الوسائل اللينة فلم تجدد نفعا (٢) . . »

هذا من ناحية السكان . أما من ناحية الحكومة فانتا نكتفى هنا بنشر الكتاب الآتى (٣) المرسل من الجناب العالى الى حكمدار السودان بتاريخ ٦ رجب سنة ٨١ (نوفمبر ١٨٦٤) :

« ان أحمد أغا من بلوكات المحافظين (بدتقلة) سابقا قد قدم الى ديوان معاونتى عريضة مفادها أنه في سنة ٧٢ قد أنشأ ساقية بالغابة

(١) Rivers Wilson, Chapters From My Official Life, pp. 195-197

(٢) دفتر ٥٢٩ معية تركى مكاتبه رقم ٤ نمرة ١٩٧ (سجلات هابدين)

والتلول الواقعة خارج زمام مديرية دنقلة وأصلح فعلا قسما من تلك التلول وغرس فيها نخيلا وأشجارا من الليمون والسنط وانه يريد انشاء حديقة وسبيل بها . وبما أنه قد فرض مال أميرى على تلك الساقية كما فرض مبلغ ٨٨,٥ قرش سنويا على النخيل قبل طرحها الثمار وذلك فى الاحصاء الذى عمل سنة ٧٨ . وبما أنه لم يسبق فرض أموال أميرية على بعض الحدائق الموجودة فى المديرية قديما وأن السواقي التى فرض عليها الأموال الأميرية واقعة على البحر يلتبس رفع المال عن الساقية والنخيل المذكورة فعليكم باعفائه من الأموال المفروضة على الأشجار التى غرسها والسواقي التى حفرها . وانه لمن البديهي فى حالة اعفاء الحدائق الموجودة بالأراضى السودانية من الأموال سيرغب حينئذ كل شخص فى غرس تلك الأشجار وسيكون سببا فى ازدياد تلك الحدائق يوما فيوما وعمران الأقاليم السودانية والاكثر من اصلاحها ومدنيتها ، وهذه زبدة أفكارى فى ذلك » .

كل ذلك يدل ، على أنه رغما من الأخطاء التى لامناص منها ، خصوصا فى عصر التأسيس الأول ، وهو أخطر عصور الانتقال ، كانت الروح المحركة للإدارة المصرية فى جميع أرجاء الوادى وملحقاته روح اصلاح وتعمير ، وهى أبعد ما تكون من الروح الاستعمارية وأساليبها . ولعل من أهم خصائص الإدارة المصرية — التى تعجز أية إدارة أخرى أن تشاركها فيها — العمل على ترقية اللغة العربية والثقافة العربية والدين والتهوض بالجماعات الاسلامية المتأخرة من هذه السبيل الروحانية الكبرى . وها نحن أولاء نضرب مثلا واحدا :

أرسلت محافظة بربرة الى المعية السنية فى ٦ جمادى الأولى سنة ١٢٩٣ (٣٠ مايو ١٨٧٦) الكتاب الآتى (١) :

(١) دفتر نمرة ٣٧١٤ (سجلات عابدين) .

« بمناسبة تعيين الشيخ محمد بيومى قاضيا فى بربرة واقترح ارجاعه وتعيين قاض من أهل البلاد لمعرفة أحوالها ... يرى رضوان باشا أفضلية بقاءه لجهل قضاة البلاد بالسنة والشريعة ويقول : « ان عقال القبائل والسومال قد تحولت أحوالهم من الأمور المخالفة لسنة نبينا من نحو عقد الأنكحة والطلاق وتهذيب الأخلاق وتأدية الصلوات الخمس ورفع المواد غير اللائقة بالشعائر الدينية .. »

« حاشية - خصوصا وأن السومال ما كانوا يعرفون كيفية تقسيم الموارث من سنوات عديدة وكل من توفى عن ذرية أو زوجة حرّموا الجميع من حقوقهم الارثية وجعلوا الميراث للعم وابن العم ونحوه من أقارب المتوفى ، ولكن مع انتشار الشريعة والشعائر الدينية بهذه الديار صار تقسيم الموارث حسب الجارى شرعا » .

والسومال قبائل متوحشة مسلمة ولو أن الحكم المصرى دام قليلا لظهرت نتائجها كلها من الناحية الدينية الاجتماعية ولتهذبت طباع القوم وحسب مصر أنها نشرت السلم بين قبائل كان شغلها الشاغل الاحتراب والتنازع والغدر وبدأت تحثهم على الاقلاع عن العادات الهمجية القديمة بارشادهم الى حقائق الدين وتعاليمه الصحيحة . وقد قسمت بلاد السومال بعد اخلائها بين الفرنسيين والانجليز والطيالان والأحياش فرجعت الى الهمجية الأولى .

من ذلك نفهم حقيقة ما كتبه الرحالة الألماني « هديراند » فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٧٥ بعد عودة حملة نهر الجب الى الدكتور شفانيفورت رئيس اجمعية الجغرافية المصرية « يلوح لى أن مصر لن توفق الى بسط نفوذها فى أفريقيا الشرقية وهذا أمر يحزن له اذ لا توجد أمة أصلح ، فى اعتقادى ، من مصر لرفع مستوى المدنية فى أفريقيا » .

وقد رفعت مصر فعلا مستوى المدنية بين الجبالا الوثنيين فى هرر

وشجعهم على زراعة الأرض وفلاحتها ورفعت مستوى المدنية بين زنوج السودان الجنوبي وخط الاستواء بما بيناه وسنينه ، وقد شاءت السياسة العاتية التي تسلطت على أفريقيا تبديد معالم هذه المدنية لتحل محلها مدنية أجنبية لا تعيش الا من طريق الاستغلال المادى وقتل الروح والحيوية الكامنة فى نفوس الشعوب واعاقة كل تقدم .

1.
2.
3.
4.

5.
6.
7.
8.
9.

الكتاب الرابع ممالك السودان المتطرفة

(١٨٨١ — ١٨٩٨)

السودان بين الاخلاء والاستعادة

تمهد كانت ممالك السودان المتطرفة : « الاستوائية » أو مديرية خط الاستواء في الجنوب ، ومديرية هرر في شرق الحبشة ، وزيلع وبربرة على خليج عدن وجميع ساحل البحر الأحمر وأهم مينة سواكن ومصوع . أقول كل هذه البلاد النائية التي تحكمها مصر كانت مستعصية على نفوذ المهدي شأنها في ذلك شأن حواضر السودان والأماكن التي تطور فيها السكان في ظل الادارة المصرية .

كان الخديوى عتب رحيل غردون في آخر سنة ١٨٧٩ ، قرر تقسيم الأراضي السودانية الى ثلاثة أقسام وتعيين ثلاثة حكام عموميين للسودان وهرر والساحل . فوقع الاختيار للسودان على اسماعيل باشا أيوب ولكنه اشترط ، نظرا لحالة السودان بعد غردون ، أن يمنح سلطة مطلقة ويأخذ ٥٠٠,٠٠٠ جنيه و ٢٤,٠٠٠ رجل هذا ال ١٥,٠٠٠ الذين كانوا هناك . ولما لم يكن من المستطاع اجابة هذه المطالب بسبب اضطراب الحالة المالية والسياسية عين رؤوف باشا في السودان وعين زكى باشا في هرر (يناير ١٨٨٠) وعلى رضا باشا في الساحل (أبريل ١٨٨٠) . كتب ماليت بهذه المنسبة ، بتاريخ ٢٢ يناير سنة ١٨٨٠ ، الى حكومته

يقول : « لقد رجوت الخديوى ، قبل تعيين أى شخص كان فى منصب الحاكم العام للسودان تعيينا نهائيا أن يعطيه تعليمات بلغة منتهى الشدة والصرامة فيما يتعلق بتجارة الرقيق (١) » .

والغريب أن غردون حين ألغى فى فبراير سنة ٨٤ الاجراءات الخاصة بتجارة الرقيق استعمل نفس ألفاظ ماليت فقال « الشديدة الصرامة » وصفا لهذه الاجراءات التى كانت سببا فى تغير السودان وتحوله عن مصر .

وقد حاربت مصر فى كل عصر هذه التجارة المنكرة التى كانت متأصلة فى طباع السكان وعاداتهم ولكن كان يجب ، كما قلنا ، محاربتها باستعمال الحكمة والكياسة وتجنب أساليب العنف والظفر . قال أبيت باشا : « بعد وصولنا بأيم ، سنة ١٨٥٧ ، صدرت أوامر رسمية مشددة بتحريم هذه التجارة ، فى الخرطوم بوجه خاص ، فهدمت سوق العبد وسورهم وحرر أولئك المساكين الذين كانوا فريسة الجلافة .

» وقد بقيت هذه الأوامر ردحا طويلا من الزمن لا تتبع حرقيا . وبعد سنة ١٨٦٢ فشلت مجهودات بيكر وغردون وأمين وجيسى كلها رغما من تأييد الحكومة المركزية وحسن استعداد الخديوى ونبله . وقد أساءت بعض القبائل تأويل هذه الأوامر والنواهى وساعدت الجلافة وقيلهم فى هذه الأوساط التى كانت المهدية قد تطرقت إليها واستكنت فى مظاويها على انتشار نار الثورة التى أصبحت من الآن فصاعدا غازية جارة ، دافعة متدفعة (٢) » .

وبالرغم من السياسة التى جرت عليها الحكومة الانجليزية منذ احتلال البلاد فى سنة ١٨٨٢ وتشجيع الثورة بطريق غير مباشر حتى انتظمت معظم الأصقاع وانتشر الحراب من الجنوب الى الشمال ومن الغرب الى

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٧٨ مجلد ٣١٤

(٢) Dr. Abbate Pacha, Aegyptica Le Caire, 1892

الشرق فان ممالك السودان المتطرفة التي بقى العنصر المصرى مهيمنا على ادارتها بقيت على ولائها لم تحوّلها عنه تلك الاجراءات « الصارمة الشديدة » ولم تستطع المهديّة من ناحية أخرى اجتذابها أو التوغل فيها ، ولكن انجلترا لم تشأ أن تترك هذه البلاد الهادئة الموالية المستعصية على الثورة وشأنها وحتمت أن يشملها قرار الاخلاء قوة واقتدارا لتحقيق أغراضها في السودان وملحقاته جميعاً .

الفصل الحادى عشر

ساحل السومال وهرر

فى سنة ١٨٨٠ كانت فرانسوا وانجلترا مهيمتين على مصر ماليا وسياسيا وكان المراقب المالى الانجليزى اوكلاندى كولفن يفكر فى ذلك العهد على ارغام مصر على التخلي عن قسم من مديرياتها المتطرفة المتاخمة للحبشة بحجة النفقات الباهظة التى تتكلفها .

وقد كتب ، فى ٨ ديسمبر سنة ١٨٨٠ ، مالىت الى حكومته ، بهذه المناسبة يقول : « قد أفهم تماما أن يقلق مستر كولفن بسبب النفقات التى تبهظ موارد مصر ، ولكن من المشكوك فيه جدا أن يكون سحب السلطات المصرية من هرر ومن بعض الأراضى الكائنة فى جنوب مصوع والسودان علاجا للموقف . والثابت الذى لا ريب فيه أن الأحباش سيتقدمون فى أعقاب انسحاب المصريين ويتبعونهم ويصير للبلادين من جديد حدود مشتركة . أما بخصوص امكان تخلى مصر عن زيلع وتاجورة وبربرة وبلهار فانى أعتقد أن عملا كهذا يتنافى مع مصالح حكومة صاحب الجلالة لأن هذه المين اذا قدر لها أن تقع فى يد الأحباش أو قبائل محلية فمن أين يتأتى لها حكومة مناسبة . واذا قدر لها ، من ناحية أخرى أن تحتكمها الطليان أو الفرنسيون ، وهذا أقرب الى الاحتمال ، فقدت نقطة عدن هيمنتها ^(١) » .

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٧٨ مجلد ٢١٩٢

والواقع أنه منذ تدهور أحوال مصر الاقتصادية والسياسية اتجهت أطماع الحبشة وفرنسا وإيطاليا وإنجلترا إلى الممتلكات المصرية ، وقد جاء في مذكرة لوزارة الخارجية الإنجليزية ، تاريخها أغسطس سنة ١٨٧٩ ، أن القائم بأعمال السفارة الألمانية في لندرة البارون فون دن برنكن كان أرسل إلى اللورد سالسبرى كتابا جاء فيه :

« أن أراضي الساحل التي كانت من قبل تحت السيادة التركية قد حصلت عليها الآن الحكومة المصرية مقابل تضحيات جسيمة ، وهي في الوقت الحالي جزء لا يتجزأ من الأراضي المصرية ، باعتراف الباب العالي ، وتشرف عليها إدارة بالمعنى الصحيح ^(١) » .

على أن إنجلترا ، وإن كانت تطمع في هذه المناطق ، كثرت في ذلك الوقت الاكتفاء باقصاء الدول المنافسة باستمساكها باحترام القانون العام والمعاهدات .

لذلك كتب وزير الخارجية الإنجليزية إلى ماليت ، بتاريخ ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨٠ ، بالاشارة إلى اقتراح كولفن السابق الذكر الخاص بإخلاء المناطق المصرية : « أن خطة كهذه تناقض على طول الخط نصوص اتفاقية ساحل السومال التي توليها حكومة صاحب الجلالة أكبر قسط من عنايتها واهتمامها لأن مصالح هذا البلد مرتبطة ، إلى حد كبير ، بالمحافظة على حقوق مصر في جميع المناطق المعترف بها حاليا في هذه الاتفاقية وفي فرمان سنة ١٨٦٦ وفرمان سنة ١٨٧٣ . ومهما كان من الأمر فإن حكومة صاحب الجلالة مقتنعة أن التخلي عن هذه المناطق قد يوقع مصر في ارتباكات أفدح بكثير من النفقات التي يشكو منها مستر كولفن ^(٢) » . وكانت إنجلترا بالطبع لا تغفل لحظة عن مراقبة السودان وأصقاعه

(١) سجلات وزارة الخارجية الإنجليزية رقم ٧٨ مجلد ٣٣٦٥
(٢) سجلات وزارة الخارجية الإنجليزية ، رقم ٧٨ مجلد ٣١٩٢

المتطرفة فعينت ، في أول مارس سنة ١٨٨١ ، عاملها هنتر قنصلا لساحل
السومال من تاجورة الى راس حافون . وفي شهر نوفمبر من السنة
نفسها ، زار القبطان سيلي المقيم المساعد في عدن ، زيلع والساحل وبعث
بتقارير مختلفة الى حكومته .

ومن جهة أخرى فان ملكولم العامل القديم المكلف بالغاء تجارة الرقيق
في البحر الأحمر والذي اضطر الى الاستقالة بسبب اعتراض غردون
والحكومة على اجراءاته الشديدة المرهقة ، كان معتكفا في مدينة بادن
بالنمسا وكان يرسل من هناك تقارير شتى الى اللورد نورثبروك .

وفي أحد هذه التقارير المؤرخ ٨ نوفمبر سنة ١٨٨١ ، أظهر ملكولم
خوفه من أطماع فرنسا التي كانت تفكر ، بعد تونس ، في بناء امبراطورية
لها في أفريقيا . وكان يرى أن أفضل وسيلة للحيلولة بين هذه الدولة
وبين سبق إنجلترا الى تحقيق ما تريها هي أن تحرص الحكومة الانجليزية
كل الحرص على أن لا تدع لها سبيلا تنفرع بها للتدخل في أملاك مصر
وذلك بأن تخفف من وطأة الاجراءات المتخذة ضد تجارة الرقيق فتبقى
بذلك كل سبب للتذمر والثورة .

وقد قال ذلك في غير موارد بعد أن أشار الى خطر التدخل الأجنبي
أو بعبارة أدق الى «عدم الخطر» بالنسبة لزعجبار من ناحية اجراءات
الرقيق ، نظرا لأن ذلك البلد كان موضوعا تحت حماية بريطانيا العظمى :
«أما مصر فان حالتها تختلف تماما (عن حالة زنجبار) لأن السودان في
الوقت الراهن غير موال لمصر اطلاقا ويكفى أقل سبب لقيامه في ثورة
عامة . والحبشة معادية .

«وانى وان كنت أرغب ، لو قدرت ، في سحق تجارة الرقيق كل
مسحق ، الا أنى أرى أنه يجب علينا أن لا ننسى أن هذه مسألة معضلة
وأنه يجب أن نتحامى تعريض مصر الى أية صعوبة من الصعوبات التي

ذكرناها وذلك بارغامها في الوقت الحالي ، مع علمنا بحالة الرأي العام في مديرياتها ، على اتخاذ اجراءات شديدة أكثر من اللازم Too decided بل بالعكس يجب علينا أن نكتفي باجراءاتنا نحن ، الناجمة الرادعة ، في البحر ، وأن نبذل أقصى جهدنا ، بواسطة وكالات قنصلياتنا ووكالات الدول الصديقة لتحسين مركز مصر الأدبي والتجاري ، وأن نعمل المستحيل لاصلاح ذات البين بين مصر والحبشة (١) » .

ولكن هذه الصيحة الكاشفة جاءت متأخرة لأن انجلترا ستعرف كيف تستفيد من الثورة في مصر لتحتلها وفي السودان لترغم مصر على اخلائه كما أنها ستعرف في الوقت نفسه ببراعتها ودهائها كيف تتخلص من الدول المنافسة لها . فلم تكن انجلترا اذن بحاجة الى مصانعة مصر ومداراتها قبل الثورة ، ومن باب أولى بعدها ، فما كادت تستقر قدمها في مصر حتى أخذت تمي ارادتها املاء (برقية غرانفيل في ٦ يناير سنة ٨٤ واستقالة شريف) بخصوص السودان . ثم لما رأت أن الثورة التي تتدفع بها لم تنفذ الى ممالك السودان المنطرفة ، أي الى ملحقاته ، كما كانت تتوقع ، وذلك بسبب بقاء الادارة مصرية بهذه البلاد منفصلة عن سلطة حاكم السودان لجأت الى القوة لتنفيذ سياسة الاخلاء لعام دون تمييز .

وقد خاطب ايجرتون ، في ٢ يونية سنة ١٨٨٤ ، نوبار باشا في موضوع اخلاء هرر وساحل السومال فاعترض نوبار . وكان بعض الممثلين الانجليز يؤيدون سياسة عدم الاخلاء لعجزهم عن دراك كنه تلك السياسة التي لا قلب لها ، المرسومة في وزارة الخارجية البريطانية ، والكشف عن أغوارها وأغراضها البعيدة .

(١) هذه التقارير المطبوعة مكتوب في أعلاها « سرى » وهي موجودة في المجلد ١٢ من القسم الخاص بمطالب مصر Claims To Sovereignty (سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٧٨) .

كتب هنتر من عدن في مذكرة ، مؤرخة ٥ يولية سنة ٨٤ ، معترضا على كل اخلاء لا روية فيه ، وامتدح ادارة المصريين في بربرة «والأعمال العمومية الجليلة التي تجدد فيها أية ادارة مصدر فخر لها» . وفي ٢٩ يولية قررت وزارة الخارجية الانجليزية « الاخلاء في أول فرصة » . وفي ٢١ يولية كتب ايجرتون يقول ان نوبار ، بعد استشارة الخديوى ، أعطى الأوامر اللازمة لتسليم بربرة الى القنصل هنتر «أما فيما يتعلق باخلاء هرر فانه لا يميل بتاتا الى اتخاذ أى اجراء فعلى في الوقت الحالى . ثم لما قلت له ان الحاميات تكلف مصر مالا بطريق مباشر أو غير مباشر أجاب أن الخديوى يؤثر الاحتفاظ بهرر لأنه يعلم تماما أنها لا تكلف مصر شيئا وأنها تكفى نفسها» .

وقد بلغ دخل هرر في سنة ١٨٨٣ مقدار ٧٥٠٠٠ جنيه والنفقات ٦٠٠٠٠ بزيادة ١٥٠٠٠ جنيه .

وكان السكان في بربرة ، رغما من دسائس هنتر وتوزيع الذهب بين العقال أو رؤساء القبائل المجاورة ، يرسلون الى الحكومة المصرية عرائض لبحلوها على عدم التخلي عنهم . وقد جاء في احداها : «منذ ١٥ عاما يتمتع سكان بربرة بالتبعية لحكومة خديوى مصر التي تحو عليهم وترفق بهم ، وهم لا يريدون بهذه الحكومة بديلا . وقد بعث الماجور هنتر ، سرا وبغير علمهم ، ترجائنا الى العقال الذين ذهبوا للمفاوضة والتعاقد معه بغير توكيل .

«اتنا مسلمون ولا ندين بالطاعة الا لمسلمين مثلنا» . وفي ٩ أغسطس

صرح نوبار أن دخول الجنود الانجليزية في زيلع قد يجر الى مصاعب مع الباب العالي وأن مصر تدفع سنويا الى تركيا ، ١٥٠٠٠ جنيه جزية ، نظير امتلاك هذا الميناء . وفيما يتعلق ببربرة كان يرى أن نفقات الاخلاء والتعويض عن الأشغال العمومية والمباني التي شيدتها مصر يجب أن تدفعها سلطات عدن .

وفي ١١ أغسطس أصدرت وزارة الخارجية الانجليزية الأمر الى الحكومة المصرية «بأن تساعد دون ريث ولا إبطاء على إخلاء ههرر ومين ساحل السومال . وفي ١٢ صدع نوبار بالأمر وفي ٢٥ أغسطس قررت الحكومة الانجليزية أن تكون نفقات الإخلاء على عاتق الحكومة المصرية وأن ينظر فيما بعد في مسألة التعويض عن المبانى العمومية وخلافها .

وقد وقعت أوامر الإخلاء على المصريين فى ههرر وقع الصاعقة، وكان لابد من ترحيل ١٤٥٠٠ مصرى من مدنيين وعسكريين بأسرهم . وقد كتب حاكم ههرر فى ١٩ شوال سنة ١٣٠١ (١١ أغسطس) يقول : « . . على أن جميع الضباط والموظفين والعساكر أصبحوا بلا مال لأنهم أتفقوا كل ذخريهم فى بناء المساكن بناء على أوامر الحكومة التى كانت تريد أن تجعل منهم قدوة للسكان الآخرين وتبعث المناقشة بينهم^(١) » . وجاء فى عريضة أرسلها الى رئيس الوزارة المصرية ٥٣ من الأعيان والتجار الوطنيين والأوربيين بمدينة ههرر ، فى ١٠ أغسطس : «من خمسين سنة خلت كانت هذه المملكة ميدانا للبربرية يحكمها ملوك صغار ، وكان اهرق الدماء وأعمال السلب والنهب قائمة على قدم وساق .

«وقد هيمنت الحكومة المصرية على هذه البلاد ، قبل تسعة أعوام ، فوطدت النظام والأمن وجعلت من مدينة ههرر مركزا من أهم مراكز التجارة . فاذا كان قرار الحكومة لامرد له لم يكن لنا بد من الهجرة مع الجنود وترك أملاكنا للنهب . . »

ولم تخف دقة الموقف واختلاطه على هنتر سيما وأن الحكومة الانجليزية كان قر رأيها على احتلال الساحل بمجرد إخلائه أما ههرر فكان قرارها

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ مجلد ٣٧٢٧

لا يعدو الاخلاء ، الاخلاء الذي ينطوى على أفدح المواقف لمصر
وللمديرية .

واذا كان اخلاء الساحل قد يبرره في منطق السياسة الانجليزية رغبة
انجلترا في احتلاله مع ما في ذلك من اهدار حقوق مصر ، واذا كان
اخلاء السودان وما صحبه من تخريب شامل وقتل الملايين من الأنفس
وتغليب الطمعية على المدنية قد تبرره الى حد ما هذه الرغبة نفسها فان
اخلاء هرر الامنة المطننة الزاهية الزاهرة في ظل المصريين لا يجد ما يبرره
الا شهوة التخريب المجرد وتمزيق مصر كل ممزق واذلالها .

كتب هنتر من عدد الى ايجرتون ، بتاريخ ٣ سبتمبر سنة ١٨٨٤ ،
يقول : « اني أعترف أن فكرة الاخلاء ثقيلة على النفوس لأن تنفيذها
يستدعي خسارة جسيمة في السمعة والأموال وتنتجته التخلي عن كل
ما تحصل وتجمع بشئ غال من التضحيات العظيمة والنفقات
الباهظة ^(١) » .

وفي ٤ سبتمبر اقترح هنتر اعادة استقلال المدينة تحت حكم ابن الأمير
السابق والاعتراف بالسيادة الانجليزية بواسطة قبائل السومال والجالا
في الطرق بين الداخل والساحل .

وقد استولى الانجليز على زيلع في ٢٤ أغسطس وأصبحت ادارة
ساحل السومال جميعه تابعة للحكومة الهندية .

وكان هنتر يفكر من ذلك الوقت في نشر المسيحية في اقليم هرر
فكتب ، في ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٨٤ ، يقول : « لا يجب الاعتقاد أن الجالا
الذين لا يدينون بالاسلام مسيحيون . انهم لا يزالون وثنيين لأن
الدعوة للصليب لم تنشر بينهم . »

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية ، رقم ٧٨ مجلد ٣٧٢٧

« ومن المهم أن يلاحظ أن أولئك الذين يسمون « مسلمي
الباشوات » : أي الجالا الذين اعتنقوا الاسلام منذ وصول الباشوات
المصريين ، ليسوا متعصبين أو متعبدين . ومهما كان من الأمر فانهم
ليسوا مستغلين أمام النفوذ المسيحي . وقد حاز القيس كاهان
Cahagne كل ثقتهم بطريقة فاهرة ملموسة ، وهو من أصدقائي الذين
يعول عليهم وولي حميم^(١) . »

وتفسيرا لما تقدم يجب أن نذكر أن امتداد النفوذ المصري كان مطردا
من سنة إلى أخرى . ولم تكن سيادة الخديوى معترفا بها ، في بدء
الاحتلال ، إلا على ساحل السومال وفي حدود امارة هرر التي هي ،
كما بينها رؤوف باش . جلدية من ناحية الساحل ، ونهر الواش في
الشمال الغربي ، و قبيلة أوجادين في الجنوب الشرقي ، ومنطقة الأروسي
في الجنوب^(٢) . ثم أخذت مصر تسيطر على البلاد الواقعة وراء هذه
الحدود الضيقة ، حتى بلغ عدد القبائل الخاضعة لها ، في سنة ١٨٨٣ ،
رقما ضخما : مليوناً ونصف مليون من النفوس^(٣) اعتنق قسم كبير منها ،
من بين الجالا الوثنيين ، الاسلام .

وكان الأب كاهان قسيس الجالا قام في سنة ١٨٨١ برحلة حول هرر
وشاهد في مختلف البقاع مزارع جميلة من شجر البن والموز « لم يعض على
وجودها إلا سنوات قليلة » .

وقد تكلم ذلك المبشر عن انتشار النفوذ المصري بين الجالا فقال :
« قبل الاحتلال المصري كانت قبائل الجالا ، التي لا تعترف لأمر هرر

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ مجلد ٣٧٢٨

(٢) سجلات عابدين . تقرير من رؤوف باشا بتاريخ ٢ ربيع الثاني
سنة ١٢٩٣ هـ (٢٧ أبريل سنة ١٨٧٦) .

(٣) سجلات عابدين . تقرير من محمد نادى باشا بتاريخ ٤ أبريل

سنة ١٨٨٣

الا بسلطة اسية ، تحكم نفسها بحسب تقاليد السلف ، تلك التقاليد التي اعترافا بعض التحوير والتبديل في الأصقاع التي نفذ منها الاسلام ، وكان لكل بطن من قبيلة ، كالتونو عند الآلا ، وال معين بمقتضى نظام وسط بين الوراثة والانتخاب ، يدينون له بالطاعة ثمانية أعوام ، اسمه البوكو ..

« يأتي من بعده ، وللمدة عينا ، الدورى ، وهو محدود السلطة جدا ، ثم من بعده ، الرابا ، يقوم ببعض الشؤون القليلة الأهمية . وقد اجتهد المصريون في محو كل هذه التقاليد القومية ليطبعوهم بطابعهم ويدمجوهم في جنسهم ، فاخترقوا البوكو عند القبائل الخاضعة وانتزعت منه كل سلطة وأصبح فقيرا ذليلا . وعين مكانه موظف ، ينتسب في معظم الأحيان الى هرر ، يقوم بجباية الضرائب ، وتوزيع العدالة في صورة من الصور . وحل الجراد محل الدورى ، وهو غالبا من أصحاب الأملاك الكبيرة السابقين .. وشارة منصبه العمامة . ومن هنا كان يقال : لف الباشا العمامة حول رأسه (ساباتا مارى) ونزع منه اللعانة (ساباتا ليقة) بمعنى قلد الجراد الوظيفة أو عزله (١) . »

على أن المبشر كاهان لم ترقه الناحية الدينية من التوسع المصرى فقال فى ختام مقاله : « ولاشك أن احلال عادات أجنبية محل عادات قومية (كذا) بطريق العنف هو الذى يحول دون تقدم السيطرة المصرية . »

ويلاحظ أن المصريين كانوا يحلون تعاليم الدين الاسلامى محل الوثنية وقد أشار المبشر فى بداية مقاله الى هذه التعاليم : « رحلنا فى يوم ٢٥ أكتوبر ، فى ساعة مبكرة ، فكنا نسمع صفار الأطفال فى هذه الساعة يتلون القرآن . وقد انتشر هذا التعليم فى ضواحي هرر وكان المصريون يعملون على تعميمه فى البلاد على الرغم من نفور الجالامته . »

والواقع أن الجالا ما كانوا يأثرون من هذه التعاليم وكان إقبالهم على الاسلام ، الذي كان يسن على تلك القبائل المتوحشة سننا من التأديب العالي ، يزداد كل يوم بدرجة أقلقت الانجليز ، وقد كتب هنتر المكلف بالاشراف على اخلاء هذه المناطق ، من عدن بتاريخ ١٥ أبريل سنة ١٨٨٤ ، ما نصه : « لو استمر النظام الحالي بضع سنوات أخرى لانضوت القبائل كلها تقريبا تحت راية الاسلام ^(١) » .

ولا يفوتنا أن نقول بهذه المناسبة ان مصر اذ كانت تنشر الحنيفة السمحاء بين أولئك الوثنيين ما كانت تفكر مطلقا في منع المسيحية من نشر تعاليمها العالية بين الجالا والقبائل الأخرى . وبالعكس من ذلك كان تسامحها الديني وتقاليدها الانسانية تدفعها الى حماية المبشرين ومساعدتهم على التوطد وتأدية مهمتهم على أحسن وجه في الامبراطورية السودانية . وشاهد ذلك ما كتبه جيرائيل سيمون في كتابه عن زيارته ، في سنة ١٨٨١ ، لقرية كرن المصرية بمديرية بوغوص المجاورة للحبشة : « هناك كان يقيم المبشرون اللازاريون وكان المشرف عليهم وقتئذ كبير القساوسة توفيه : وقد ائتمروا مساكن رافهة ، وكانت لهم في الضواحي أملاك يستغلونها . وكانت لهم كنيسة فخمة مبنية بالحجر شيدها لهم الحكومة المصرية على نفقتها . وهم يعلمون الصبيان الكثيرين الفرنسية والحرف المختلفة على أن شغلهم الشاغل الحقيقي كان التنصير الذي هو مهمتهم الأساسية ، وكان عملهم في هذه الناحية يمتد الى ما وراء الحدود المصرية ^(٢) » .

وقد اعترف القسيس كاهان نفسه في مقاله بمجلة البعثات الكاثوليكية (يولية سنة ١٨٨١) ان الخديوى أوصى السلطات المصرية في زيلع

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٧٨ مجلد ٢٧٢٥ .
مذكرة من هنتر الى بيرنج مؤرخة عدن في ١٥ أبريل سنة ١٨٨٤

(٢) G. Simon, Voyage en Abyssinie

وهرر بتقديم كل مساعدة له ، وقد أنشئت أول نقطة لتصدير السومال في بربرة في مارس سنة ١٨٨١ ، وقد أحسن وفادته هناك الحاكم المصرى وأرسل ابنه الى « البعثة » ليتعلم الفرنسية وتبعه آخرون .. ومن هناك ذهب كاهان الى زيلع وهرر في قلب بلاد الجالا فقدمت له السلطات المصرية المسلمة كل معونة وأمدته بجند مسلحين لحماية بعثات المبشرين من اعتداء الجالا والدناكل وغيرهم .

والذى كانت تعترض عليه مصر ولا تتغاضى عنه هو تنصير المسلمين بين القبائل الخاضعة لها — وهذا حق لها — خصوصا وان غرض الجمعيات التبشيرية الأوروبية المختلفة كان السعى ، تحت ستار الدين ، في تحقيق فكرة سياسية وهى نشر نفوذ الدول التى تنتمى اليها تمهيدا لتدخلها ، ولطالما طغت الفكرة السياسية على الفكرة الدينية وأدت الى حروب وحشية وفظائع — كما حدث بين المبشرين الفرنسيين والمبشرين الانجليز في أوغندا مما سببته فيما بعد .

ويمكن القول أن نفوذ مصر الدينى في أفريقيا قد أوجد لها مناطق نفوذ بعيدة خارج حدود سيادتها الثابتة . كتب القائد بلير ، المقيم السياسى في عدن ، في ٢٤ ديسمبر (٨٤) ، ردا على خطاب طلب فيه بيرنج معلومات بخصوص الراية المصرية التى كانت لاتزال مرفوعة في زاس حافون على المحيط الهندى :

« ... أرى لزاما على أن أقول ان سلطة حكومة الخديوى لم تقرر قط ولم يعترف بها بالطبع ، فيما وراء بضعة أميال من شرقى بربرة . » ولكن يجب أن نذكر في الوقت نفسه أن السومال والدناكل والعرب في خليج عدن ، سواء أكانوا مستقلين أو تحت الحماية الانكليزية أو الفرنسية أو الايطالية ، يرفعون على سفنهم ، وكثيرا ما تبدو على منازلهم أو قبورهم ، راية لايشك الناظر في أنها تركية أو مصرية .

« وكثيرا ما أدى هذا العمل ، حتى وقت الحالى ، الى خلق عوامل سوء تفاهم كثيرة ، ونحن شارعون فى اتخاذ الاجراءات اللازمة لتصحيح الموقف فيما يتعلق بالقبائل الموضوعة تحت الحماية البريطانية (١) » .

وقد انتشرت مظاهر القوضى فى هرر فى أثناء اخلائها الذى دام من نوفمبر سنة ١٨٨٤ لغاية يولية سنة ١٨٨٥ ومنذ اعادة سلطة أمرائها الأقدمين . كتب كنج من زيلم ، فى سبتمبر سنة ١٨٨٥ ، يقول : « ان الملك منليك ، باغراء الفرنسيين ، كان على وشك مهاجمة هرر ، وان حياة الأوروبيين مهددة كل يوم وكل ساعة ، وان جميع الجبال وقبائل أخرى أصبحوا يتجنبون هرر مفضلين المرور من طريق جلدية وذلك بسبب الأموال الفادحة التى يأخذها منهم الأمير (٢) » .

وكتب كبير قساوسة هرر كاهن ، من ناحيته ، الى هنتر ، بتاريخ ٢٣ فبراير سنة ١٨٨٥ : « يظهر ان الآمال التى علقناها ، نحن الأوروبيين ، على التدخل الانجليزى ، لن تتحقق ... »

« ونظرا لسوابق أمراء هرر لا مناص من النص على وجوب تمتع المسيحيين بحرية السكن آمنين بين حيطان المدينة ، دون أى اطلاق لهم .. »
« وانى أسمح لنفسى بأن أعرض عليكم شكوى النائب الدينى فى زيلم . بعد أن كنا نتمتع بامتيازات جركية واسعة تحت الحكم المصرى أصبحنا الآن ، نحن والناس سواء ، وانى لا أشكو من ذلك ولكن يظهر أن تقدير ما نستورده قد زاد عن الحد (٣) » .

وفى أبريل تأهب التجار الأوروبيون للرحيل مع الفوج الأخير من الجنود المصرية .

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ . مجلد ٢٨٥٧

(٢) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ . مجلد ٣٨٦٠

(٣) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ . مجلد ٣٨٥٩

وفي يونيو (٨٥) تم الاخلاء وترك هـرر ليستبد بها أمراؤها
وخلفاؤهم الأحابش الذين غزوها بعد سنتين (٨٧) .

وقد أرسل : في ٢٠ يناير سنة ١٨٨٧ ، منليك « ملك شوا وجميع
الجالا » الى القائد الانجليزى فى عدن ، خطابا كاشفا ، هذا نصه :
« كيف حالكم ؟ اننى بحمد الله فى حالة جيدة . ان الأمير عبد الله كان
لا يطبق مسيحيا فى مملكته .

» انه جران آخر . ولكننى ، بعون الله ، قد هزمته ورفعت رايتى فى
عاصمته ..

« ان هـرر ليست بلادا اسلامية كما يعلم الجميع . » ١

وكان ملك الحبشة ، حوالى سنة ١٨٨٠ ، عمد من ١٠ الى ٢٠,٠٠٠
مسلم فى الممالك المصاوبة للبحر الأحمر بحجة أن أولئك المسلمين من سلالة
مسيحيين كان أحد القاتحين المسلمين عمدهم بالقوة (١) .

وفى مذكرة عن الحالة فى هـرر ، من عدن فى ٤ يناير سنة ١٨٨٨ ، أى
بعد سنة من احتلال الحبشة ، شك المقيم من أن الراس بكوفان ، حاكم
مديرية هـرر ، أغار فى العهد الأخير على قبيلة جيسى السومالية فى شرق
هـرر وحمل عددا كبيرا من النساء والأطفال والحيوانات .

وقد زار يوليوس بوريللى مؤلف كتاب (الحبشة الجنوبية) هـرر
فى مايو سنة ١٨٨٧ ، ورأيه حجة ، قال :

« ان احتلال الحبشة سيكون ، فى الزمن الأول على الأقل ، ضربة
قاصمة لهـرر . وكان الملك أقام معسكره بالقرب من المدينة . وبعد
رحيله هجرت الخيام وطرد العزاة قسما من الأهالى . ولم يتمكن بعض

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ . مجلد ٣١٤١ .
القاهرة فى ٢٠ فبراير سنة ١٨٨٠ .

السكان الهائمين على وجوههم من حمل بعض الأمتعة التي لا غناء عنها .
وقد استولى الغزاة على كل المؤن المخزونة ...

« وهرر خاضعة اليوم لنظام إدارى يطابق النظام الذى يزدهر في
شوا .

« وفي الأحوال الراهنة من المحتمل حدوث مجاعة . لأن تموين ،
الأذرة وشيك النفاد ، والتبذير مستمر ، والتوزيع لا ضابط له .
وفوق ذلك ينهب الأحباش كل ما لم ينتهبوه في الأيام الأولى من الغزو .
« ويبيع الجنود كل ما لا يستطيعون استهلاكه في سبيل الحصول
على المال .

« وقد اضطرب نظام التعامل وأخذ عدد التجار يتضاءل ..

« وعلى الرغم من أن الضرائب قد جبيت في القرى المجاورة فإن
الأحباش كانوا يغزون كل يوم . والماشية في نقصان . والأثمان في
ارتفاع .

وقد حدث أن قبيلتين كانتا دفعتا الضرائب المطلوبة . وبعد أيام
قصدتهما الجند واستولوا قسرا على النساء والأطفال والقطعان » .

وقد زارت بعثة بونشان Bonchamps اقليم هرر سنة ١٨٩٧ وكتب
أحد أعضائها شارل ميشيل كتابا عنوائه (صوب فاشودة من طريق
أثيوبيا) جاء فيه : « وقد أمضت مصر مع النجاشى يوحنا — يونية
سنة ١٨٨٤ — معاهدة ردت بمقتضاها اليه بلاد بوغوص ، ثم تنازلت له
عن هرر (كدا) بعد أن وضعت على العرش ابن الأمير السابق عبد الله .

« عندئذ عادت القوضى الى البلاد وعاد معها نظام الانقلابات وضياع
الامن الذى عانت منه المدينة كل بلاء قبل مجيء المصريين .. وكانت
سنوات الاحتلال الأولى أبعد ماتكون من السعادة والرفه .. وقد

ملرد جنود الأحباش وهم آلاف سكان المدينة من منازلهم وأقاموا فيها
وخرّبوا كل ما وجدوه حولهم ونهبوا مخزون القمح وبضائع التجارة ،
وتقرر التعامل بالعملة النحاسية القديمة فأغلقت أسواق المدينة وهرب
التجار والتجارة الى الريف القصى .

« وكان نصيب الزراع البؤساء نصيب غيرهم من الظلم والاستبداد .
وقد أخذت قطعان بحالها من أصحابها ووقع الفلاحون الجالا في أشد
حالات الضنك والمحنة .

« وكانت نتيجة هذه السياسة العاشمة الخراب العام في مديرية هرر ،
وفي المدينة . يضاف الى ذلك أن الأمراض المعدية والديزنتاريا
والجدري الخ قد آتت فعل البؤس واجتاحت الأهالي التمساء » .

ثم قال بعد ذلك : « وأكبر رجائنا أن يحدث تبديل في الادارة لأنها
بنظامها الحالي لا تساعد على ترقية التجارة واعلاء شأنها » .

وقد كانت مناطق الجالا في هرر من أغنى البقاع بزراعتها وان ما حاق
بهرر والجالا في عهد منليك الأول حاق بمناطق الجالا الغنية وهضابها في
جنوب الحبشة في عهد منليك الثاني الذي تمكّن من اخضاع ممالكهم في مدة
خمس أعوام . وما قهرهم الا بفضل الأسلحة النارية التي كانت أوروبا
تبيعها للحبشة . قال ميشيل وقد زار بلاد الجالا التي فتحتها الأحباش
في نفس السنة التي زار فيها هرر (١٨٩٧) :

« يظهر اليوم أن اخضاع الجالا أصبح تاما بعد حرب دامية لارحة
فيها . كانت مجزرة قتل فيها ثلاثة أرباع السكان الذكور ، وسبي فيها
عدد كبير من النساء والأطفال وأحرقت مساكن وقرى بأكملها وأصبح
مكانها بلقا .. وقد أبلغني أحد رؤساء الأحباش أنه اذا لم تجتج العارة
الأولى البلاد اجتياحا ثار السكان ولم يكن بد من ارسال حملة جديدة
كبيرة .

« وللجبال مزايا كبيرة فهم قوم جد وعمل ومهارة يحبون الاستيطان وعدم التنقل ، وفي مقدورهم أن يستغلوا أرضهم لو تركوا وشأنهم ولكن سيطرة الأحباش كانت فكبة عليهم ^(١) » .

* * *

أما بربرة فقد عين والش أحد المقيمين المساعدين في عدن ، منذ

Mission de Bonchamps Vers Fachoda a la Rencontre de la Mission (١)

Marchand à Travers l'Ethiopie, par Charles Michel, Second de la Mission

الواقع ان السومال والدناكل والجالا المحيطين بالحشة الذين ضمهم منليك الثاني الى الحشة بالقوة ليسوا احباشا. واذ كان يوليوس بوريللى الفرنسى يرى «أن احتلال الحشة لهرر» في الزمن الاول على الاقل ، سيكون ضربة قاصمة» فان هذه البلاد الاسلامية بوجه خاص منذ احتلالها الى اليوم تئن تحت نير الاستعباد وتحن الى عصر المصريين الذهبي. وقد نشرت جريدة (الاساس) بتاريخ ٢٩ أغسطس سنة ١٩٤٨ تحت عنوان : (وفد مسلمي الحشة عند فضيلة الاستاذ الاكبر) مقالا جاء فيه : «استقبل فضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الازهر في مكتبه امس وفدا من مسلمي الحشة يتألف من حضرات السادة محمد عبد السلام ويونس يوسف ومحمد أحمد يوسف وعبد الرحمن عبد الله ، وهم من أهالي مقاطعة «هرر» وقد تحدثوا الى فضيله في بعض شؤون المسلمين بالحشة وخاصة في مقاطعة «هرر» وقدموا اليه مذكرة بحالتهم الدينية والثقافية في تلك البلاد .

وقد تحدث أعضاء الوفد بعد خروجهم من لدن الشيخ الاكبر الى مندوب الاساس فذكروا له انهم كانوا في المملكة العربية السعودية وتحدثوا الى سمو الأمير فيصل آل سعود عن احوال المسلمين بالحشة وانه اعطاهم كتاب توصية لسعادة أمين الجامعة العربية ثم امر ان توضع تحت تصرفهم طائرة خاصة هي التي حملتهم الى القاهرة .

وقال حصراتهم لمندوبنا انهم ياملون خيرا في رحلتهم هذه من جراء ابعالهم بزعباء العالم الاسلامى .

باسم مسلمي الحشة

وقد تقدم الوفد بمذكرة الى الاستاذ الاكبر فوعدهم خيرا ومما ورد فيها باسم مسلمي الحشة عامة ومقاطعة هرر خاصة يتقدم الوفد الى العالم العربى والاسلامى بشكواه من الوضع القائم لحكومة الحشة وما يلاقيه مسلموها حيث يعامل الشعب الحبشى معاملة ذات وجهين . —

أكتوبر سنة ١٨٨٤ ، مشرفا على ادارة المدينة بلقب ووظيفة نائب
قنصل .

وكانت مصر تطالب بأن تدفع على الأقل تكاليف المنارة التي شيدها
بأهلها وكذلك ثمن المستودعات والمنشآت المختلفة التي وضع الانجليز يدهم
عليها . وقد استشار اللورد كبرلي ، بهذا الخصوص ، حكومة الهند ،

بعض ظلاماتهم

وتتلخص شكاوهم من عدم المساواة وأنه لا يوجد في مقاطعة هرو موظف
واحد من المسلمين مع أن الهريين في غاية الرقي منذ ٣٠٠ سنة وبفضل
ما تقفوه من المصريين ترقوا أكثر وأن الحكومة الحبشية تنفق على التعليم
١٢ مليوناً لا يخص المسلمين منها أى شيء لأى مدرس ونسبة تلاميذ
المسلمين نصف في المائة ولا يرسل مسلم واحد الى البعثات ولا تعان مدارس
المسلمين الأهلية .

وميزانية الحكومة حوالى ٤٠ مليوناً لا يخص الضعفاء منها شيء ويمنع
المسلمون من التحاكم أمام القاضى الا فى النكاح والمواريث كما يمنعون من
ادخال اللغة العربية فى المحاكم الشرعية .

ثم تضمنت المذكورة شكايات تتعلق بالمساجد والشعائر واللغة العربية
والكتب الدينية ومنع الحجاج مع أن الحبشة فيها دينان منتشران هما
الاسلام والدين الارثوذكسى وتطرفوا الى شكاياتهم من مصادرة الحريات
وأن البرلمان الحبشى فيه ٤٧ عضواً من بينهم ٧ للمسلمين وقالوا أن
الضرائب باهظة والمعاملة هناك دكتاتورية قاسية .

استفتاء شعبى

وجاء فى نهاية المذكورة أنهم يربعون فى أن يجرى استفتاء شعبى لنوع
الحكومة ويرجون الانفصال عن الحبشة لانهم دولة دام سلطانها ٥٠٠ سنة
ولا يزالون مختلفين عن الحبشة فى اللغة والدين والأخلاق .

هذا وقد وعدهم الأستاذ الأكبر بأن يعمل جهده فى مساعدتهم على
ضوء ما يصل اليه من معلومات .

وقال أحدهم : ليس صحيحاً ما صرح به الوزير المفوض للحبشة
من أن معاملتهم حسنة وأن المسلمين هناك يتمتعون بالمساواة .

ونشرت جريدة (البلاغ) فى عدد ٧ سبتمبر سنة ١٩٤٨ تحت عنوان
المسلمون فى هرو يعرضون شكاوهم من الحكومة الحبشية (ما يأتى :
« جاءنا وفد من مسلمى هرو وقدموا لنا شكوى طويلة ختموها
بما يأتى :

لقد تقدم المسلمون الى الحكومة الحبشية عدة مرات بمطالبهم فكان
مصيرهم التشريد والتعذيب .

في يونية سنة ١٨٨٥ ، فكان جوابها (يناير سنة ٨٦) انه لا حاجة بها الى استعمال المنارة في البحر الأحمر وانه يجب وضعها تحت تصرف الحكومة المصرية . وفيما يتعلق بالمستودعات كان رأيها أن تتولى حكومة الهند دفع ثمنها من دخلها بشرط أن يقوم الدليل على أن لها قيمة .

== ولما لم يجد المسلمون من وسائل السلم والتفاهم ما يحقق بعض مطالبهم العادلة ومعاملتهم بالمساواة مع مواطنيهم كإبناء بد واحد حاولوا الدفاع عن حقوقهم المدنية والسياسية امام اللجنة الدولية التي ذهبت الى الصومال لتحقيق امر المستعمرات الإيطالية السابقة فذهب وفد منهم الى مقديشو عاصمة الصومال وكان يمثل جميع المقاطعات التي تسكنها الاكثرية المسلمة فكان نتيجة ذلك العمل أن ازداد اضطهاد الحكومة الحبشية للمسلمين في الحبشة وأرسلت جنودها الحربيين المسلحين بالبنادق والمدافع الرشاشة الى ديار المسلمين عامة فأخذ الجنود ينهبون أموالهم ويأخذون كل ما يجدونه من امتعة وحلى النساء ثم يشيعون الرجال بالصرب ويسوقونهم الى السجن .

وقد قامت مظاهرة في مدينة هرر يطالب فيها المتظاهرون بالانفصال عن الحبشة والانضمام الى الصومال الكبرى عندما يقرر ذلك فاعتقلت الحكومة الحبشية زعماء الحركة تحت ستار التفاهم معهم ونقلتهم الى جهة مجهولة كما ذهب ضحية هذه الحركة عدد كبير من المسلمين واعتقل نحو ثلاثة آلاف تجرى الآن محاكمتهم في أديس أبابا ويلاقون الكثير من التعذيب والتنكيل كما نفت الحكومة نحو خمسمائة من أبناء هرر الى جهة غير معلومة وقطعت المواصلات بين الجهات التي تسكنها الأغلبية المسلمة كهرر وهاروسة وولوا .

ونحن مسلمي هرر قد خبرنا الحكومة الحبشية ولاقينا على أيديها أسوأ ما عرفه البشرية من صنوف التعذيب والتنكيل والظلم والاضطهاد، وحاولنا أن نصل معها بطريق التفاهم السلمى الى حقوقنا فكان جزاؤنا النفي والتشريد ، لم نجد أمانا - بعد هذا كله - الا أن نتقدم الى العالم العربى والاسلامى خاصة والانسانية عامة بشكوانا هذه راجين الانصاف في قضيتنا العادلة ، وذلك لا يكون الا بأن تفصل عن الحكومة الحبشية ونظم الى الصومال الكبرى عندما يقرر ذلك ان شاء الله .

وغير حاف أننا كنا دولة دام سلطانها خمسمائة سنة تقريبا والتاريخ شاهد على ذلك وقد كنا ولا نزال مخلفين عن الشعب الحبشى عامة في اللغة ، والدين والأدب والأخلاق والعادات ، هذا كله علاوة على سوء معاملة الحكومة الحبشية التي أوضحناها في هذه المذكرة .

وإذا لم تقرر الصومال الكبرى نرجو مساعدتنا في الانفصال عن الحبشة لنكون تحت رعاية هيئة الأمم المتحدة على أن يجرى استفتاء شعبى بشأن الدولة التي تتولى الاشراف علينا .

وبذلك أرغمت مصر في هرج عى دفع تقاقطه الاخلاء واضطر الجنود والموظفون المصريون الجائدون الى بيع بيوتهم ومتاعهم بالمزاد . وفي بربرة أصبحت المدينة الجديدة التي بناها المصريون - وهى المسماة «بالشعب» بـ بيتا كان السومال لا يزالون يعيشون في أكواخهم على أرض واطة بجوارها - وأصبحت المنارة والأرصعة ومجارى الماء الحديثة ، والمستشفى وجميع المباني الحكومية الفخمة شيئا لا يذكر بعد أن تمسكها الانجليز .

وكان أمر زيلع عجبا فى تصرفات السياسة الانجليزية وغرائبها . اذ بالرغم من امتلاك انجلترا المدينة منذ سنة ١٨٨٤ فان الحكومة المصرية «فلت تدفع مرتب نائب القنصل الانجليزى وثقاته وثقات الادارة فى بلد أخلى رسميا واحتلته عسكريا جنود صاحب الجلالة (١)» .

وقلت الحكومة المصرية أيضا تدفع للباب العالى مبلغ (١٥٠٠٠ جنيه) مقدار الجزية السنوية عن زيلع المحتلة . وقد قرر مؤتمر لوزان أن تستمر مصر فى دفع أتاوة هذه البلاد التى أخذت منها الى سنة ١٩٥٥ !

وأعجب من هذا أن الحكومة الانجليزية حين طأبتها مصر بأن تقوم هى بدفع الجزية عن بلد استولت عليه كان ردها : «اذا نرى أن مصر ليس لها أن تشكو منا . نحن لسنا مسؤولين عن صفقة سنة ٧٥ الخاسرة . لأن زيلع لا تعطى ثقاتها» .

وأعجب من هذا وذاك أن انجلترا فى أثناء احتلال زيلع أرادت أن تعطى نفسها تجاه الباب العالى بستر من سيادة مصر الشككية وأن تلتفت فى الوقت نفسه بخدمات مصر فبقيت الجنود السودانية المصرية تحتل المدينة لحساب انجلترا لغاية يولية سنة ١٨٨٧ . ولم يستغن عنها الا عقب مطالبة الجنود فى الشهر السابق (يونية) بأن تغير وتصرف لها ملابس .

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ . مجلد ٣٨٦٢ . القاهرة فى ١٢ ديسمبر سنة ١٨٨٣ .

ومع ذلك فإن الانجليز استبقوا عددا من الجنود ورجال الشرطة المصريين لغاية ٥ أكتوبر سنة ١٨٨٨ وهو التاريخ الذى أنزلت فيه الراية المصرية التى كانت لا تزال تحفّق على المدينة .

أما ما حدث بعد الاحتلال المصرى فى البلاد المختلفة فأمره معلوم . فقد تحولت مناطق النفوذ المصرية على ساحل السومال الى «السومال الانجليزى» و «السومال الايطالى» و «السومال الفرنسى» وظلت شعوب هذه الجهات فى حالة تأخر شديد بسبب حرمانهم من المدنية المصرية العربية التى ترفع مستواهم وتلائم طباعهم .

وقد ثار السومال على السيطرة الانجليزية منذ تنظيم الحماية فى سنة ١٨٩٨ . ودوخ السيد محمد عبد الله الشهير (بالملّة المجنون) حملات انجليزية عديدة وانتصر عليهم فى حروب شعواء طاحنة حتى سنة ١٩١٠ . وكان هذا الزعيم السومالى نشأ وترعرع فى بربرة فى عهد المصريين الذين ساعدوا على وجود فكرة « الجنس » و « القومية » .

الفصل الثاني عشر

ساحل البحر الأحمر

كانت إنجلترا ، منذ عهد محمد علي ، تنظر بقلق الى امتداد السيطرة المصرية على سواحل البحر الأحمر التي يقطعها شعوب عربية مسلمة . وقد كتب وزير خارجية بريطانيا ، في ٦ ديسمبر سنة ١٨٤٧ ، الى اللورد كولي : « وصلني كتابك المؤرخ في ٣ نوفمبر وكذلك ترجمة الخطاب الذي يطالب محمد علي فيه حق الاشراف على ميناءى سواكن ومصوع :

« انه على الرغم من موافقة الباب العالي يعتبر هذا العمل من محمد علي اعتداء على الحبشة وهي بلد تحاول بريطانيا العظمى الآن أن ترتبط معه بعلاقات تجارية (١) » .

وفي ١٠ ديسمبر سنة ١٨٤٨ كتب القنصل بلاودر الى بالمرستون يقول بما أن الحبشة المسيحية مستقلة استقلالاً كاملاً فانه يقترح ضرورة وضع سكان مصوع تحت الحماية الانجليزية .

ولكن بالمرستون عارض في الفكرة خوفا من اثاره المشاكل وقد حصل اسماعيل ، في مايو سنة ١٨٦٥ ، على فرمان من الباب العالي بالتنازل له عن ميناءى سواكن ومصوع مع مديرية التاكة .

وقد تمكن اسماعيل . بين سنتي ١٨٦٥ و ١٨٧٤ من أن يحتل احتلالاً

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ مجلد ٣١٨٥ .

فعليا أهم النقط الواقعة على ساحل البحر الأحمر الغربى ، من سواكن الى رأس
حافون على المحيط الهندى ، وإيجاد ادارة منتظمة فيها . وكانت السفن
المصرية الحربية تراقب الساحل باستمرار مما أزعج سلطات عدن وجعلها
تشكو من « وجود أسطول مصرى ضخم فى خليج عدن » .

ومعلوم أن الدول بعد شق القناة مباشرة . وبالأخص فرنسا
وايطاليا — كانت تتنافس فى وضع قدمها على الساحل والإيفال منه الى
داخل أفريقيا .

وكان ممتاز بك وقتئذ محافظا لسواكن فعينه اسماعيل محافظا للبحر
الأحمر وأصبح ممتاز باشا (١٨٧٠) . وقد قام فى سنة ١٨٧١ برحلة
فى جميع مناطق البحر الأحمر وذكر البلاد التى كانت تظللها الراية المصرية
فذكر ييلول (شمال عصب) ورهيفة فى جنوبها وعدن على الساحل
وزولا وأمفيل بالقرب من مصوع . وكل هذه البلاد ستصبح فيما بعد
جزءا من أريتريا .

ولا بأس من الآن أن نذكر حدود أريتريا : تبتدىء شمالا من رأس
قصار فى جنوب سواكن . وتمتد جنوبا الى حنة رهيفة عند بوغاز باب
المتدب وغربا الى سبدرات قرب كسلا . وهى أعرض نقطة اتساع فى
أريتريا اذ تبلغ حوالى الئمائة كيلو متر .

وقد كانت الراية المصرية تخفق فى معظم البلاد والمناطق التى تتألف
منها أريتريا . وكانت أول نقطة استولى عليها الطليان فى منطقة أريتريا
حوالى خليج عصب وذلك فى سنة ١٨٧٠ اذ بدأت الشركة الايطالية
(روباطينو) تشتري من الشيخ شحيم زعيم قبائل الدناقل والشيخ
برهان شيخ رهيفة الذى كانوا يسمونه سلطانا قطعا من الأرض ،
وكان الشيخ برهان هذا يتقاضى مرتبا ثابتا من الحكومة المصرية حتى
احتضنه الطليان وقد احتج اسماعيل وطمع فى صحة العقود التى يتصرف

بمقتضاها مشايخ غير مسؤولين في حقوق مصر وتركيا وكان شيخ رهيفة باع الى الانجليز جزر موسى (سنة ١٨٤٠) كما باع الى الفرنسيين أوبوك سنة ١٨٦٢ فطلب اسماعيل سنة ٧٣ من الانجليز أن يردوا هذه الجزر حتى يقتدى بهم الطليان ولما أخذ رأى السير هنرى اليوت سفير انجلترا في تركيا قال انه يؤيد فكرة اعتراف الحكومة الانجليزية بحق مصر وتركيا على جميع الساحل الغربى للبحر الأحمر وخليج عدن باعتبار ذلك أفضل الوسائل لوضع حد لتجارة الرقيق والحيولة دون وقوع نكبات من الساحل في قبضة دول أخرى ووافق أيضا على أن تنازل الحكومة الانجليزية عن جزائر موسى التى لم تحتلها قط .

وقد عارضت حكومة الهند في اخلاء الجزر ولكن المبادئ الأساسية التى استند اليها اليوت في رأيه كانت أساس اتفاقية سنة ١٨٧٧ التى اعترفت فيها انجلترا بسيادة مصر على الساحل لغاية رأس حافون على المحيط الهندى .

وكانت انجلترا تعارض دائما في اعتداء ايطاليا على حقوق مصر في البحر الأحمر ، وكانت ايطاليا توغل في الساحل من ناحية عصب رغما من احتجاجات مصر المتكررة على ذلك التوسع التجارى المزعوم . وقد كتب اللورد سالسبرى وزير الخارجية الانجليزية في يناير سنة ٧٩ يقول : « لو كان هذا التوسع تجاريا بحثا لنظرت اليه بعين العطف ، ولكن نريد أن نتأكد أنه خلو من كل غرض سياسى لأن البحر الأحمر وترنا الحساس » .

وفي نفس السنة (١٨٧٩) كان غردون اقترح ضم زولا ، وهى ميناء صغير بالقرب من مصوع ، الى الطليان فعارضت الحكومة الانجليزية أشد اعتراض . وكتب وزير الخارجية سالسبرى الى السبر باجيت في ٧ فبراير سنة ١٨٨٠ يبدى وجهة نظره في مشروعية احتلال الطليان خليج عصب قال :

« أيا كانت الأعمال (يريد الاعتداءات) التي تجري الآن أو فيما بعد في الأراضي المصرية من السويس الى رأس جردفون وأيا كانت الادعاءات التي يتقدم بها الغير فمما لا ريب فيه أن حكومة صاحب الجلالة ليس في مقدورها أن تسلك سبيلا آخر سوى الاستمرار في احترام ما تعتقده : أعني سيادة الساحل الشرعية ، هذه السيادة التي أصبحت في رأى الحكومة الانجليزية تتمثل غير مدافع في خديوى مصر الذى يحكمها بتقتضى فرمان من سلطان تركيا . وكل ادعاء أن سيادة كهذه ثابتة شكلا وموضوعا يمكن ابطالها أو تعطيلها بواسطة شيخ من المشايخ المحليين من شأنه خلق مبدأ خطير في نتائج العامة ، مبدأ لا يسع حكومة صاحب الجلالة ان تسلم به بطريقة سليمة لا غبار عليها ^(١) » .

ولكن في سنة ١٨٨١ بدأت المجترة تغير سياستها نحو ايطاليا والسر في ذلك تكشف عنه مذكرة في سجلات وزارة الخارجية الانجليزية كتبت في سبتمبر تقول « ان الفرنسيين يبذلون أقصى الجهد لاجراج مصر من قبضة المجترة » .

من ذلك التاريخ أخذت المجترة تصانع ايطاليا على حساب مصر وتتخذ منها كما كانوا يقولون « كلب الجاني » أى الكلب الذى يحرس لسيده أملاكه حتى تحين الفرصة الملائمة ليرد الحارس ما يملك اسم . ومن ذلك الحين ، أى ابتداء من سنة ١٨٨١ أخذت ايطاليا تجري على سياسة القوة و « التوسع المسلح » .

بدأ الطليان باحتلال رهيطه في جنوب خليج عصب باعتبارها تابعة للمستعمرة عصب وفي أغسطس سنة ٨١ طلبت الحكومة المصرية الى الحكومة الانجليزية ارسال مدرعة حربية الى رهيطه لأن سفينة حربية ايطالية منعت انزال جنود مصرية جديدة الى البر هناك .

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٧٨ مجلد ٢٢٦٥ .

وقد بلغ الأمر بالطليان أن سفير إيطاليا في لندن ذهب الى وزير الخارجية الانجليزية في ٣ سبتمبر سنة ١٨٨١ وأبلغه أن المصريين يريدون احداث الشغب في ناحية عصب . وقد أشار في حديثه الى أن مركز الطليان في خليج عصب يرتكز من جهة الحق على نفس الأسس التي يرتكز عليها مركز الانجليز في عدن (١) .

وقد حولت عصب في يونيه سنة ٨٢ الى مستعمرة ايطالية وقدم بذلك قانون الى مجلس النواب الايطالى . وفى يناير سنة ١٨٨٥ احتل الطليان بيلول في شمال خليج عصب وطرّدوا الحامية المصرية منها بعد أن جردوها من السلاح ، وفى شهر فبراير بالاتفاق مع انجلترا قررت إيطاليا احتلال مصوع بعد بيلول وبسط حمايتها على الساحل من عصب الى مصوع وكان ذلك مبدأ تأسيس أريتريا .

وقد جاء فى وثائق وزارة الخارجية الانجليزية أنه فى فبراير سنة ٨٥ أعلن وزير خارجية روسيا الى سفير انجلترا فى بطرسبرج « بأنه لم يكن هناك أى أساس أو ذريعة تحول إيطاليا الحق فى الاستيلاء على بيلول أو مصوع لا سيما وان كلا البلدين كانت تحتله حامية مصرية ، ولاشك فى أن عمل إيطاليا مخالفة صريحة لروح المعاهدات القائمة (٢) » .

وفى شهر ديسمبر سنة ١٨٨٥ دخل الطليان مصوع وطرّدوا الحامية المصرية واستولوا على المستودعات ومخازن الذخيرة وجميع أملاك الحكومة المصرية ، حتى الخزانة .

ولما طالبت مصر إيطاليا بتعويضات كان مسلك إيطاليا شبيها بمسلك انجلترا فرفضت أن تدفع شيئاً . وأكثر من ذلك : كانت مصر تدفع للباب العالى ، نظير التنازل عن مصوع ، ١٧٠٠٠ جنيه جزية سنوية . وقد

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ مجلد ٢٣٦٥ .
٣ سبتمبر سنة ١٨٨١ .

(٢) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٧٨ مجلد ٣٨٦٠ .

استمرت مصر في اداء هذا المبلغ رغما من احتلال المدينة بواسطة
الطليان ...

وقد قرر مؤتمر لوزان ، كما قلنا ، أن تستمر مصر في دفع أتاوتها
المقررة لزيلع ومصوع لغاية سنة ١٩٥٥ !

وكانت إنجلترا من ناحيتها ، منذ سنة ١٨٨٤ ، تحتل ميناء سواكن
التي كانت تطمع في أخذه ، وتعين حكاما انجليز « لساحل البحر الأحمر » .

وقد حاول بيرنج أن يجس نبض نوبار بخصوص سواكن ، وكتب
بهذا الصدد في ٣ أبريل سنة ١٨٨٧ : « انه (نوبار) يفكر من الآن
في الخطوة التي تعود فيها من جديد مديريات السودان المجاورة الى
خطيرة السيادة المصرية ، لا بطريق القتح ثافية ولكن بطريق العلاقات
التجارية ، وكان يرى أن دقلة وسواكن هما النقطتان اللتان يمكن منهما
السيطرة على السودان » .

ولتصريح نوبار أهمية كبرى في ذلك الظرف لأن شركة انجليزية
تجارية على غرار شركة الهند الشرقية كانت تعمل وقتئذ على الحصول
من الحكومة على امتيازات تخول لها الحق في انشاء مركز لها في سواكن ،
لنوغل منها في السودان ايعالا تجاريا يساعد على السلم .

وتحقيقا لهذا المشروع التجاري السياسى كتب القنصل كامرون ،
بتاريخ أول أبريل سنة ١٨٨٧ ، كتابا يقترح فيه لأجل التمهيد للسلم
في السودان الشرقى أولا ، أن يسحب من سواكن جميع الموظفين غير
الانجليز (سوريون وفلاحون ومصريون) واحلال موظفين انجليز
مدنيين برياسة كتشتر مكانهم ثانيا ، فتح البلاد للتجارة .

ولكن مشروع الشركة التجارية فشل بسبب اعتراض الحكومة
المصرية .

وفي أثناء ذلك كانت إيطاليا تبسط سلطانها في داخل السودان الشرقي
وتتقدم نحو كسلا التي كانت هدفها ..

فزعج بيرنج من هذا التقدم وكتب الى حكومته ، بتاريخ ١٥ ديسمبر
سنة ١٨٨٩ يقول « انكم أبرقتم الى في ١١ الحارى بأن الحكومة الايطالية
تريد الاتصال بزعماء كسلا .

» وفي برقيتكم بتاريخ ١٣ ، تقولون : « ان السياسة التي تعمل على
ابقاء قوم آخرين خارج بلاد متوحشة ليس في مقدورنا نحن أن نحتلها ،
سياسة لا يمكن متابعتها أو الدفاع عنها » .

« انى أعترف كل الاعتراف بقوة هذه الملاحظة . ولكننى في الوقت
نفسه أجرؤ على اقامة الدليل على أن حالة السودان لا تطابق تماما حالة
بلاد أخرى متوحشة لا نحتلها أو لم نحتلها قط دولة ما متمدينة أو شبه
متمدينة . ولا شك من الناحية القانونية ، وان لم يكن من ناحية الواقع ،
في أن السودان جزء من الأراضي العثمانية . وان الخديوى يدفع جزية الى
الباب العالى من أجل السودان ..

» ومن الظلم البين أن تستمر الحكومة المصرية في دفع جزية من أجل
مصوع ، وهذا الظلم يتضاعف أضعافا اذا وضع الطليان أقدامهم في بلد
تأمل الحكومة المصرية بحق أن تستعيده في يوم من الأيام ..

» من الواضح أن الطليان يريدون امتلاك كسلا ليتمكنوا من
التوسع نحو الغرب والانتقاض اذا ساعدت الحوادث على وادى النيل
في الخرطوم أو في نقطة ما بالقرب من الخرطوم .

« وانى لأجرؤ على الزعم ان الحرص على المصالح المصرية يحتم اتقاء
نكبة كهذه واننا لانبالغ اذا قلنا ان توطد دولة متمدينة في وادى النيل
يصير طامة لمصر .. »

وبعد أن أشار بيرنج الى الخطر ، الذى يهدد النيل من ناحية الدراویش ، فى رأى البعض ، قال : « ان القبائل المتوحشة التى تسيطر الآن على السودان لا تملك الوسائل الضرورية أو المهارة الفنية للاحاق أذية حقيقية بمصر . ولكن الحالة تختلف كل الاختلاف فيما اذا توطدت دولة أوربية متمدينة فى وادى النيل ، لأن دولة كهذه ، كما قال كولین مونكریف « تضع مصر فى قبضة يدها » وتستطيع انقاص مؤنة مصر من الماء حتى تحول الى جرداء لا زرع فيها ولا ضرع .

« وأيا كانت الدولة التى تحتل أعلى النيل فإن هذه الدولة بفضل مركزها الجغرافى ، تهيمن على مصر .

« وفى نظر أوربا ، وفى نظر الشعب المصرى ، واستطيع أن أضيف ، وفى نظر الكثيرين من الانجليز ، الحكومة الانجليزية معتبرة مسؤولة عن فقد السودان (١) » .

وأخيرا تقرر بمقتضى اتفاق مبرم فى ١٥ أبريل سنة ١٨٩١ ، بين ايطاليا وانجلترا جعل الحد الشمالى لمستعمرة اريتريا الجديدة يبتدىء من راس قصار على ساحل البحر الأحمر ، على أن يسير من هناك فى اتجاه جنوب بغرب نحو العطبرة مارا فى شرقى كسلا ، وقد أضيفت مادة فيما بعد تسمح للطلبان بأخذ كسلا اذا استطاعوا ، ومعها جزء صغير من الأراضى المصرية بشرط أن يردوها الى مصر عند الطلب .

وقد ظلت ايطاليا تحتل اريتريا لغاية الحرب الكبرى الثانية (٢) .

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ مجلد ٢٤٣ .

(٢) لا بأس هنا ان نذكر بهذه المناسبة ان كاتب هذه السطور نشر فى جريدة المصرى بتاريخ ١٤ مارس سنة ١٩٤٨ مقالا تحت عنوان (هل لنا سياسة افريقية !) جاء فيه :

ان سكان مناطق البحر الأحمر واكثرهم من العرب يتطعمون الى مصر وياملون من مصر أن تعمل على الأقل على نشر ثقافتها فى هذه البلاد . وهانذا أضع تحت انظار القراء الوثيقة الآتية :

= الجالية العربية في اريتريا . المكتب الرئيسى باسمره .

شارع بادوليو نمرة ١١١ .

اسمره في ٢٦ جمادى الاولى ١٣٦٦ الموافق ١٨ ابريل سنة ١٩٤٧ ،

حضرة صاحب الدولة محمود فهمى النقراشى باشا - رئيس مجلس

الوزراء - القاهرة .

تشرف بأن تقدم الى دولتكم اصدق التحيات والتمنيات واكمل
الاحترام متقدما الى دولتكم باجمل التهاني بما تم من جلاء الاحتلال
عن القاهرة والاسكندرية في عهد دولتكم الزاهر آملين من عونه تعالى ان
تقدم الى دولتكم قريبا التهئة الكاملة بالجلاء التام عن وادى النيل وتحقيق
كامل الامانى الوطنية داخلها وخارجها داعين لدولتكم بالصحة والعمر
الطويل .

يا صاحب الدولة :

أن رجاء الامم العربية في معقد آمالها صاحب الجلالة الفاروق وفي
حكومته السنية كبير جدا وفي اريتريا جالية عربية نامية زاهرة تشارك
الامم العربية الأخرى في هذا الرجاء متطلعة اليكم في ان تأخذوا بيدها وان
تحققوا مطالبها التى نشرقت بأن كست عنها الى وزارتى الخارجية والمعارف
والمفوضية الملكية المصرية باديس ابابا ، وحين زار البلاد الايتيرية الأستاذ
عبد الله حسين في عودته من اديس ابابا انهزت الطبقات المختلفة هذه
الزيارة فاقامت لحضرته الحفلات العديدة منوهة برعاية مصر للعالم العربى
والاسلامى والتعلق بصاحب الجلالة مولانا المعظم فاروق الاول ، وباسطة
المطالب السياسية والاجتماعية .

أما السياسية فتتلخص فى رجاء العرب الايتيريين في أن يسمع صوت
مصر مجلجلا في كل مؤتمر دولي أو لجنة دولية تعهد اليها في ألبت في مصير
اريتريا السياسى ولعلنا في غنى عن التحدث عن علاقات مصر ومصالحها
التاريخية فيها ونحن واثقون أنه لن يفوتكم أن تعدوا الشعب الايتيرى
والعربى جزءا من وادى النيل ولسنا الآن في صدد تفصيل هذه المسائل
الدقيقة فدولتكم أعرف بذلك .

أما مطالبنا الاجتماعية فتتلخص في أن تقوم مصر بتوثيق علاقاتها بهذه
البلاد بالوسائل التى تراها وحسبنا أن نذكر هنا من ذلك المبادرة الى
ارسال ستة مدرسين مصريين على نفقة الحكومة المصرية ان امكن للتدريس
بمدرسى الجالية العربية باسمره ومصوع وبعثة ازهرية للوعظ والارشاد
والاشراف على المعاهد الدينية والمساجد الايتيرية واهداء كتب علمية
للمدارس والاندية العربية .

ونحن مستعدون لاستقبال المندوب الذى قد تعهدون اليه بدراسة
هذه المسائل وتسهيل مهمة هؤلاء المدرسين من ناحية المساكن وتوفير
اسباب الراحة لهم مما يسطنه للاستاذ عبد الله حسين وكما هو مدون في
طلباتنا التى قدمناها الى وزارة المعارف ونرفق منها صورة مع كتابنا هذا .
وتفضلوا يا صاحب الدولة بقبول اسمى عبارات التحية والاجلال .
رئيس الجالية العربية بأريتريا .

(الامضاء)

الفصل الثالث عشر

المديرية الاستوائية

أو

مديريات خط الاستواء

كان يطلق على الفتوحات المصرية في أواسط أفريقيا التي ظلت حدودها منذ حوالي سنة ١٨٧٤ يعتورها التغير والتعديل بسطا وقبضا بسبب اضطراب سياسة غردون وما رب السياسة الانجليزية اسم « الاستوائية » أو مديرية خط الاستواء . وأحيانا كانت تسمى « مديريات خط الاستواء » باعتبار مديرية بحر الغزال جزءا من الاقليم الاستوائي ، أو باعتبار تقسيم مديرية خط الاستواء الى مديريات خصوصا وانها كانت تشمل بصفة عامة منطقة النفوذ المصرى فى الأنشورو وأوغندة وما حولها فى الإصقاع الواقعة فى شمال بحيرة فكتوريا وفى الجنوب الغربى من بحيرة ألبرت عند منابع النيل . وكانت وقتئذ بلاد الجالا أو الجزء الجنوبى من الحبشة الحالية لايتجزأ من هذه المنطقة ، وكان نفوذ مصر يمتد من النيل الأبيض مارا ببلاد الجالا وبلاد السومال حتى يصل الى ساحل المحيط الهندى فى اطراد مستمر لا يعوقه عائق .

وقد ذكرنا من قبل أن شاييه لونج الأمريكى كان عقد ، باسم مصر ، مع امتيزا ملك أوغندة معاهدة حماية ، ذكرها فى كتابه (مصر ومديرياتها الضائعة) : « لقد تكلمت فى تقريرى الى الحكومة ، بتاريخ ١٦ ديسمبر

سنة ١٨٧٤ ، عن المعاهدة التى وقع عليها الملك امتيزا ووضع بمقتضاها مملكته تحت الحماية المصرية . وهذه المعاهدة أبلغت الى الخديوى وكانت أساس تبليغ رسمى أعلنت به مصر ضم جميع الأراضى الواقعة حول البحيرتين الكبيرتين فكتوريا وأليبرت وقد اختفت من سجلات القاهرة . .

« وعلى الرغم من استقصاء البحث فى جميع الوزارات لم يوجد لها أثر مطلقا . ولعلها فقدت مع جميع المستندات النفيسة والتقارير العلمية التى تمثل خمسة عشر عاما من الجهود والأعمال التى قام بها زملائي الفرنسيون والأمريكيون فى أركان حرب الجيش ، كل هذه الأوراق فيما يظهر ألقتها فى النار ذات يوم ضابط فى الجيش البريطانى أصابته نوبة مخمور » .

وقد كان نفوذ مصر سائدا فى أوغندة ، رغما من دسائس المبشرين والساسة الانجليز ، وكان امتيزا أرسل ابنته الى مصر سنة ١٨٧٤ فأقامت فيها حتى سنة ١٨٨٢ ، وكان فى نية الخديوى اسماعيل أن يزوجها ضابطا مصريا يكون ممثلا له فى بلاط امتيزا ولكن الحوادث حالت دون تحقيق هذه الأمنية .

وقد أشرنا من قبل الى أن قوة مصرية بقيادة الضابط السودانى نور بك محمد قد احتلت ، بناء على طلب امتيزا نفسه ، روابجا عاصمة ملكه على ساحل بحيرة فكتوريا .

١ — أهوال المبريرة من سنة ١٨٨٠ لغاية سنة ١٨٨٨

فى سنة ١٨٨٠ فتح أمين ثانية فويرا وجميع المحطات الأخرى التى كان اضطر الى اخلائها بأمر غردون وضم لاتوكا الى المديرية وهى أخصب بقعة فيها « جنة أفريقيا » .

وفي أوائل هذه السنة وصل كازاتي مصر وجاء الى الخرطوم
(٢٦ يناير ٨٠) فوجد وكيل المديرية جيغلر في انتظار قدوم رؤوف باشا
وقد قضى العام في ارتياد بحر الغزال ثم لعب بعد ذلك دورا في حوادث
خط الاستواء .

وفي سنة ١٨٨١ تعين فيتا حسان صيدليا للمديرية حيث ظل
عشر سنوات . وفيتا حسان كما قلنا تونسي اسرائيلي كان والده قنصلا
لايطاليا وأرسله الى الاسكندرية ليتم دراسته . ثم عين رئيسا لصيدلية
أرملة عباس باشا ثم عين موظفا في صحة العريش ثم صيدليا في السودان
(مايو ١٨٨٠) .

وفي السنة عينها (١٨٨١) كانت موبوتو أوجورجورو ملحقة بمديرية
بحر الغزال وانفصلت عنها في يولية سنة ١٨٨١ مع مركز (رول) وألحقت
بمديرية خط الاستواء لأنها أقرب إليها .

وعين ليتون الانجليزى Lupton وكيل مديرية خط الاستواء حكامدارا
لبحر الغزال مكان جيسى الذى عزل من الخدمة وأدركته المنية وهو في
طريق العودة بالسويس (١) وكلف الضابط المصرى حواش أفندى
منتصر قائد جنود مكرাকা بإدارة مركز موبوتو . وتمتد مكرাকা من جنوب
رول لغاية جورجورو (موبوتو) .

وقبل أن نتكلم عن موارد المديرية وحاصلاتها ومعيشة السكان يحسن

(١) جاء في مذكرات امين باشا Emin Pasha, His Life And Work ص ١٢٧
ما يأتى :

« كان جيسى يفكر في العودة الى ايطاليا لأن الحكومة كانت تطالبه بالرد
على التهم الخاصة بالفظائع التى يصعب القول انه لم يرتكبها ضد الرقيق،
بصرف النظر عن البواغث الانسانية (خصوصا ضد سليمان الزبير الذى
غرر به ليسلم نفسه ثم حوكم عسكريا واعدم بالرصاص) . وقد ارسل
التجار بدورهم شكاوى لاتحصى ضد جيسى . وعلى اثر حدوث طامة
كبيرة في بحر الغزال بسبب المؤونة وصل جيسى الى الخرطوم ومنها رحل
الى سواكن ثم الى السويس حيث مات باثنا متعوسا » .

بنا أن نذكر النظام التجارى فيها كما وصفه فياحسان لما كان له من أثر فيها وقد أشرنا اليه من قبل ، قال : « يرجع تاريخ احتكار التجارة (١) الى عهد ضم أراضى المديرية والواضع لهذا النظام هو غردون باشا وقد استمر معمولاً به من ذلك الوقت .

(١) كان قرار غردون الخاص باحتكار التجارة سببه الأول العلاقة الكائنة بين تجارة السن وتجارة الرقيق ولكن هذا الاحتكار شأنه شأن جميع الاحتكارات الاستغلالية التى جرت عليها فيما بعد جميع الدول الأوربية فى إفريقيا اكبر ضربة للتجارة وقد كانت مبعث شكوى التجار والأفراد على السواء . وقد كان العقد يدفع ٢٠٠٠ جنيه فى العام للحكومة ليكون حراً فى تجارته وقد أمر اسماعيل باشا ايوب بمصادرة ٨٠ قنطار غاخ فى بور يملكها العقاد قل وصول غردون الى حط الاستواء (مارس سنة ١٨٧٤) فكان تطبيق النظام فجائياً ، يضاف الى ذلك ان العاج كان يمكن الحصول عليه فى أوغندا والحبيشة من طريق المياضيه أو من طريق الصيد فاحتكار التجارة حول هذه التجارة عن مناطق النفوذ المصرى . وقد أراد غردون بعد تعيينه حكاماً للسودان تعميم هذا النظام فى السودان وملحقاته . ولكن يظهر ان حكام الملحقات المصريين احتاطوا للأمر : يدل على ذلك صورة المكاتبه الصادرة من محافظة بربرة الى المعية رقم ٥٣ بتاريخ ١٥ جمادى الأولى سنة ٩٤ هـ (٢٨ مايو سنة ١٨٧٧) - دفتر رقم ٣٧١٦ من سجلات عابدين :

« وردت لنا برقية من سعادة حكامدار عموم الأقاليم السودانية تاريخ غرة مايو سنة ٧٧ نمرة ٣٠٨ يذكر ان سن الفيل صار احتكاره للميرى ومُرجوياً ضبط كل ماورد بهذه الجهة من الصنف المذكور وتوريده للميرى مع ان هذه الجهة منظمة مجدداً حديثاً وغالب تجارها مسئولون عن مبالغ جسيمة من طرف تجار بندر عدن من من أوروبيين وفرنسيين وتوبيين ويهود ونحوه برسم الشركة وتدارك ما يوجد من البضاعة التجارية بما فيه الصنف المذكور ، وهذا فضلاً عن صرف مبالغ أيضاً من طرف تجار عدن الى مذكورين سومان وغيرهم خلاف شركاهم المقيمين بالجهات برسم تدارك صنف السن فيل فقط وتعيين اشخاص بسلاح لصيد الافعال بماهيمات ومصاريف جسيمة من طرفهم الخ » .

وتتلخص بقية المكاتبه فى « ان تنفيذ الأمر قد يؤدى الى استياء عام وعطل واضرار بالحكومة » .

ولا توجد تجارة بالمعنى الصحيح في لادو لا محطات خط الاستواء
الأخرى وبحر الغزال ابتداء من لادو .

كان يوجد في لادو ثلاثة تجار فقط وهم صبرى وهو مصرى من أهالى
الوجه القبلى وروفاييل وهو مصرى قبطى وديمترى وهو يونانى . وكان
رأس ما لهم جميعا ١٥٠٠ ريال قيمة السلع التى تنحصر فى بعض الأنسجة
القطنية والدمور وبعض المشروبات الروحية والمواد الغذائية .

وكانت المواد الهامة المعدة للتصدير هى وحدها المحتكرة وترسل
الى الخرطوم وهى العاج وريش النعام وجنود الثيران فالعاج من ممتلكات
الحكومة وعلى الأهالى توريده لمستودعات الحكومة حالا عقب صيد
الثيلة بدون مقابل (كانوا يكتفون بلحومها وشحومها) وكانوا قبل
احتكار العاج يبادلون عليه بالخرز أو بزجاجة من الخمر المغشوشة التى
يجلبها التجار (يستثنى من ذلك سكان مملكتى الأونيورو وأوغندة بسبب
علاقاتهم التجارية مع الزنجباريين) .

وفرضت الحكومة بعد ذلك على الأهالى توريد العاج بصفة جزئية
فاضطروا الى اقتناص الأفيال لتوريد أتيابها . وعاد الاحتكار على الأهالى
بأضرار أقل كثيرا من التى وقعت على العرب لأن هؤلاء كانوا يجنون مقام
كثيرة من وراء بيعهم العاج فى الخرطوم .

وكان من المتعين أيضا تسليم ريش النعام فى مستودعات الحكومة
فتدفع هذه نصف الثمن والجزء الباقى يحجز سدادا لضريبة الحكومة .
وكان ثمن رطل الريش الأبيض العالى ١٨ ريالا . . وكانت هذه الأثمان
لاتدفع تقدا بل غلة وكانت السلع تقوم مقام النقود المتداولة فى مديرية
خط الاستواء فيدفع منها رواتب الموظفين والجند وكذلك الحال فى باقى
المعاملات التجارية .

ولم ير فيتاحسان طول المدة التى أقامها الا شحنة واحدة من النقود
تحتوى على ٥٢,٠٠٠ ريال بعث بها رؤوف باشا من الخرطوم ليدفع منها

المعاشات المتأخرة ومرتبات المستخدمين لغاية آخر عام ١٨٧٩ وكون هذا المبلغ الفيمة التي استعملت للمبدلة عينا في جميع أنحاء المديرية زهاء عشر سنوات وكانت كل باخرة تأتي من الخرطوم تجلب سلعا بنحو ٣٠,٠٠٠ ريال (١) .

وكان تموين المديرية يصل بالبواخر من الخرطوم ولكن آخر باخرة وصلت سنة ٨٢ فكان يجب على المديرية أن تعتمد على نفسها بعد انقطاع المواصلات .

وعلى أية حال كانت المديرية منذ انشائها تعمل على توفير حاصلاتها من زراعتها فكان الضباط المصريون وأمين منذ وصوله يحرون على سنة واحدة متبعة في جميع البلاد التي فتحها أو أشأها المصريون في السودان وسواحل البحر الأحمر وهرر وهي انشاء مبان للموظفين والحكومة وحدائق وزراعات تؤتي الخضر وغيرها مما يستعينون به في معاشهم ويرفه عنهم والمصري بطبيعته مولع بالحدائق والحقول فهو مدني متأنق وقد كان لهذه النزعة أكبر الأثر في تطور السكان وتحجيب المدينة اليهم .

وقد أشار فيت حسان ويونكر وأمين الى ذلك في كتاباتهم ورغما من اختلافهم في التعبير فإن هذه الحقيقة تتجلى باهرة .

قال فيتا حسان « لاشك أن زراعة الدرة البيضاء التي تفضل الدرة الصفراء لأنها تتطلب مجهودا أقل وتأتي بعشرة أضعاف الربح . ويرجع الفضل في زراعة الدرة البيضاء في جورجورو الى حواش منتصر الذي أتى بها وتمكن بقوة العزيمة والذكاء والمبادرة وحسن التدبير الى استجلاب وزراعة أشجار الفاكهة من برتقال وليمون وكذلك الخضر

(١) الجزء الأول من كتاب فيتا حسان . الفصل الخامس . ص ٦٢
(الحقيقة عن أمين باشا بالألمانية) .

من كل نوع ، نخص بالذكر منها البصل ، وكذلك الدخان الذي أحضر بذرته من القضايف بمديرية كسلا (١) .

وكتب في فصل آخر في كلامه عن مكراكا :

« وان أقنع النباتات والزراعات التي أدخلها أمين بك في خط الاستواء زراعة القطن والأرز ويرجع الفضل في نجاح زراعتها نجاحا باهرا الى ما بذله حواش منتصر من عظيم المساعدة والهمة التي لا تعرف الكلل . كما نجحت زراعة الذرة والفضل في نجاحها يعود على أمين بك . وقد أفاد القطن افادة عظيمة جدا فيما بعد وذلك عندما استدعت الأحوال أن يزاوئ رجال الحكومة وجنودها هم أنفسهم صنع ملابسهم عقب انقطاع المواصلات مع الخرطوم (٢) » .

وفي سنة ١٨٨٥ كان حواش منتصر حاكما على جنوب المديرية ومركزه دوفيلة كما كان مرجان أغا حاكما على الشمال ومركزه أمادي . « قد زاره فيتا حسان ووصف الحالة هناك قال :

« ومن باب الاحتياط للطوارئ ملاء حواش مستودعات دوفيلة بالحبوب والمؤونة والزرائب بالأنعام . وهو احتياط مبني على الفطنة وبعد النظر ، وأنشأ كذلك زراعات واسعة للاقطان وألزم الأهالي والجنود بزراعة هذا النوع . وبفضل هذا التدبير تمكن فعلا من جمع الجنية الأولى وأخذ جنوده الزنوج في غزل القطن تحت مباشرة رجل دقلاوي من فادبيك فتعلموا نسج الدمور . ونشر حواش أفندي

(١) الجزء الأول من كتاب فيتا حسان : الفصل الخامس ص ٦٢ (الحقيقة عن أمين باشا بالألمانية) .

(٢) الجزء الأول . الفصل السابع . ص ٨٣ - ٨٤ . ذكره طوسن باشا في كتابه (مديرية خط الاستواء) .

فما بعد زراعة القطن ونسبيج الدمور بدرحة أن سكان المديرية من ملكيين وعسكريين أمكنهم أن يكتسوا منه (١) .

وكان حواش يملك عددا كبيرا من الرقيق يستخدمه في الأعمال المختلفة مثل زراعة البصل والقطن وصناعة الدمور والأحذية وكانت قطعانه العديدة تستطيع أن تقى بالشر الأكبر من حاجات المديرية كما تأتي له بإيرادات كبيرة .

وكتب جونكر السائح الألماني في رحلته الأولى سنة ١٨٧٨ يقول : « ان زراعة الحبوب والحدائق هي أول أساس وطيد للتجارة . وهي خير وسيلة للعمل على ترقية الزواج من الناحية الأدبية بل هي أقرب الوسائل الى مداركهم . والآن يمكن القول أنه على الرغم من الأخطاء الكبيرة التي ارتكبها العرب (المصريون) ضد الزواج فانهم هياؤا في مكراكا الظروف التي جعلت تقدم المدنية في حيز الامكان والتي جلبت للبلاد مزايا حكومة تضم بقايا شعوب كثيرة تحت سلطان واحد قوى .

« ويرجع الفضل الى المسلمين ، وهم الذين تعزى اليهم المطاعن والمثالب ، في الزام الزواج بضرورة المعيشة في هدوء وسلام مع القبائل المجاورة لهم والاقامة على قدر الامكان في دورهم ومواطنهم والانصراف الى زراعة حقولهم . وهذا العمل يجب أن تقدره حق قدره دون أن نبخسه شيئا . ومما يشرف الحكومة المصرية وضع بلاد الزواج تحت سيطرتها . وهذا الأمر مكنها أن تفتح بابا لانتشار المدنية في مستقبل الأيام .

« ومهما بلغ من ثقل النير الأجنبي فهو في الواقع أفضل للزواج

(١) الجزء الثاني من كتاب فياحسان . الفصل الرابع . ص ٤٢ - ٤٣
ذكره عمر طوسن في كتابه (مديرية خط الاستواء) .

من حكم نفس المستبدين منهم اذ ان حكم هؤلاء مصدر حروب لا نهاية لها يفنى في خلاها بعضهم بعضا (١) .

وكتب جونكر سنة ١٨٨٢ عن جواش يقول : « جواش أفندى منتصر ضابط مصرى عاش سنوات في بلاد الزنوج وكان خيرا بجميع شؤون أعالي النيل ، بلاد مكراكا وروول (٢) .

« وهو ذو همة لبق في معاملة الوطنيين وهذه الصفات وضعت في مستوى أعلى بكثير من مستوى معظم زملائه الموظفين (٣) .

وفي يونيه سنة ١٨٨٤ كتب في أثناء مقامه في دوفيه : « لقد أطلت مقامي في دوفيلة وأصلحت من شأني فقام أحد الأونباشية بصنع « بنطون » وصديري لي من دمور مكراكا وصبغهما (٤) » .

وفي سنة ١٨٨٦ كتب جونكر : « وفي ذلك العصر ، رغبا من الأزمنة السيئة ، فان أمين عزل بعض كبار الموظفين أمثال عثمان لطيف وكيل المديرية ، وأحمد محمود سكرتيره الخاص مما أدى طبعا الى زيادة عدد المستأئين . ولكن كان لنا أن نتعزى برؤية العزيمة المبدولة في قلاحة الأرض بما فيها زراعة القطن التي كانت أهملت قليلا ثم عني بها . وقد كان لجواش أفندى القدح المعلى في هذا الميدان ، وقد كسب أرباحا طائلة (٥) .

وتكلم أمين باشا في مذكراته عن مكراكا (سنة ١٨٨١) قال : « في حدائق الموظفين نجحت زراعة الليمون بأنواعها وكذلك زراعة الشام

(١) الجزء الأول . ص ٤٩٨ - ٥٠٠ من كتاب جونكر (رحلات في إفريقيا) . الطبعة الانجليزية .

(٢) الجزء الثاني من كتاب جونكر . ص ٣٩٦

(٣) الجزء الثاني من كتاب جونكر ص ٤٢٧

(٤) الجزء الثالث من كتاب جونكر (الطبعة الانجليزية) ص ٤٠٩

(٥) الجزء الثالث من كتاب جونكر . ص ٥١٨

والبصل . وقد زرعا القطن لأول مرة هذا العام وحصلنا من أثنين من البذرة على عشرين قطارا من القطن الجيد (١) .

وقال بعد ذلك : « ان جوزا Gosa المحطة المركزية في مملكة أبوقاية Abukaya لم ترتفع الى مرتبة محطة الا منذ بضعة أشهر . وهي ذات موقع جميل جدا لمراقبة الطريق الممتد من مونبوتو الى الشمال والطريق المؤدية الى مركز رول وبحر الغزال . وقد كان نجاح زراعة القطن هنا بامرا بدرجة أنه ساعد على نشوء صناعة النسيج التي يحتمل أن تصبح ذات أهمية كبرى في المستقبل . ويشغل السكان — الدناقلة وعبيدهم في الوقت الحالي — بنسج قماش القطن الخفيف المعروف في جميع أرجاء السودان بالدمور الذي يناسب الى أقصى حد الجو الذي يعيش فيه . ولكن صناعته هنا أرقى بكثير منها في الخرطوم . (٢) » .

وكتب كازاتي سنة ١٨٨٣ يقول : « يوجد القطن في أماكن كثيرة في أشكال مختلفة وهو عند قبائل الباري تظل بذوره خضراء عند نضجها . ويرجع الفضل في انتشار صناعته الى بعض الدناقلة الذي تولوا صنع المناويل بأنفسهم فأصبح الكثيرون من الأهالي يبتغون رزقهم من نسج الدمور المحلي (٣) » .

يتضح مما تقدم أن الزراعة والصناعة كانتا في تقدم مستمر بفضل المصريين في مديرية خط الاستواء وان التجارة كانت متقدمة بفضل العرب النازحين في أوغندة والأنيبورو ولكن كانت متأخرة في خط الاستواء بسبب سياسة الاحتكار التي وضعها غردون .

(١) كتاب أمين باشا في افريقيا الوسطى . ص ٣٧٤ (بالانجليزية)
Emin Pasha In Central Africa

(٢) أمين باشا في افريقيا الوسطى . ص ٣٨٦

(٣) كازاتي (عشرة أعوام في مديرية خط الاستواء) . الطبعة الفرنسية

ولا شك أن الثورة المهدية قد ربكت الى حد ما الحركة الاصلاحية العامة ونشرت الاضطراب في المحطات الكثيرة التي أنشأها المصريون على ضفاف النيل الأعلى وفي السهول الممتدة شرقا وغربا وكانت كلها مراكز مدنية ونظام .

وقد كان من نتائج فتح السودان منذ عهد محمد علي نزوح التجار المصريين والعرب والسودانيين كالتوبيين والدفاقلة جنوبا الى ما وراء الحدود المصرية الى ما بعد قاشودة أى ان هذه الأقطار الاستوائية كانت مفضوحة للتجارة وبدأ احتكاك الزنوج بالعرب قبل الفتح المصرى في سنة ١٨٧٠ ثم أخذت بعد ذلك تدخل المدنية بطريق واسع منظم في هذه الأرجاء .

وقد كانت الحكومة المصرية تحمى الدفاقلة وتعفيهم من الضرائب ولكن أمين باشا كان يطاردهم بفرض الضرائب عليهم ويضطرمهم الى العودة الى مواطنهم وهم وان لم يكونوا من خيرة العناصر السودانية الا انه ثبت أن وجودهم في بلاد الزنوج كانت له بعض المزايا التي لا تنكر من ناحية المدنية والعمران .

وقد كانت مملكة موبوتو (أو ما نجيانو كما يسميها جونكر) أقصى تلك خط الاستواء غربى النيل ولم تكن بها ادارة منتظمة بالمعنى الصحيح الا في عهد أمين أو بعبارة أدق في عهد حواش منتصر الذى أخضع زعماء قبائلها وطاردهم أمير موبوتو المسمى مامبانجا Mambanga وأوغل في مطاردته حتى أخضع القبائل المجاورة لموبوتو وزعيمها بورو Buru لحكومة مصر وكانت هذه المديرية خاضعة اسما لمصر قبل حواش . وقد أنشأ حواش سنة ١٨٨١ محطة سميت باسمه (محطة حواش) في رأس زاوية في أقصى الحدود الغربية واقعة في راض قبائل البارمبو A-Barmbo ورئيسها بورو . وقد زار جونكر المحطة الجديدة في

سبتمبر سنة ١٨٨١ فامتدح تصميمها البديع وجمال البناء وحسن التقسيم والاحتباط لطوارئ الحرب والحريق وما اليهما ^(١) وكانت هذه المحطة تقع فى شرق نهر الأوله . وتبعد غربا عن بحر الجبل (النيل) نحو خمائة كيلو مترا . ومعظم مديرية المكراكا الغنية وجميع موبوتو لغاية محطة حواش هى الآن جزء من اقليم الأوله التابع للكونغو البلجيكي باعتبار هذه البلاد قسما من بحر الغزال الذى كانت بلجيكا تقطع فى ضمه كله اليها لولا اعتراض فرنسا .

وقد كانت مديرية خط الاستواء ، فى بداية الثورة المهدية ، تمتد على ساحل النيل من مخرجه فى بحيرة ألبرت الى ما وراء لادو وكانت تشمل على القسم الشمالى من الأنويورو وأراضى الشولى والمادى والبارى واللاتوكا والمكراكا والمورى والمونبو . وكانت تمتد من ناحية أخرى على النيل بين بحيرة ألبرت وبحيرة فكتوريا لغاية نيامبونجو على بحيرة ابراهيم بل الى نقطة أبعد من ذلك نحو الجنوب فى درجة دون خط الاستواء أو على مسافة حوالى خمسين ميلا من بحيرة فكتوريا .

ولكن فى أثناء الثورة المهدية اضطرت الحاميات الى ترك فويره والمراكز الواقعة على النيل — فكتوريا وتجمعت على النيل من سواحل بحيرة ألبرت الى ما بعد لادو شمالا .

ومن ماجونجو عند مخرج بحيرة ألبرت لغاية لادو يمر الطريق بدوفيلة ولانوريه وموجى وكيرى وبيدن ورجاف وغندوكورو ثم يصل الى لادو بعد أن يقطع مسافة ٢٠٠ ميل تقريبا . ويلاحظ أن أوغندا الانجليزية الحالية تبندىء جنوبا من سواحل بحيرة فكتوريا وتنتهى شمالا فى نيمول . وتؤلف الأنويورو جزءا منها .

وكانت مديرية خط الاستواء فى مجموعها واديا مستطيلا مخصبا تنتشر

(١) انظر الجزء الثانى من رحلات جوتكر (الطبعة الانجليزية) ص ٤٠١

في أرجائه سهول مختلفة بالزرع ومراع ناضرة . وكان إقليم فاتيكو في بلاد الشولى يسمى « جنة النباتين » لامتلائه بالنبات والزهر والفكهة والعطر من كل لون .

وقد ساعد اخلاء مديرية خط الاستواء ، وتجنيد الحاميات السودانية تحت الراية البريطانية بغير مسوغ ، انجلترا أولا على احتلال أوغندة القديمة التي كانت مساحتها لا تزيد على ٥٥,٠٠٠ كيلو متر مربع في حوض بحيرة فكتوريا بين سواحلها الشمالية والشمالية الغربية وثانيا على ضم الأنبيورو ومديرية خط الاستواء نفسها الى أوغندة .

وقد بلغت مساحة أوغندة الجديدة في سنة ١٩٠٠ بعد أن تكونت واتسعت على حساب مصر وبقوة مصر حوالى ٣٠٠,٠٠٠ كيلو متر (أى ستة أضعاف مساحتها الأولى) وامتدت حدودها الشمالية لغاية غوندوكورو في جنوب لادو ، التي كانت لغاية سنة ١٩١٤ تكون الحد الجنوبي الأقصى للسودان الذى أخذ في التناقص والانتقاص . وعدا ذلك تنازلت انجلترا للكونغو البلجيكي عن أراض واسعة كانت تؤلف من قبل جزءا من مديرية خط الاستواء على الضفة الغربية للنيل كما تنازلت له عن ساحل بحيرة ألبرت نيانزا الغربى .

وكانت انجلترا مسوقة الى التعجيل باحتلال مديرية خط الاستواء وأوغندة لتسبق فرنسا وألمانيا اليهما من ناحية — لأن بعثات هاتين الدولتين التبشيرية والكاثوليكية المقيمة في البلدين كانت تعمل على ترجيح كفة نفوذهم — ولتحول من ناحية أخرى دون توطد النفوذ العربى فيهما .

كتب فوتيرز المؤلف البلجيكي : « ان المدنية العربية قد تمكنت في أقل من عشرين سنة من تغيير اللباس القومى تغييرا كاملا ، ولم يكن ذلك اللباس في ابان زيارة اسبيك شيئا مذكورا . واليوم أصبح لأوغندا (السكان) يلبسون لبوسهم من الرأس الى القدم ، وكذلك الأنبيورو .

وقد حلت تدريجيا الملابس العربية مكان « اللباس » القديم المصنوع من لحاء الشجر . وترى فقراءهم يلبسون القميص والحزام والقفطان على أجسادهم والطربوش على رؤوسهم .

« وعقب موت امتيزا ، في سنة ١٨٨٥ ، خلفه ابنه موانجا . وما كاد ينسلم مقاليد الحكم حتى خاف على استقلال بلاده وبقاء سلطانه من تقدم الأوربيين على بحيرة فكتوريا (١) » .

(١) A. I. Wauters Stanley, Au Secours d'Emin Pacha. Paris, 1890

جاء في مذكرات أمين باشا ، لسنة ١٨٧٦ ، ما يأتى : « قبل ان يجد العرب طريقهم الى أوغندة والأنبور - بصرف النظر عن منشأة عربية قديمة في كاراجوا - كانت تجارة هذه البلاد منحصرة في تبادل المواد الضرورية جدا للحياة وكانت قيمة البضائع المعروضة للبيع تتوقف على هوى البائع وعلى حاجة المشتري وقدرته . ولم يكن للنقود أو ما يعادلها وجود ما . ولكن منذ اللحظة التى دخل فيها أول العرب موسى مزورى (كذا) وأحمد بن إبراهيم أوغندة بناء على دعوة سونا والد امتيزا تغيرت الأحوال . وقد سهل افتتاح طريق زنجبار - رحلة خمسة أشهر في ذلك الوقت - استيطان العرب في البلاد ووجود وكلاء لهم في كاراجوا وأونيامقيزي وفيما بعد على البحيرة على تغيير الأسعار في أسواق البلاد . وكانت ترد من زنجبار مقادير كبيرة من البضائع وخصوصا المصنوعات والمنسوجات من كل نوع من الأقمشة والأسلحة والدخيرة والنحاس وتجدر رواجها عند قوم نهمين في امتلاك ملابس أنيقة وحلى واسلحة . وقد أحسن الناس بالحاجة في نفس الوقت الى عملة مداولة فوجت العملة المسماة « كاورى » لأشباع هذه الحاجة .

« ويرجع الى العرب الفضل في إيجاد هذه العملة بين الزنوج وقد تعلم الواجندة سريعا كيف يستعملونها . وكانت تنظم الكاورى أو المحار في خيوط بالمئات . تعادل كل خمسة خيوط منها ريالا ، والعرب هم الذين قرروا هذه القيمة أساسا للتعامل . فكانت المعزة تساوى من ١٢٠٠ الى ١٥٠٠ محارة ، وربطة الملح فى الأنبور ١٠٠٠ والنور من ٦٠٠٠ الى ٧٠٠٠ وملم جرا . وكانت الخيوط مقسمة أنصافا فى كل خيط خمسون محارة وكان أقل خيط يشتمل على ٥ محارات لشراء الحاجيات الرخيصة . وقد اعتاد الناس هذه العملة التى كانت تجرى بواسطتها - الا فى أحوال المقايضة النادرة - جميع المعاملات التجارية .

« وقد حاول امتيزا زمنا طويلا احتكار تجارة الأسلحة فاجتهد في منع العرب من دخول الأنبور ولم يتمكن الا حديثا - من حوالى خمس =

وكان العرب يقدون من زنجبار وموتيا على الساحل الى أوغندا بقوافلهم ، ولكن كان الأوروبيون لا يرون فيهم الا نخاسين يجب القضاء عليهم مدفوعين الى ذلك في الواقع بعوامل سياسية بحتة .

= سنوات فمط ... التاجران الهامان العربي سعيد بن صيفي والفندي حسن من الوصول الى عاصمة الأنبيورو ، من كاراتوا ، وهناك أحسنت وفادتهما ونجحا رغمًا من النظام السائد في الحصول على مقدار كبير من السن . وبمجرد انتشار تجارة زنجبار في الأنبيورو جرى استعمال الكاوري (المحار) كعملة فيها للتداول . على أن أغلبية شعب الأنبيورو ظلت متمسكة بنظام البدل التجاري . ومهما كان من الأمر فإن من دلائل الروح التجارية النشطة عند العرب أنهم أوغلوا في البلاد الى هذا الحد يسما أخطأت ادارة غردون باشا في مديريات خط الاستواء المصرية في عدم بدل أقصى الجهد لفتح هذه الأقطار لتجارتنا . «ويذهب الواجندة بأنفسهم الى زنجبار مرسلين من ملكهم . ويستبدلون بالمعاج الأسلحة والدخيرة .

« وكانت غزوات اعمتيزا وكاباريجا المستمرة في سبيل الحصول على الماشية والسن وغيرهما تهدف في نفس الوقت الى أخذ الأمان وكانت فتيات الغاهوما تلعب في الرقيق نفس الدور الذي تلعبه فتيات الأحباش . «على أن السن لا يزال أهم صادرات الممالك الاستوائية . وقد كانت لاجراءات الحكومة المصرية الخرقاء (احتكار السن) سبباً في أن كل هذا السن ، بدلا من أن يذهب الى منفذه الطبيعي صوب الشمال صار يتجه نحو الجنوب .

«وقد انتشرت التجارة ونشطت في البلاد الواقعة بين البحيرات وادت العلاقات الناشئة بين القبائل المختلفة بعضها وبعض وبينها وبين التجار العرب الى جهود صادقة تهدف الى فتح طرق تجارية جديدة وخلق حوائج وطلبات جديدة واجابتها . وقد ظلت الاراضي المصرية في الشمال ، من هذه الناحية ، متاخرة جدا . ولم يحدث أى تقدم بسبب نظام الحدود المراقبة المتعوس والاحتكار التجاري اللذين تجد فيهما الحكومة الى اليوم الوسيلة الوحيدة لمنع السطو على العيد وتهريبهم للمتاجرة . وكانت نتيجة هذه السياسة تعطيل كل تقدم طبيعي في ممالكنا دون أن يكون لها اثر حاسم في القضاء على تجارة الرقيق .

«ليس من الأفضل اذن ان نتخلص من النظام الخيالي العتيق والمبادئ الانسانية المشقة وان توجد في هذه البلاد المنتج ادارة تطابقها وتناسبها لتروية مواردها واجابة مطالبها وحاجاتها ؟» .

(انظر مذكرات امين باشا في سنة ١٨٧٦ صفحات ١١٢ - ١١٨ و ١٢٣)

من كتاب Emin Pasha in Central Africa. Annotated by Prof. G. Schweinfurth, Prof. Ratzel, C. Felkin and C. Hartlaub. London, 1881

كان امتيزا في أواخر سني حكمه منح العرب حرية التوطن في مملكته لا كتجار فحسب بل كأساقذة دينيين ، وقد اعتنق أخوه أسبوخا الاسلام .

وكانت انجلترا تفكر في ذلك الوقت في تنفيذ مشروع سنة ١٨٧٥ المصرى الخاص بإيجاد مواصلات بين الساحل ومنابع النيل ونشر نموذها في هذه الأرجاء .

كان غردون ، اذ كان حاكما لخط الاستواء ، يرى أن أخصب مناطق البحيرات تمتد جنوب غوندوكورو وأن الأراضي في شمال غوندوكورو لغاية الخرطوم مغطاة بمستنقعات غير صحية وأنها بسبب طقسها لا رجية فيها ، فكان المنفذ الطبيعي لمناطق البحيرات التي تربطها بالشمال خطوط مواصلات صعبة وطويلة هو من ناحية الشرق صوب المحيط الهندي .

ولا شك أن انجلترا بضمها الى أوغندة الأراضي الواقعة جنوب غوندوكورو ضمنت لنفسها امتلاك الهضاب والوديان الخصبة أى أهم قسم في السودان الجنوبي . ولم تكتف انجلترا باقتطاع أكبر حصة لها بل انها تنازلت للكوفنو عن بلاد مكراكا ونيام نيام الغنية في غرب النيل على حساب مصر متبعة نفس السياسة التي جرت عليها ازاء الممتلكات المصرية في البحر الأحمر وبلاد السومال .

وقد كان مشروع وصل الساحل ببحيرة فكتوريا بالسكة الحديد موضوع دراسات طويلة منذ سنة ١٨٨٥ . وتم تأسيس شركة أفريقيا الشرقية الانجليزية برياسة وليام ماكينون ومنحت الامتيازات اللازمة . فكانت أراضي الساحل التابعة لرنجبار ومديرية خط الاستواء القواعد الأولية التي تصلح أن تكون أساسا للامبراطورية الانجليزية الجديدة

في أواسط أفريقيا . ومن هنا كان لابد من «إخلاء» المديرية الاستوائية والعمل على « إنقاذ » أمين باشا (الدكتور اشنيتر) حاكم المديرية .

كان غردون عين أمينا ، في سنة ١٨٧٨ ، حاكما عاما للمديرية ، وهو يهودى ألماني يزاول الطب والعلوم النباتية . وكان أشد العناصر اعتدالا في الحكومة الأوربية المختلطة التي استتارت السودان^(١) . وكان جيسى باشا الطلياني ولي غردون الحميم أشدها تطرفا ، ولا تزال حروبه الشعواء في سنة ١٨٧٩ وقتله سليمان بن الزبير ماثلة في الأذهان . وقد استحضر جيسى في أواخر هذه السنة عينها الى السودان ، إيطاليا آخر ، كازاتي ، الذي ظل مع أمين منذ ابتداء الثورة لغاية مجيء استافلي سنة ١٨٨٩ . ويلاحظ أن كتابات جيسى وكازاتي تنضح بكرامية العرب . وقد أرسل كازاتي ، في أواخر أغسطس سنة ١٨٨٣ ، الى جريدة المكتشف *Esploratore* بميلان كتابا يصف فيه أحوال السود في الممتلكات المصرية ، جاء فيه :

«يجب أن تفصل تماما البلاد السوداء (بلاد الزنوج) من البلاد العربية أو التي يهيمن عليها العرب ، وأن نجمع تحت إدارة مستقلة موحدة أراضي بحر الغزال ومديرية خط الاستواء وأن نوجد بهذه الطريقة حدودا سليمة ترسمها الطبيعة نفسها ، وأن نثبت للزنوج ، الذين هم في ريب مما نقول ، ان الحكومة مهتمة بأمرهم .

«ان العرب المتفرقين في البلاد ، بدون مأوى وبدون أى اندماج مع العنصر المحلي ليسوا الا لصوصا أو شعاذين . فيحتم ارجاعهم جميعا الى بلادهم الأصلية وقطع كل أمل عندهم في العودة . ومتى تمت عملية التطهير هذه — لأن العرب دائما خطر وكثيرا ما يكون أداة تدمير وافناء — وجدت المنطقة الجديدة في الحال نقطة توازنها واستقامت

(١) The Revolt against Europeanized Egyptian Rule which broke out in 1881-83 (Harry Johnston, Africa, p. 653).

أمورها : ان حكومة السودان قائمة على العنصر العربى الذى يفصل بينه وبين العنصر الوطنى اختلاف اللغة والجنس والميول والعادات (١) » .

لم ير جيسى وصنيعة كازاتى فى العرب أى النوبيين أو الدفاقلة الا لصوصا أو قطاع طريق وفد خبر جونكر صديق جيسى أحوال بلاد السودان الجنوبية ودرسها من كتب . قال فى أثناء رحلته الثانية بعد

(١) Casati. Dix Années En Equatoria

من الغرب انه فى نفس السنة (مارس سنة ١٨٨٢) أبدى أمين باشا نفس الآراء فى صورة مختلفة قال : « من السخف التفكير فى إلغاء تجارة الرقيق فى السودان بإنشاء مصلحة خاصة بذلك فى الخرطوم وفروع لها . » وقد كان اسماعيل يريد بإخلاص تحقيق هذه الفكرة الإنسانية فى قلب افريقيا ، ولكن الوسيلة الوحيدة ، فى اعتقاده ، للنجاح هى ضم أقطار الزنوج فى اتحاد واحد — بحر العزال ومديريات خط الاسواء — وفصلها فصلا تاما عن اجزاء السودان العربية . ويجب ان يعين لها بعد

ذلك حاكم أوروبى كفاء . Emin Pasha In Central Africa. p. 425 .

وقد كان جيسى يعمل على تحقيق ذلك الهدف فى سنتى ١٨٧٨ و ١٨٧٩ فى مديريات السودان الجنوبية (بحر العزال ، دارفور ، كردفان) كتب جيسى فى محلة Esploratore الإيطالية ، بتاريخ ١٤ سبتمبر سنة ١٨٧٩ ، بمناسبة فشل البعثة الإنجليزية التبشيرية (الدكتور فلكن والدكتور ولن) وعودتها من أوغندا : « أن الوسيلة الوحيدة لتنعير هذه الممالك ، فى اعتقاده ، هى الاستعمار على نطاق واسع . اذ بهذه الطريقة يمكن التغلب على الاسلام وكسر شوكته » .

واقترح أمين بعد ذلك مد خطوط حديد دولية داخل افريقيا برؤوس أموال أوروبية كوسيلة مؤكدة للتوغل والسيطرة : « وعندئذ فقط تصيب دين محمد الضربة القاضية » .

وفى ٤ ديسمبر سنة ١٨٧٩ كتب جيسى : « انى أرغب فى الذهاب الى الخرطوم ولكنى لن أستطيع ذلك قبل طرد جميع العرب واخراجهم من هذه الديار » .

وفى سنة ١٨٨٠ كان جيسى يقول : « انهم (العرب) يتهموننى بأننى اعمل على اقصاء العنصر العربى ونشر فكرة التحرر ، وتوظيف الوطنيين فى الادارة ، والقيام باسعدادات حربية كبيرة ، ومساعدة هذه المناطق على تحقيق استقلالها يوما ما » (Seven Years In The Sudan. by Romolo Gessi Pasha, London, 1892)

والواقع ان جيسى كان يعمل بسياسته الخرقاء على نشر عوامل الفتنة والخراب فى السودان الجنوبى وفصله عن مصر . وحسبنا أن نذكر =

تركه ديم سليمان « الذى يعد أهم المنشآت العربية فى بلاد الزنوج »
لزيارة الأمير اندورومة الزنجى Andorouma : « بعد انتصار جيسى على
سليمان أظهر زعماء وأمراء مملكة نيام نيام البعيدون روح المودة فى كل
مكان وكانوا يرسلون طوعا واختيارا الرسل والعاج الى الحاكم الجديد ،
بل كانوا يحضرون بأشخاصهم فى المحطات لاعلان حسن استعدادهم .
ولكن هذا العمل من جانب الحكام الذين حررهم جيسى من ربقة ظلمهم
(العرب) قد حمل جيسى على كثرة الاعتداد بالنفس والقيام بأعمال لا تنم
عن صدق النظر وخصوصا اخلاء سبيل الجنود الزنوج الكثيرين الذين

--- اعترافه بأن « تدمير تجارة الرقيق » كان يكلف مدينة الخرطوم سنويا
خسارة لا تقل عن ٢,٨٠٠,٠٠٠ ريال . وطبعاً كان ذلك التدمير يشمل
التجارة كلها بصفة عامة لأن الحروب واجراءات العنف وضروب المضايقات
والمصادرات والبطش كانت تشل الحركة التجارية وتشر الاستياء
والغرضى .

وقد كان غردون لا يحفل أن الناء تجارة الرقيق معناه القضاء فى الوقت
نفسه على التجارة المشروعة وكل تجارة . وقد كان سلطان زنجبار ، فى
ابريل سنة ١٨٧٦ ، بناء على الحاج الدكتور كيرك قنصل انجلترا ، حرم
فى جميع البلاد الواقعة تحت سيادته ، تجارة الرقيق التى كان يزاولها
القوافل الآتية من اواسط افريقيا الى الساحل . فلما علم ذلك غردون
صرح بأن التجارة المشروعة سيقضى عليها أيضا اذ كان من المستحيل
الفصل بينها وبين تجارة الرقيق ، ولذلك اتجه تفكيره وقتئذ الى اجتذاب
تجارة البحيرات الى مديرية خط الاستواء والخرطوم وذلك بقصر سياسة
الاحتكار على العاج المحصل فى الاراضى المصرية اما عاج البلاد الأخرى
فبكتفى بفرض ضريبة عليه نظير رسوم الدخل وتكاليف النقل ، ولكن
احتكار العاج ، ولو بصفة جزئية محدودة ، لم يكن من شأنه تيسير تنفيذ
الفكرة الجديدة وذلك بصرف النظر عن العوامل الأخرى المرتبطة بسياسة
غردون العامة فى الأقاليم الاستوائية واذا كانت التجارة المشروعة قد اخنفت
فى المناطق المصرية من جراء سياسة غردون فمن الصعب اجتذاب تجارة
البلاد الأخرى المشروعة الى هذه المناطق لأن العوامل التى أدت الى شل
هذه التجارة واحدة فى البلادين . وفى أوائل يناير سنة ١٨٧٦ صرح
الخدوى اسماعيل للمالى الانجليزى كيف Cave أن صادرات السودان
نقص ثلثاها بسبب اخفاء التجارة المشروعة « التى كانت تسير جنبا
لجنب مع تجارة الرقيق » .

كانوا في خدمة سليمان والعرب . وقد صرح لى في ذلك الوقت مرارا عن وثوقه بعدم الحاجة الى تسليحات كبيرة مطلقا في مديريته (بحر الغزال) بعد انتهاء قدر المستطاع من طرد العنصر العربى . وكان يؤكد أن الزوج لن يتحولوا عن اظهار ولائهم وانهم عند الحاجة يقبلون الخدمة العسكرية . . . على أن جيسى لم يكتف بتسريح العبيد الذين احتسوا به والذين كانوا من قبل خدم النوبيين بل سرح أيضا طائفة من الشبان العبيد الذين خدموا في الحرب وورغبوا في العودة الى منازلهم . بل لقد ذهب الى أبعد من ذلك وأذن للكثيرين من أولئك بالاحتفاظ بأسلحتهم . وقد انتهز أغلب الجنود المسرحين الفرصة لا للعودة الى منازلهم بل للعبث والانضواء تحت راية بعض صغار الزعماء لأغراض غير مشروعة . وقد أمكننى حديثا أن أشاهد بنفسى في داخلية البلاد أمثلة كثيرة من تبجح أولئك الوطنيين المسرحين وتغاديهم في غيهم .

وعلى أية حال قد تمكن جيسى مؤقتا من اكتساب صداقة الزوج وحكامهم . وقد سلم جزءا من الأسلحة التى أخذت من سليمان الى الكثيرين من كبار زعماء قبائل الزائدة مثل زيميو وسازا واندورومة وآخرين ، وكان يرمى بذلك الى تقويتهم ضد منافسهم ومساعدتهم على اخضاع القبائل العاصية والقيام بغارات مسلحة لانتهاج العاج وتقديمه للحكومة في محطات بحر الغزال . وبالحملة كانت خطته ترمى الى الاقلال الى أقصى حد من الحملات التى كانت تنظم من قبل في هذه المحطات وترسل بقيادة النوبيين لأعمال النهب فى الأراضى الجنوبية . وقد أوصى جيسى زعماء الزوج الذين سلحتهم لجلب العاج أن يتجنبوا اقتناص العبيد في غزواتهم ! على أن الكثيرين من قواد الزرائب القدماء وهم عرب من أيام سليمان أو آبيه الزبير ، كانوا يتوقعون هزيمة سليمان فظلوا على الحياد وقد سمح لهم أن يبقوا كمديرين في مراكزهم في المناطق الغربية البعيدة : من أولئك رافاي Rafai وعبد الله وعلى كويو وآخرون . وقد كان

ذلك دليلا على أنه ليس في استطاعة جيسى ولا أى حاكم آخر أن يستغنى عن العرب والعناصر الإسلامية في إدارة بلاد الزنوج .

« ولاشك أن تسريح الفرق السوداء ورفق التراجمة وخصوصا اعطاء الأسلحة لأقل زعماء الدنكا شأننا كان أمرا سابقا لأوانه ولا مسوغ له . واثني لن أذهب الى حد القول أن ثورة الدنكا الجائحة التي حدثت فيما بعد في عهد ليتون بك كانت وليدة هذه السياسة الخاطئة . ولكن مما لا ريب فيه أن نجاح الدنكا قد سهله ذلك الامتياز ^(١) . واثني أعلن هنا اننى لا أسلم عبداً جيسى الأساسى القائل بأن العرب هم الذين أوجدوا تجارة الرقيق كلها وانهم أكبر مروجيها .

« ولما كان جيسى يريد إلغاء هذه التجارة في مديريته كان من المخاطرة - وهذا أقل ما يقال - منح الحكام الوطنيين من أصحاب الخطوة والجاه حق تنظيم حملات بعيدة كانت في الواقع - بسبب عدم وجود القيود المناسبة - غارات نهب وسلب . وقد رافقت بنفسى فيما بعد بعض هذه التجريدات ولذلك في استطاعتى أن أشهد وأقرر أن جميع الزنوج ، في استعمال السلطة الموكولة اليهم ، أشد استهتارا من العرب السودانيين الذين لا ينتمون الى « طبقة » عالية ... وهم أشد قسوة منهم ولا يعرفون الا قانون القوة ^(٢) » .

ظاهر مما تقدم أن العنصر الأسود أو المحلي قد انطبع بطابع العنصر العربى واندمج فيه في السودان الشمالى وفي دارفور وكردفان وإن عملية « الاندماج » كانت تسير سيرا حثيثا من النيل الأبيض نحو بحر الغزال

(١) قبائل الدنكا والشيلوك تعيش حول البحر الأبيض ومنها كانت تتألف معظم الفرق السودانية في الجيش المصرى ، وكانت مساحة أراضي الدنكا - وهم زنوج وثنىون - تبلغ ٦٠.٠٠٠ ميل مربع . وقد ثارت الدنكا سنة ١٨٨٢ وتمكن ليهنون من اخمادها جزئيا ..

(٢) النقطة نحن وضعناها إشارة الى النصوص المحدوفة . انظر الطبعة الانجليزية من رحلات جونكر . الجزء الثانى (٩٧ - ١٠٠) .

والبحيرات وكان خير العناصر العربية تنزل جنوبا نحو ممالك البحيرات مع الراية المصرية أو تأتي من الشرق ، من زنجبار والساحل ، باسم التجارة . وكانت محاربة تجارة الرقيق من ناحية وسياسة التبشير والاستعمار هما سلاح أوروبا الوحيد لمحاربة النفوذ العربي الاسلامي في أفريقيا .

وكان كازاتي كغيره يخشى أن يتم مع الزمن اندماج عناصر الزنوج المنتشرة في الممالك الاستوائية في العنصر العربي ، لذلك كان يقترح ارسال بعثات مسيحية في مديريات الجنوب . وقد نجحت انجلترا باحتلالها أوغندة من القضاء على النفوذ العربي وتشيده حول البحيرات وباحتلالها السودان من التضييق على الحضارة العربية المستأصلة في السودان الشمالى ، وقد بدأت منذ سنوات تعمل على تحقيق فكرة أمين وكازاتي وجيسى بفصل جنوب السودان عن شماله وتنظيم التبشير بين زنوجه .

ويجب أن يلاحظ أن أمين وكازاتي كانا ينتقدان سياسة محاربة الرقيق التي اتبعها غردون . ولكن كازاتي لم يجاهر برأيه الا في سنة ١٨٨٣ ، أى بعد قيام الثورة — هذه الثورة التي كان غردون يقول انه باض البيضة التي خرجت منها قال كازاتي : « ان غردون ترك السودان في حالة اضطراب سياسى تتضارب فيه مصالح متباينة تهدد كيانه . وقد أهرقت الدماء عبثا ، وأدت الوسائل المتطرفة الى تسميم الجو وتهيته لظهور المهدي ودعوته » .

وقد كان خطر المهدي الزاحفة يهدد مديرية خط الاستواء بعد ما تحولت القوة الروحية الى قوة مادية في عدة وعديد . وكان أمين ضعيف المذهب الرأى كثير التردد لا يفكر الا في النجاة بنفسه مع الأوروبيين من طريق البحيرات الجنوبي ولو ساقه ذلك الى التضحية برجاله .

وبلغ استهتار أمين بأرواح جنوده وأعوانه من السودانيين والمصريين ،
وبالتالى بمصالح مصر ، أنه نطق فى ٢٧ مايو سنة ١٨٨٤ - فى ذلك
اليوم المنحوس على حد تعبير كازاتى - بكلمة لم تنس قط وكان لها
أثرها فى الحوادث الانقلابية التى ظهرت فى مديرية خط الاستواء ،
قال : « ان البيض لا خوف عليهم . وانى ضمين لهم بذلك . أما الجنود
السود فانى سأتركهم الى صديقى الحميم كإبريجا ، ملك الأونيورو ،
وسأأذن لنا بالمرور من أرضه » .

من ذلك اليوم فقد أمين كل سلطان على جنوده الذين أصبحوا
يجدون خلاصهم الوحيد فى قوة السلاح فوضعوا البلاذ فى قبضة يدهم .
وقد بدأوا بإخلاء المراكز الشمالية : روميك وأيك وبوفى . ومراكز
مونبوتو والشرق بينما أخذوا فى تحصين أمادى ولادو وتركيز القيادة
فى دوفيلة على بعد ١٠٠ ميل من بحيرة أليبرت .

وقد شاع ، فى أواخر سنة ١٨٨٤ ، أن قوات كبيرة يقودها كرم الله
تخصيا كانت تقصد أمادى التى تبعد خمسة أيام من لادو . وفعلا ، فى
شهر مارس سنة ١٨٨٥ ، بعد حصار منظم ، اضطرت الحامية نظرا
لانتقطاع كل مورد عنها وصعوبة المقاومة ضد قوات العدو الهائلة ،
الى شق طريقها فى صفوف العدو والانحباب الى مكراكا . وقد أثنى
المهديون فىهم القتل وكانت مجزرة شملت النساء والأطفال ، وكان حاكم
المدينة مرجان الدناصورى بين القتلى .

كتب أمين بهذه المناسبة الى المبشر فيلكن : « ظل أولئك الجنود
زمننا طويلا لا يتقاصون مرتباتهم ولا يجدون أهم الضرورات ومع ذلك
فانهم قاتلوا قتال الشجعان حتى اذا نال منهم الجوع وأنهكت قواهم
الآلام وضروب الحرمان طوال تسعة عشر يوما وأكلوا آخر قطعة من

الجلد وآخر حذاء فتحوا ثغرة في خطوط العدو ونجوا بأنفسهم (١) .
وقد طلب كرم الله الى حاكم لادو التسليم قبل أن يتحرك الى المدينة .
فما كان من أمين الا أن أسرع نحو الجنوب فوصل في يونية (٨٥)
دوفيلة وفي يولية وادلاي ، وكان هذا الهرب سببا في فقدان كل ثقة
في أمين وعدم التعويل عليه . وقد قرأ رأى الجنود وضباطهم على الدفاع
عن لادو ولكن كرم الله وعصابه عادوا أدراجهم من طريق كردفان
وزال الخطر مؤقتا عن مراكز أعالي النيل .

وكان جيش المديرية في ذلك الوقت يبلغ حوالى ١٥٠٠ رجل كلهم
من الجنود السود ما خلا الجنود المصريين القائمين بالمدفعية .
وكانت القوات موزعة في عشرة مراكز يتولى قيادتها عشرة ضباط
من المصريين وخمسة عشر من السودانيين .

وكان في النيل سفينتان بخارتان « نياسا » و « الخديوى » تساعدان
على الدفاع وتكفلان المواصلات بين المراكز المختلفة .

كتب كازاقى يقول : « اذا كان الموقف لا يزال سليما واذا كان
الشرف لم يمس : واذا كانت مديرية خط الاستواء في مأمن اليوم من
فظائع أشد هولا فان الفضل في ذلك يرجع الى عزة النفس الغريزية
عند السودانيين التى تحملهم على الدفاع عن راية أجنبية للكثيرين منهم
حنفوا بمين الولاء لها » .

وسنرى كيف يدافعون عن هذه الراية التى لم تكن أجنبية لأحد
رغما من جميع المحن .

في أواخر فبراير سنة ١٨٨٦ وصل كتاب من نوبار يدعو فيه الى
إخلاء مديرية خط الاستواء والعودة الى مصر من طريق زنجبار . وقد

(١) استشهد به فوترز في كتابه Wauters Stanley, Au Secours d'Emin Pacha

أعمن رئيس الوزارة المصرية أن الحكومة قد تخلت نهائيا عن ممتلكاتها في السودان منذ آخر مايو سنة ١٨٨٥ . ووصلت في الوقت نفسه رسالة من جون كيرك ، قنصل إنجلترا في زنجبار ، يبين فيها سبل ووسائل العودة . فقرر أمين إرسال كازاتي (مايو ٨٦) الى صديقه كاباريجا ليكفل حرية المرور من الأنبيورو ، ولكن السودانيون أجمعوا أمرهم على البقاء .

وبينا كان كازاتي يعاني كل عنت عند كاباريجا الذي ألقاه في السجن استولى الضباط السودانيون والمصريون في سنتي ٨٦ و ٨٧ على سلطات الحاكم العام واستقر رأيهم على الاحتفاظ بالمديرية .

٢ - محمد اسناني والثورة في مديرية خط الاستواء

عرفت إنجلترا أن مساعيها لم تفلح في التغلب على تردد أمين وحمل رجاله على العودة ففكرت في وسائل أخرى لتحقيق أغراضها .

كان الرحالة الروسي الألماني جونكر وصل في هذه الآونة (٤ ديسمبر سنة ١٨٨٦) زنجبار قادما من داخل أفريقيا . فاتصل به جون كيرك وأوعز اليه أن يرسل ، بتاريخ ٢٠ ديسمبر ، برقية الى أوروبا ، ينادي فيها بضرورة التعجيل بإرسال حملة في الحال لانقاذ أمين باشا .

وكانت ألمانيا في ذلك الوقت هيمنت على قسم من الساحل تمهيدا للتوغل في أفريقيا وتنفيذ سياستها الاستعمارية ، وكانت تفكر بالطبع في الاستيلاء على مديرية خط الاستواء التي كان يحكمها ألماني . ولكن إنجلترا بالطبع كانت أسبق الى « انقاذ » أمين .

ومن الغريب أن الدكتور فيلكن نشر في التيمس (٩ ديسمبر سنة ١٨٨٦) مقالا ذكر فيه صورة خطاب وصله من أمين مؤرخ في ٧ يولية ، جاء فيه : « يسعدني أن يكون في استطاعتى إبلاغك اننى في أمن وطمأنينة وان المديرية كلها هادئة » .

ثم يقول أمين : « في هذه اللحظة التي تتنافس الدول الأوربية فيها على ضمان ممتلكات لها في أفريقيا . أحقا أنه لا يوجد الآن في إنجلترا شخص يفهم بذكائه بأية سهولة يمكن اليوم ، بدون اتفاق درهم واحد ، الاستيلاء على مديرية بحالها (١) ؟ » .

روى شاييه لونج الأمريكى أنه في الساعة التي قرأ فيها استأني هذا السطور كان يحاضر في الولايات المتحدة فبادر بنقض العقد وأبحر في الحال بناء على طلب ماكينون رئيس شركة أفريقيا الشرقية التي اكتتبت بمبلغ ٢٠,٠٠٠ جنيه للحملة . وأعجب من ذلك أرغمت مصر على الاكتتاب . على دفعتين ، بمبلغ ٢٠,٠٠٠ جنيه وعلى إعطاء استأني فرقة من الجنود السودانية . وكلف جون كيرك في الوقت نفسه بتجنيد بضع مئات من الجنود والجمالين . وقر الرأي على طريق الكونغو الذي كان اكتشفه استأني سنة ١٨٧٨ .

في يناير ٨٧ غادرت الحملة لنكرة ومرت بالقاهرة في طريقها الى زنجبار حيث تكونت نهائيا من ٧٠٩ رهط مقسمة الى سبع فرق : ٩ أوربيين و ٦٣ سوداني و ١٤ سوماي و ٦٢٣ زنجباري ، وكان يرافق الحملة العربي الشهير (تيبو تيب) ومعه ٩٠ رهطا من الجنين ، فيكون المجموع حوالي ٨٠٠ نفس (٢) .

وفي ٢٤ فبراير تحركت السفينة من زنجبار ومرت بالكاب (رأس الرجاء) في ٩ مارس ، وألقت مراسيها في خليج بنافاغند مصب الكونغو في ١٨ منه .

وفي يناير سنة ٨٨ تقدم استأني وبعض أعوانه تاركا الحملة الرئيسية وراءه وخف مسرعا الى جنوب بحيرة ألبرت ونزل في معسكر كافالي .

(١) اسشهد به شاييه لونج في كتابه I 'Egypte Et Ses Provinces Perdues

(٢) تيبو - تيب واسمه الحقيقي حامد بن محمد وهو زنجباري من كبار تجار العرب في واسط أفريقيا وكان عظيم الدهاء قوى التفوذ استعان به البلجيكيون في توطيد قدمهم في الكونغو ثم حاولوا الغدر به .

وفي ٣٠ أبريل التقى مع أمين وكازاتي في الجنوب الغربي من البحيرة وأثار مسألة العودة : أريد أمين اطاعة أوامر الخديوى ووزيره نوبار باشا ؟ ولكن أمين لم يجد بدا من استشارة الموظفين والجنود في مسألة هذه الخطورة . فقرر استائلى أن يصطحب أحد ضباطه (جفسون) أمينا في رحلته الاستشارية .

وقد استعمل استائلى كل وسائل الاقناع مع أمين لينحاز الى خطته التى وصفها كازاتي وصف شاهد عيان : « بينما كان يعرض تأجيل العودة الى حين الانتهاء من حشد جميع قواته المتفرقة كان استائلى يغذى آمال الحاكم وأمانيه : فبعد أن استنفد كل بيانه فى التدليل على استحالة مقاومة المهديّة التى تزداد وطأتها مع الزمن عرض عليه يوما أن يثبتته فى الزاوية الشمالية الشرقية من بحيرة فكتوريا نيانزا حتى تتمكن شركة أفريقيا الشرقية الانجليزية من الانتفاع بتجاربه فى انشاء مراكز (محطات) على التوالى فى طريق موباسا » .

وكان بديهيا أن يفكر استائلى فى الوقت نفسه فى احتياز جنود أمين .

ومن الآن فصاعدا أخذت ألبرت نيانزا تلعب دورا فى الحوادث المتعلقة بمديرية خط الاستواء ، وعلى ضفافها سيتم الحشد الذى يسبق الرحيل الى زنجبار .

غادر استائلى البحيرة فى مايو سنة ٨٨ ولم يرجع الا فى يناير من السنة التالية (٨٩) . وقد كانت فى خلال هذه الأشهر الثمانية مديرية خط الاستواء ميدانا لحوادث خطيرة غير متوقعة .

ذكر كازاتي ^(١) وجفسون ^(٢) بالتفصيل تاريخ هذه الأيام

(١) Casati, Dix Années En Equatoria

(٢) Jephson, Emin Pasha And The Rebellion At The Equator

الحافلة . وبحسب جفسون ان أغلبية أولئك السودانيين (لعله يقصد الجنود) جندوا من قبائل الدنكا ومادى وبورى والشفالي ونيام وبونجو ومكراكا ومونبوتو . فهم وعشيرتهم وذووهم لا يحسون أنهم غرباء في هذا البلد الذى يستطيعون العيش فيه لأنه يشبه بلادهم الى حد كبير ويذكروهم بعقر دارهم .

وكان هذا السواد — أو شعب خط الاستواء كما يسمونه في إنجلترا — يتكلم باحترام عن أفندينا . « قيل لهم انه سلطانهم وان العلم الذى كان يطيب لهم أن يروه خفاقا في كل مناسبة هو علمه » .

وكانت المحطات (النقاط العسكرية) في أحسن ترتيب . كانت مراكز نظام وحضارة : فان دوفيلة مثلا كان بها جامع ومدارس وحدائق عمومية . وكان من الميسور الاعجاب بمنظر النهر من طريق يظلل سماء من جانبيه شجر دواح . وكان الجامع والمدارس مشيدة بالآجر الجميل . وكان يقوم بأمر الجامع والمدارس شيخ مرسل من القاهرة يعلم أبناء الموظفين القراءة والكتابة . وكان رجل القانون في المدينة ومرشدها الروحاني .

ظاهر مما تقدم أن النظام الذى أنشأه المصريون — وأعانهم السودانيون فيه - في قلب مديرية خط الاستواء الواسعة قد وشجت عروقه في نطن الأرض وأن أربابه من زنوج وسودانيين ومصريين لم يكن من السهل عليهم أن يتخلوا عنه . وظاهر أنهم كانوا في ريب من نيات أمين واستانلى والانجليز من ورائهما . روى كازاقى : « أنهم يرددون في كل مكان ، في تونجورو وغيرها ، ان الطريق وعر (طريق العودة) ، مخفوف بالمكاهه للأطفال ، لا زاد فيه ولا طعام . وانهم لا يعد أن يباعوا بيع السوام للانجليز الذى هم صديق صدق لأمين .

وهذه الأقوال تفتشر من محطة الى أخرى ويعلق عليها ...

والآن ترك كازاقى يقص قصته (أغسطس - أكتوبر سنة ٨٨)
مجتزئين بنشر أهم الوقائع :

« ما كاد أمين يرحل حتى جمع قومندان تونجورو المدعو سليمان أغا
— وهو نوبى من عبيد البقارة — جنوده وجميع موثقيه المدنيين وأخذ
بمخيمهم على المقاومة .. »

« وقد أرسل الكتب تلو الكتب الى مواطنه فضل المولى قومندان
فاتيكو ليساعده بقوة فى سبيل انقاذ المديرية من الخراب الذى يجره
اباشا (أمين) وأن يتزعم الحركة فى محطات الشمال على أن يتكفى هو
بتونجورو وامصوا ووادلاى . وقد كان لتلك الاقتراحات صدى بين
المتذمرين وبدأت الحركة والاتصالات بين الشمال والجنوب . »

« وقد أصدر أمين أمره بشحن جميع الذخائر الموجودة فى المخازن الى
دوفيلة فعارض الجنود وتوجسوا خيفة من المستقبل لأنهم تبينوا أنهم
أصبحوا غير أحرار فى أنفسهم وان رفضهم الاذعان للأوامر معناه تركهم
هم وأسرههم تحت رحمة السكان المحليين والعدو الخارجى . »

« أما خطاب ستانلى والتحقيق الذى يقوم به جفسون فدهما فى نظرهم
الا خدعة زائفة ... فلم يكن بد من التفكير فى الدفاع عن أنفسهم
ودره الخيانة . »

« وانقطعت الأخبار عن رجاف وييدن وكيرى ولم ترد الا رسائل
قليلة من لابوريه غفل عنها الرقباء . وبعد الانتظار بدون جدوى خمسة
عشر يوما بين القلق والشك قرر المدير أن يعود أدراجه . وفى
١٣ أغسطس (سنة ٨٨) جمعت الحامية فى ميدان قرية لابوريه وتلا عليها
جفسون خطاب ستانلى الذى ترجمه الى العربية الباشا المدير ، وطلب
اليهم أن يعلنوا رأيهم فحدثت ضوضاء ولكن لم يجرؤ أحد على التكلم .
ثم ما لبث أحد الجنود أن اخترق الصفوف شاكيا سلاحه وأعلن لحاكم

غير مكثرت أنهم يفكرون فعلا في الرحيل ولكن بعد الحصاد . فقال
جنسون : نريد ردا حاسما ونهلكم الى الغد . فالحق الجندي وصاح
قائلا : انكم تهينوننا وتكذبون علينا لأن الخديوى يأمر ولا يرجو .
ولو كان الأمر صادرا منه لكفل « انقاذ » الجميع ولم يترك كل واحد
منا يفعل ما يشاء .

وفي صبيحة اليوم التالى ذهب أمين الى خور أيو . فوصلته هناك
رسالة من صاغ دوفيلة ينبئه فيها بتخرج الأمور في المديرية ثم رسالة
ثانية يدعوها الى العودة عاجلا منعا لارتباك جديد . فلم يسمع أمينا
وجنسون وفيتا حسان الا المبادرة في ١٩ أغسطس (سنة ٨٨) بدخول
دوفيلة من الباب الشمالى . ولكن لم يتقدم أحد للقائهم وكانت الشوارع
موحشة لا أنيس بها والمدينة يخيم عليها صمت رهيب كأنها جبانة .
ولكنهم ما عتموا أن دخلوا بيوتهم حتى ظهر فجأة نفر من الجند حراسا
على مداخلها . وأصبح أمين وحسان سجينين ، أما جنسون فهو ضيف
لا يمس بسوء .

وقبل ذلك بأيام قلائل كان فضل المولى ، ومعه اليوزباشى أحمد
دنكاوى ، غادر قابو على رأس سبعين رجلا واستولى على دوفيلة بغير
قتال وسجن الصاغ وأعلن تحرير المديرية التى عرضها المدير للخطر
بدسائسه وسوء ادارته . وأنشئت في الحال حكومة مؤقتة .

« وقد تظأأ أمين لما حدث صاغرا .

وفي ٩ سبتمبر ، حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر ، ألقت « الخديوى »
مراسيها أمام تونجورو . وبعد قليل دخل على في بيتى جنسون وقص
الوقائع المحزنة التى شاهدها .

« وبما ساعد على تسهيل مهمتى أمر صادر من حكومة دوفيلة المؤقتة
الى قومندان تونجورو باظهار كل رعاية نحوى ونحو أسرتى ، وقد

وجهت الى دعوة للذهاب الى دوفيلة اذا كنت أريد اللحاق بالباشا وحضور مناقشات الجمعية العمومية التي ستجتمع فيها .

« استولى الوافدون الجدد (في تونجورو) على مخازن الذخيرة وقاموا بتفتيش دقيق في مسكن قيتا حسان ، وكان يشوب سلوكهم بعض الغلظة والجفاء . وبلغ من تعسفهم أن عاملوا سليمان أغا معاملة المستريب في أمره ، وهو الذي أشعل النار ... والمثل يقول من يزرع الرياح يحصد العاصفة . وكانت اللجنة مؤلفة من ستة أعضاء ، ضباط وموظفين ، برئاسة أحمد الدنكاوي . وجمعت هذه اللجنة الحامية كلها وشرحت لها تاريخ الحركة الثورية وأهم أغراضها : تحرير المديرية وانتصار العدالة في جميع الأراضي التابعة للخديوى ... استحسان وتصفيق من الجميع .

« وفي يوم ١٣ تحركت اللجنة الى أمصوى ، وأمرت . رغما من بعض اعتراضات قومندان المحطة ، بأن ينقل ثلاثون صندوق « جبخانة » الى دوفيلة كان استانلى أودعها في مخازن المحطة .

« وبعد أن أتمت اللجنة معاينة المخازن وتنظيم الادارة من جديد قصدت وادلاى التي أصبحت مقر الحكومة وملاذ الكثيرين من الموظفين ، المصريين بنوع خاص والفارين من استبداد قومندان المحطات النائية .

وقد نزلنا من المركب في وادلاى ، في يوم ١٨ ، وفي مساء اليوم ذاته اجتمع مجلس عام ، تتألف أغليته العظمى من الضباط والموظفين المصريين ، لبحث الطرق الكفيلة بنجاح الحركة الثورية واعداد برنامج للعرض على جمعية دوفيلة . وقد انتهز المصريون الفرصة ليمسكوا بأيديهم زمام الأمور ويمنعوا كل رأى معتدل من التسرب الى الحركة . وقد أعدوا ضد الحاكم (المدير) ورقة اتهام ظهرت فيها الأحن الشخصية .

وبعد ركوب البحر يومين قضيناها في صحبة فئة نشوانه خلعت العذار وصلنا دوفيلة . وذهب جفسون الى شقته وهي في مسكن الباشا .

وقد دهش حين رأى أذهب توا لمقابلة فضل المولى رئيس الحكومة المؤقتة الذى أذن لى بالملك لدى أمين وحضور جلسات الجمعية التى ستناقش فى مصائر المديرية .

ومما لا ريب فيه أن الحزب العسكرى حين دبر هذه الحركة التى أحدثت تغييرات كبيرة فى سياسة ادارة مديرية خط الاستواء لم يكن يفكر فى قلب المدير مكتفيا بإيجاد مجلس بجانبه ليشاركه فى المسؤولية . ولكن المصريين لم يقنعوا بهذا الحل وكانوا ذوى عدد فى وادلاى وقد استبانوا تفوقهم الذى كفتله معارفهم ، ونجحوا فى عمل تحقيق ادارى واتهام المدير والطبيب (الصيدلى فيتا حسان) والصاغ قائد الكتبية الثانية .

وفى ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٨٨ افتتحت فى دوفيلة الجمعية العمومية للنظر فى هذه المسائل المدرجة فى جلستها .

وفى صبيحة الغد اجتمع الأعضاء ومعهم ثلاثة من أساطين الولاكين الخراجين — الموظفان صبرى والطبيب والضابط مصطفى أحمد الذين يعضدهم على جابور . ونجحوا فى حمل اجمعية على توجيه الاتهام والموافقة على مشروع مرسوم بعزل أمين وفيتا حسان ووقف الصاغ .

وفى نفس اليوم أبلغ نص المرسوم الى أمين وكان موقفا من الحاكم الجديد . والصاغ حامد الذى قررت الجمعية بالاجماع ترقية الى رتبة قائم مقام . وتقرر فى الوقت نفسه استمرار سجن الباشا والدكتور والصاغ . وقد نصحت أمين بأن يذعن ويسلم . وأخيرا تذكر الثوار أن استأنى قد يعود واتفقوا على اقضاء المساجين الثلاثة فى المحطات الشمالية حتى يجعلوا من المستحيل عليهم أى هرب .

وفى ٢٨ سبتمبر ، فى تباشير الصبح ، أبلغنى سرا الصاغ سليم مطر أن مجلسا من بعض الزعماء منعقد عند اليوزباشى فضل المولى .

وكان يرأس اللجنة المكلفة بإجراء التحقيق في إدارة أمين رئيس الحسابات الذي سبق عزله من وظيفته . فلا غرابة إذن أن يصدر قرارها بإجراء تفتيش في منزل الباشا والدكتور للبحث عن الوثائق والبضائع والذخيرة الضائعة .

« وبعد نصف ساعة من نزولنا من المركب في وادلاي ، في الخامس من أكتوبر ، أحاط الجند بمنزل أمين — الذي عينت وكيله — وبعد الفحص والتفتيش في كل مكان . ترك لي أعضاء الوفد صورة محضر عليه امضاءاتهم .

« ومن ترمجور وذهب الأعضاء الى آمصوى ولكن سرعان ما وصبتهم دعوة بالعودة عاجلا الى دوفيلة حيث وصلنا في يوم ٣٠ .

« وكانت الأخبار التي سبقتنا إليها سيئة لأن ثلاث سفن بحارية آتية من الشمال ألقت مراسيها أمام (رجاف) وأنزلت جنودا هجموا على المحطة واستولوا على الحصن بعد مقاومة قصيرة من الحامية . وقد مات ثلاثة ضباط وثلاثة موظفين موتة أبطال في الدفاع عن مدخل الحصن . وكانت مجزرة مملوءة بالفظائع أعمال المنتصرون فيها القتل في الرجال والنساء والأطفال على السواء . وبعد أن أتموا ذلك العمل الحربى الرائع . أرسل العرب كتاب تهديد الى أمين حاكم مديرية خط الاستواء . وقد قص فيه عمر صالح ، قائد المهدي ، أعمال سيده الجليلة في القتال وطلب التسليم .

« حمل ذلك الكتاب ثلاثة من الدراويش فانقشر الذعر بين الثوار وفي غروب شمس يوم ١٥ نوفمبر وصل نبأ نكبة جديدة : لقد هزم المهديون ، بالقرب من رجاف ، الجنود التي يقودها القائم مقام . واقترب الخطر منا بصورة دهية فقد الكل معها صوابهم . ولذلك لم يفكر أحد في الاحتجاج حين تسلم في الغد سليم مطر القيادة العليا . وكان أول ما عني به البر بوعده : وفعلنا عقد الضباط اجتماعا قرروا فيه نقل المساجين .

وفي صبيحة يوم ١٧ ، أدت تحية الشرف لأمين الذي صعد بين
طلقات المدفع ، الى ظهر السفينة التي أقلتنا الى وادلاي » .

كان المهديون جاءوا من الخرطوم على ثلاث سفن بخارية وتسعة
زوارق وبعد أخذ رجاف ، التي حاول المصريون عبثا استردادها ، وجعل
مركز قيادتهم فيها ، احتلوا تبعا بيدن وكيري وموجي ولابوريه
وخور أيو .

وفي الخامس عشر من شهر نوفمبر (٨٨) تقدم المهديون الى مدينة
دوفيلة وضربوا عليها الحصار أربعة أيام وكان يحميها ٥٠٠ رجل بقيادة
سليم بك مطر . وقد سببت بطولة المدافعين خسائر فادحة في صفوف
المهديين فتصدعوا وولوا الأدبار . فساعدت هزيمتهم الملاحقة على تدعيم
مركز الحكومة الثورية .

كان سليم مطر يمثل العنصر المعتدل في هذه الحكومة وكان فضل
المولى الرئيس الفعلي للمعارضة المتطرفة . ولذلك كان حزب استانلي
(كازاني ، جفسون ومن اليهما) يعتمد على سليم في وصل الجبال المقطوعة
مع الحكومة الجديدة وتهيئة السبيل الى الاخلاء .

وصل في أثناء ذلك استانلي الى البحيرة (١٦ يناير سنة ١٨٨٩)
وأنشأ معسكره على هضبة تهيمن على السهل ، بالقرب من قرية الزعيم
كافالي . وهناك علم من البريد المرسل من جفسون حالة المديرية ففكر
في « اختطاف » أمين أولا . يتضح ذلك من كتابه الى جفسون بتاريخ
١٨ يناير : « استعمل كل حيثك ودهائك في اقناع أمين وأحضره معك
اني أريد انقذه فاذا تردد من جديد وقعت في حيرة وارتابك » .

وفي ٦ فبراير وصل جفسون الى كافالي . وفي الغد كتب استانلي الى
أمين . وفي ١٦ أبلغ أمين استانلي أنه منذ اليوم السابق في انصابه Nsabe
ومعه السفينتان البخاريتان وطائفة أولى من الجند تريد مغادرة البلاد .

وفي الثامن عشر ترك أمين سفيفته وتبعه كازاتي وفيتا حسان الصيدلي وسبعة ضباط بينهم سليم مطر وحواش منتصر مؤلفين وفدا مرسلا الى استانلي .

وفي ١٩ منه (فبراير ٨٩) وصلت من الداخل بقيادة استيرز ونلسون مؤخرة الجنود التي كان استانلي تركها قبل شهرين عند مازامبوني وكان أرسل اليها حديثا بريدا يأمرها فيه بالوصول الى كافالي عاجلا حتى يركز كل قواته ويستعد لمواجهة أي هجوم طارئ . .

وقد تقرر في اجتماع تمهيدي عقد اجتماع عام في اليوم التالي . وفي ذلك اليوم استقر الرأي على أن يخطر الجنود المتفرقون في المحطات المختلفة هم وأسرهم بالاخلاء على أن يمنحوا مهنة كافية للتوجه الى معسكر انصابه على شاطئ البحيرة حيث يكون التجمع .

وفي يوم ٢٥ ، عادت السفينتان ثانية من انصابه وعليهما طائفة جديدة من اللاجئين . ووصلت أمين رسالة من وادلاي تنبئه أن الثوار عادوا الى التمرد ، في غيبة سليم بك ، وانهم خلعوه وولوا بدله زعيما منهم . رأى أمين أن آماله في استعادة سلطته قد ضاعت كلها فترك معسكره وانتقل الى معسكر استانلي على الهضبة . وتقرر اعتبار شهر مهلة كافية للحاق الموالين برئيسهم وأن يكون الرحيل بعد ستة أسابيع أي في ١٠ أبريل . وعندئذ غادر سليم والضباط كافالي لتهيئة أسباب الاخلاء .

وبعد ثلاثين يوما من سفر سليم ظهرت في الأليبرت فيانزا سفينة بحارية تحمل خطابا لأمين من البيك وخطابا آخر من أحد الضباط الثوار الى « مبعوث الحكومة المصرية الجليلة » يطلب الى استانلي السماح له بالتمكن من العودة الى مصر في حراسته . وقد أحيط أمين علما أن سليم أرسل الى تونسجورو دفعة أولى من اللاجئين وانه كان في ذلك الوقت يشرف على عملية التخلي عن دوفيلة الى وادلاي كنقطة تجمع .

بادر أمين بتبليغ استائلي هذه الأخبار « المشجعة » وأبان له ضرورة مهلة ثلاثة أشهر أخرى لتركيز جميع القوات حول كافالي . ثم طلب اتخاذ قرار في هذا الشأن .

عندئذ تقرر استلاب أمين وأخذه بالقوة . وقد روى كازاتي هذا الحادث . قال :

« كان أمين لا يدري ما يصنع . كان شديد الرغبة من ناحية في إطالة المسافة بينه وبين زعماء الثورة وكان من ناحية أخرى يأنف أشد الأنف من أن يسلم نفسه للانجليز مثقلا بالقيود والأغلال وأن يكون أشبه بغنيمة يزدان بها مهرجان انتصارهم .

« كان استائلي لا يستطيع صبرا . وفي صباح ٥ أبريل أعطى التعليمات المعتادة ثم قصد أمين : وبعد أن أخذ عيه عهدا بأن لا ييوح لأحد بما سيدور بينهما من حديث أبغى بصوت قاطع أنه حدثت في الليلة الماضية محاولة سرقة الأسلحة في مساكن الزنجاريين .

— ثم أضاف قائلا : انها مؤامرات تحاك ضدي وضد الحملة . اني أعرف تماما أن الرد على قرار السفر لذي الخذناه هو المقاومة .

— اني لا أفهم ما تعنى بما تقول . واني أعتقد شخصا أنه لا أحد يجرؤ على محاولة القيام بما خيل اليك .

— دعنا من اللف والدوران يا حضرة الباشا فليس ذلك من شيتي . اني أعرض عليك حلين فاختر أيهما شئت الان : لقد عقدت امنية على تطويق المعسكر غدا صباحا بالزنجاريين واصدار الأمر بالرحيل في الحال . واني أحس في نفسي القوة على استعمال أسلحتي اذا لقيت مقاومة . ثم سأسافر معك ومع من يريد من أتباعك . واذا كنت تستنكف من العنف فاني مستعد لترحيلك خفية في حراسة أجناد يوثق بهم ثم ألحق بك بعد ساعات . ولك الخيار .

— من المستحيل أن أسلم باقتراحك . ولن أناقش أولهما . أما الثاني فانت تعلم أنه يتعذر على ترك كازاتى وفيتا وماركو .

— لا تفكر فى هؤلاء . فأتى متى تمكنت من انشاء معسكر فى أحوال ملائمة عدت اليهم بنفسى وانتزعتهم بالقوة ، اذا دعت الحاجة ، من أيدي المصريين .

— ولكنى لأرى الفائدة من استعمال وسائل كهذه بما أننا سنتحرك فى يوم ١٠ .

وهنا هاج استانلى وماج وتعلكه الغضب وضرب الأرض برجله وصاح بصوت مختق :

تسالىكم Goddam وستقع تبعة الدم المهران على رؤوسكم ! ثم انطلق الى الخارج وصفر بصفارته وذهب الى خيمته ورجع حاملا البندقية فى يده وظروف الذخيرة فى حزامه . واصطف الزنجاريون فى الميدان . وكان عدد منهم يحرس مداخل المعسكر . وقد قوضت الخيام وكومت أكواما صناديق الذخيرة والعفش .

« شاهدت هذا المنظر الخارق من عتبة مسكنى ورأيت هذا العرض العسكرى الغريب ، فاعتقدت لأول وهلة أنه استعدادا للسمر تقرر اجراء «مناورات» . . . وعبثا أسأل المارة فلا يجيب وأخيرا أرسلت الجندى المكلف بخدمتى الى أمين فعاد يهب الأرض قائلا ان الباشا يتأهب للرحيل فى الحال . فذهبت بدورى فوجدته أصفر اللون من الخنق والزمج ثم قال بصوت مرتجف :

— سترحل . ولأول مرة فى حياتى صبت على الإهانة والسباب . لقد خرق استانلى كل مبادئ اللياقة . وقد وعدت بأن لا أتكم ولذلك ألترم الصمت .

وكان الباشا تحت سطوة الخوف . وكان يخشى أن ينفذ من آن لآخر الاقتراح الأول .

وقد جمع في أثناء ذلك في الميدان كل من كان حاضرا من رجال حكومة خط الاستواء — ضباطا وجنودا وموظفين وخداما — وكان القوم جميعا في حالة زعج وقلق . لا يرون في كل هذا المهرج نذير خير . وكنت مع أمين آخر من وصلوا .

وصاح استأني : — اذا كانت عندكم شجاعة فصبوا الى صدرى بنادقكم فهأنذا وحيدا أمامكم بغير سلاح .

وقد بلغ هيجانه درجة نسي معها أنه يحمل سلاحا قويا في يده وان مائة من الزنجاريين المسلحين واقفون وراءه وقفة متأهب للقتال .

— أنا وحدي الأمر الناهي هنا فمن شاء منكم أن يقاومني قتلته بسلاحه هذا ووطنه برجلي . فلينتح هذه الناحية كل من يريد إتباعي منكم .

حدثت في أثر ذلك حركة كاملة متسقة أشبه بحركة قطيع من الشاه .

ومنذ ذلك اليوم كان المعسكر يبدو وكأنه في حالة حصار اذ ضوعفت نقط المراقبة والدوريات التي تمر طول الليل . وقد حرم الخروج وكل من يخرج يؤخذ بمخنقه .

وقد دل الاحصاء على أن عدد الأشخاص التابعين للحملة ٣٥٠ ، منهم ٢٩٤ مزودين بالسلاح وان عدد القادمين من مديرية خط الاستواء ٥٧٠ رهطا ليس معهم الا ٤٠ بندقية .

٣ — شكوبين أوغندة الجديدة (١٨٩٠ — ١٨٩٨) .

كان انتزاع أمين أول تمهيد للسيطرة الانجليزية على أعالي النيل . وعلى أثر اتفاق أول يولييه سنة ١٨٩٠ الذي عقد بين إنجلترا وألمانيا

بخصوص مناطق النفوذ في أفريقيا الشرقية تقرر ارسال لاجارد الى
أوغندا لعمل معاهدة تكفل لـانجلترا التسلط في هذه البلاد .

وكان يصحب لاجارد ٥٠ جنديا سودانيا ، بقيادة شكري أغا ،
كلهم من بقايا الجيش الصغير الذي (أقدمه) استانلي . وقد نجح لاجارد
في سياسته التي تداول بين الوعد والوعيد من حمل مواجها على امضاء
المعاهدة في ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٩٠ .

وفي ٣١ يناير سنة ١٨٩١ وصل أغنده اليوزباشي ويليامز ليعمل
تحت امرة لاجارد وكان معه ١٠٠ سواحلي (عرب الساحل) و ٧٥ سوداني
جندوا في مصر لحساب الشركة .

وقد برع لاجارد في سياسة « فرق تسد » وتغلب على جميع الصعاب
وانتصر على الحزبين الاسلامي والفرنسي اللذين كانا يزعمان الحزب
الانجليزي في أوغندا . بل سلط مسلمين على الواغندا المسلمين وقهرهم .
وكان يمثل الحزب الانجليزي منذ سنة ١٨٧٧ مبشرون من الكنيسة
الانجليزية . ثم انضم اليهم موظفو الشركة والحكومة الانجليزية في حين
أن الحزب الفرنسي كان لايمثله الا المبشرون الكاثوليك ، الآباء البيض ،
الذين وصلوا أوغندا في سنة ١٨٧٩ .

وقد كفل لاجارد بتحريم استيراد الأسلحة في أوغندا استعلاء
الحزب الانجليزي الحزبين الآخرين وأهالي أوغندا معا .

ولكن ضربة المعلم الحقيقية التي مهدت السبيل لسيطرة الانجليز على
أوغندا والأنيورو ومناطق البحيرات كانت تجنيد القوات السودانية
التابعة لمديرية خط الاستواء .

كتب جونستون يقول : « ان لاجارد هو الذي جلب القوات
السودانية الى أوغندا . وكان يتعذر في ذلك العصر أن يلجأ لاجارد الى

وسيلة أخرى إذا أراد أن يوطد السلام بين الأحزاب المتنازعة ويثبت الرقابة البريطانية . ولم يكن يحظر على البال في ذلك الوقت ارسال جنود من الهنود الى أوغندة وكان يستحيل أيضا العثور على جنود آخرين مدربين قادرين على احتمال الجو غرباء عن كل نفوذ في أوغندة (١) » .

في شهر ديسمبر (سنة ٩١) ذهب لاجارد ومعه طائفة من السودانيين الذين أتوا معه في أوغندة وعسكر في أعالي هضبة تشرف على بحيرة ألبرت . وهناك اتصل في الحال بسوداني خط الاستواء .

وكانت قد حدثت حول هذه البحيرة حوادث منذ أن غادرها أمين (مايو ٨٩) الى أن وصل لاجارد (سبتمبر ٩١) :

في ٨ مايو سنة ٨٩ غادر استانلي وحربه مزامبوني . وفي المساء وصل البريد الى أمين مبينا بأن قلاقل جديدة في وادلاي قد شلت كل مجهود لتنفيذ أوامر استانلي وأن فضل المولى بك قومندان وادلاي قد انحازت اليه معظم القوات فتوجه بها صوب التلال بعد أن استولى في ظلمة الليل على المخازن والذخائر .

وكان سليم بك في أثناء ذلك ذهب الى امصوا ، في ٢٢ أبريل ، وهناك طلب ثانية الى استانلي أن يقف في الطريق لينتظره فأبى . وبعد زمن هرب بعض الجنود من كتيبة استانلي ووصلوا الى كافالي حيث كشفوا لفصيلة سليم الصغيرة عن المكان الذي خبأ فيه استانلي الذخيرة ، (٣٥ صندوقا) .

بلغ نياً هذا الاكتشاف فضل المولى بك بينما كان معسكرا فوق تلال فانزاري وآسى بين امصوا ووادلاي وكانت قواته في هذه الآونة قد تضاعفت على أثر انضمام قوات ورفقاء سليم اليها . فأسرع بارسال ٣٨٠

(١) Harry Johnston. The Uganda Protectorate, 2 Vols (vol I. p. 237)

جنديه استولوا على ذخائر كافالي ومروا ، في طريق عودتهم ، بامصوا
حيث عاملوا سليم بك معاملة خشنه وسجنوه ولكن أطلق سراحه بعد
ذلك بقليل فانسحب مع خالصائه الى كافالي ورفع الراية المصرية عليها .
وكانت حاميته تتألف من ٩٠ رجلا = ٣٠٠ امرأة وطفل — ولكن
معارك طاحنة نشبت مع الوطنيين أفقدته ٥٠ منهم .

ثم تبين لفضل المولى بث استحالة الاحتفاظ بقوات كبيرة على النلال
فعاد الى وادلاى . وهناك اتصل سرا باندراوئش الذين كانوا راسخين
في رجاف . وقد نصبوه أميرا وكان ينتظر قدومهم في وادلاى ولكن
حاميات هذه المدينة قررت حينئذ التخلي عن زعيمها والنزول للانضمام
الى سليم بك في كافالي . وقد غادرت وادلاى حوالى مارس سنة ١٨٩١
وقطعت المسافة بينها وبين كافالي في أربعين يوما ، وكانت القوة مؤلفة
من ٨٠٠ جندي وثيق السلاح وافر الذخيرة يتبعهم ١٠,٠٠٠ نفس من
الرجال والنساء والأطفال .

في هذه الفترة بالذات (أبريل ٩١) ، قبل وصول جموع قوات وادلاى ،
كان أمين باشا عاد من الساحل الى كافالي وبرفقته الدكتور الألماني
اشتولمان وقوة من الزنجباريين . وقد أبلغ أمين سليم بك أنه أصبح
يشغل في خدمة الحكومة الألمانية وأنه من الأفضل أن يضم قواته الى
قوات أمين في ظل الراية الألمانية .

أجاب سليم من فوره أنه رعية مصرية وأن رجلاه جنود في خدمة
الحكومة المصرية فمن المستحيل والحالة هذه تحقيق طلب أمين . ولم
يجرؤ أمين على الذهاب الى وادلاى واكتفى بالتصريح عن نيته اكتشاف
البلاد الكائنة في الغرب وفي الشمال الغربى . ثم طلب متطوعين . وبعد
المكث بضعة أيام في كافالي استطاع أن ينتزع من رهط سليم أربعين

رجلا بادر أكثرهم ، في أثناء الطريق الى الحرب والعودة الى كافالي (١) .
وكانت طليعة قوات وادلای وصلت الى كافالي فذهب سليم بك الى
ماهاجي ليرافق بقية القوات القادمة . وفي أثناء غيابه وصل لاجارد
بالقرب من كافالي . وبعد أيام قلائل كانت قوات مديرية خط الاستواء
كلها مجتمعة في القرية . ويؤكد لاجارد أنها كانت تنوى التحرك

(١) كان أمين عاد مع حملة استانلي ولكنه عند وصوله الى الساحل
دخل خدمة الحكومة الألمانية وعاد الى بحيرة البيرت ليحاول بنفذه
الاستيلاء على مديرية خط الاستواء ليوطد النفوذ الألماني عند منابع النيل
ولكنه لم ينجح في مهمته . وقد بقي في هذه الأرجاء حتى قتله العرب في
سنة ١٨٩٢ . وقد كتب أحد المعارفين ببواطن شؤون العرب هناك أوسكار
يومان مقالا في (الجريدة الحرة) Neue Freie Presse التي تصدر في فيينا
فصلا عن أسباب موته جاء فيه :

«لا شك ان أمين ما كان يتعرض له أحد في طريقه لولا حوادث أعالي
الكونغو التي بدلت الموقف تبديلا تاما . ذلك ان مسلك حكومة الكونغو الى
ذلك الوقت نحو تجار الرقيق العرب كان مسلك المتأنى المتودد في الظاهر .
ثم قر الرأي فجأة على اتخاذ اجراءات حازمة لقمعهم فأرسلت حملات
كثيرة ضدهم ، وكانت أحداها برئاسة كيركهوفن توغلت شمال أروبي
الملاصقة للمنطقة التي كان فيها أمين مع رجال سيد بن عبيد . وقد حدثت
مواقع دامية وعصف (كيركهوفن) بعدة معسكرات عربية واستولى على
كميات كبيرة من مخزون العاج ، فأوغر ذلك صدور العرب الى أقصى حد ،
وكانت النتيجة المباشرة قتل الكثيرين من وكلاء الشركات البلجيكية
التجارية الذين يعيشون في أعالي الكونغو وكانوا على اتم وفاق وصفاء
مع العرب .

«وكان العرب من قبل يخشون مغبة قتل الأوربيين ولكنهم أصبحوا
لا يبالون بشيء بعد ان اثبت عليهم حرب افناء لا رحمة فيها .

«على أنه رغما من كل ذلك فانه ما كان أحد من العرب يتعرض لحياة
أمين لان العرب الأفريقيين كانوا ينظرون اليه كشخصية شرقية كبيرة ،
وكانوا بسبب علمه الواسع بالإسلام يعتبرونه الى حد ما وسيطا بينهم
وبين الألمان . ولكن أمين قد اضطر الى اتباع خطة العداء الصريح نحو العرب
حين عصف بمعسكر أعداء «الحماية» الألمانية ، تجار السلاح العرب في
ماجو MaoJo على ساحل فكتوريا نيانزا ، وأعدم زعماءهم واستولى على
مقادير هائلة من البضائع والأسلحة ..

(انظر ص ٢٩٢ - ٢٩٣ من الجزء الثاني من كتاب حياة أمين باشا

Emin Pasha, His Life And Work By Georg Schweitzer 2 Vols.

صوب الجنوب (صوب أوغنده في الغالب) بمجرد وصول آخر قسم منها الى كافالي .

وفي ٧ سبتمبر عسكر لاجارد بازاء القرية السودانية ومقر سليم الذي كان في الناحية الأخرى من نهر صغير يفصل بينهما .

وفي ١١ سبتمبر اجتمع الزعميان . وكان سليم سودانيا ضخمة الجثمان ، رفيع البنيان ، عظيما جدا في خلقه . وكان من ضباط الأتالي السوداني الشهير الذي اشترك ، تحت قيادة بازين ، في حرب المكسيك . وكان حاكما لامرولى في أيام غردون . قال لاجارد يصف لقاءه سليم بك : « لقد ذكرنى طويلا كيف شاب رأسه في خدمة الخديوى وأنه لن يتحول عن ولائه لراية قد خاطر بحياته مائة مره في سبيلها ، وأنه لن يتردد في الانضمام الى طواعية اذا كان عندي » تصريح « من الخديوى ، وأنه بدون ذلك لن يخدم تحت راية أخرى ^(١) » .

وبعد مفاوضات طويلة وعد لاجارد بطلب اذن من الخديوى ، فقبل سليم بوضع قواته تحت امره الضابط الانجليزى حتى يصل رد الخديوى . وفي الغد أراد سليم أن يشترط أن تكون له السلطة التامة على جنوده وأن يظل الجنود مترابطين في مراكز متدانية لغاية القرار الهائى ، فأبى لاجارد ثم حاول توطيد السلم في مديرية خط الاستواء أو بعبارة أدق الاستيلاء عليها من جديد بواسطة قوات سليم ، ولكن سليم عارض بقوة .

وكان هذا التأجيل القهرى لحظة لاجارد الخاصة بمديرية خط الاستواء ، بعد أن جلا عنها المصريون جميعا منذ استقرارهم في كافالي في أقصى الجنوب الغربى من بحيرة ألبرت ، مدعاة الى التفكير المر في

(١) F. D. Lugard, The Rise of our Eastern African Empire, 2 vols. 1893 (Vol. ix p. 210).

نتائج حملة استانلى . قال لاجارد : « ان نتيجة حملة الانتقاد كان يرئى لها على الأقل من ناحية أن حماة السودان الجنوبي الطبيعيين وذادته قد سحوا منه ليركوا البلاد نهبا للقوضى والحرب المدنية والدرائش » .
ثم ختم لاجارد قائلا : « لا أقصد بذلك توجيه أى نقد صريح الى حملة الانتقاد ، لأن نتائج كهذه لم تكن متوقعة (١) » .

كتب هذا سنة ١٨٩١ والواقع أن سياسة الاخلاء التى أرعت عليها مصر منذ سنة ١٨٨٣ فى السودان وملحقاته كانت نتائجها واحدة ...

وقد قضى سليم وأعوانه القليلون فى كافالى أكثر من سنتين عاشوا فى خلالها عيشة قوم متحضرين : « لقد جلبوا معهم بذرة القطن وزرعوه وجمعوه فى الحقل ، وعلى مناوهم البدائية نسجوا « قماش » المعاطف و « البنطلونات » التى كانوا يلبسونها . وكانوا لا يزالون يتداولون قطعا من العملة المضروبة ، وكان الكتبة المصريون قائمين بكتابة الكتب الرسمية المرسلة من سليم الى محطاته المتقدمة والى رؤوسيه من الضباط . وبالجملة كان يوجد وسط المظهر الوحشى للجنود اللابيين جلود الحيوان ، والنساء العاريات ، والألواح المصنوعة من القش .
مجهود ظاهر ، تمز رؤيته فى النفس ، للمحافظة على النظام الذى يدعو به باعتبارهم جنود حكومة متحضرة (٢) » .

وفى أثناء عرض عسكري حدث فى ١٧ سبتمبر ، قبيل الرحيل ، لم يتطع لاجارد أن يملك عواطفه أمام ذلك المنظر المؤثر الحافل بعلاغم ابطولة والولاء : « كانت كل كتيبة تمر وموسيفاتها فى المقدمة . وقد أخبرنى سليم أن أولئك الجنود — حوالى ٦٠٠ — كانوا كل مابقى من ٣٠٠٠ مقاتل . وفعلا كان الكثيرون منهم مشوهى الوجه بالجروح

(١) Lugard, Vol. II. p. 213

(٢) Lugard, Vol. II. p. 218

ومات الآخرون في أثناء القتال من أجل رايتهم . وكان من المستحيل أن لا تعرفوا الانسان هزة اعجاب لرؤية أوئك الجنود المتروكين وهم يحملون في سيرهم راية بعد أخرى ممزقة ومخرقة من أثر الملاحم الشديدة التي اشتبكوا فيها مع المهديين . وكان يبدو عليهم التعصب في ولائهم لشارة الخديوى . وكان بينهم رجل كبير السن مرزاً في عقبه منذ حصار دوفيلة يسمى بلال بك ، وكان جسمه مغطى بالجروح وذراعاها لا تسعها . بعد أن مرقهما الرصاص كل ممزق ، كانت حماسة ذلك الرجل لا تعرف حداً ، وكان لا ينفك يقطع بابتهاالاته ودعواته كل حركة » .

وقد تم بعد ظهر ذلك اليوم الانحاض بين لاجارد واخامية على لرحيل . ولكن لم ينس لاجارد قبل تحركه أن يعقد معاهدات مع كبار الزعماء المحليين الثلاثة : كافالى وكاتونزى وموجينى وأن يعطيهم راية الشركة لتحل محل راية الخديوى !

وقد عمل بعد ذلك لاجارد ، في أثناء رحلته العودة الى أوغندة ، على تقسيم قواته الجديدة وترك معظمها عن قصد موزعا بين حصون ومحطات كثيرة واقعة على حدود الأونيورو وفي جنوب طورو Toru وهذه الأخيرة مملكة حديثة خلقها الشركة وكان يحكمها أمير اسمه كازاجاما من أسرة الأونيورو الملكية .

وقد وكل لاجارد الى صابط انجليزى ، دى وتون ، السطه الفعلية في المديرية ليكتب الملك والسودانيين ثم انحدر الى أوغندة في منتصف ديسمبر سنة ١٨٩١ بعد غيبة ستة أشهر .

وفي أواخر الشهر (ديسمبر) دخل لاجارد أرض أوغندة وقرر انشاء محطة في ميناء واقع بين جزيرة لوامو واليابسة ، وترك فيه قوة صغيرة بقيادة ضابط سودانى ذى عزيمة واخلاص اسمه فرج أفندى ، وخمسة وعشرين من الصناع السودانيين جاءوا من كافال مع أهلهم وذويهم .

كان المجموع ١٥٠ رهطاً . وكان لاجارد يقدر المزايا الكبرى للارتفاع بأولئك الصناع في بناء السفن وترقية التجارة في ذلك القسم من أوغندة بل وفي التأهب للمعارك المقبلة .

وقد منح لاجارد أعماله في اثناء الستة أشهر الأخيرة من سنة ١٨٩١ ، قال : « لقد عقدنا معاهدات ووضعنا تحت حماية الشركة كل البلاد الواقعة في غرب أوغندة لغاية حدود الكونغو وعلى طول مجرى الروينزورى لغاية بحيرة أليبرت في الشمال . وقد أغلقت تقريبا جميع طرق استيراد الأسلحة والذخيرة ، وشيدت سبعة حصون ، وضمت بحيرة ساليه . وتم « اقتاذ » السودانيين واقرارهم مع ضباطهم في المديرية الجديدة وعين دى وتون والملك الشاب كازاجاما لتنظيم شؤون البلاد وإدارتها ومراقبة أى خروج عن الجادة من ناحية السودانيين (كذا) . وقد عبد طريق للنقل من بحيرة فكتوريا الى بحيرة أليبرت . وأخيرا أحضرت معي مائة من خيرة المقاتلين ليحلوا محل الحالين في أوغندة ، وكانت هذه القوة كافية وقتذاك بينما كانت لنا في الحصون المختلفة قوات احتياطية واسعة نستمد منها في أية لحظة (١) » .

وفي أثناء الطريق ، بالقرب من كامبالا وصلت الى لاجارد الأوامر بإخلاء أوغندة في الحال لأن الشركة قررت الانسحاب الى الساحل وتوقيع معاهدة جديدة مع موانجا . وكانت هذه الأوامر مرسلة من مديري الشركة في لندن ومؤرخة في ٤ ديسمبر سنة ١٨٩٠ — أى منذ سنة — وقد أملت بها صعوبات الشركة المالية وحالة المديرية المضطربة في ذلك الوقت .

وبعلا حين عاد لاجارد الى منجو في أوائل سنة ١٨٩٢ كان الكاثوليك والبروتستانت مشتبكين في حروب مدنية فظيعة . وقد هاجم الحزب

الفرنسي حصن لاجارد على تل كامبلا ولكنه رد على أعقابه . ولجأ الملك موانجا الى الفرار ورفعت راية الشركة على قصره الخشي . وكان وضع نفسه تحت حماية المبشرين الفرنسيين اللاجئين الى جزيرة بولنجوجوا Bulungugwe فلما هاجم لاجارد هذه الجزيرة (١) لاذ الملك هربا بالحدود الألمانية . وقد فاوض لاجارد موانجا بواسطة نسائه وهدده ان لم يعد بتنصيب امبوجو ، زعيم الحزب الاسلامي ، على العرش ، وبتهاجة الفرنسيين ، من الجوانب . ان لم يذعنوا ، بواسطة السودانيين النازلين في الطورو والواغندة المسلمين . مما اضطر موانجا وحلفاءه الكاثوليك الى العودة الى عاصمة البلاد كامبلا في أوائل أبريل وتوقيع معاهدة صلح بين الطرفين .

وفي أثناء ذلك كان كاباريجا هاجم حصون السودانيين ولكنهم قهروه وأرغموه على طلب الصلح . وكان كاباريجا أكبر حليف للمسلمين في أوغندة .

حاول لاجارد بعد ذلك نسوية المشكلة الاسلامية فاقترح اسكان الواغندة المسلمين في بقعة من الأرض محصورة بين المنطقة الكاثوليكية والمنطقة البروتستانتية ليكون من السهل مراقبتها وتكون من ناحية

(١) كتب دارسي Darcy في كتابه Cent Années de Rivalités Coloniales يقول : « سار لاجارد على رأس قوات عسكرية عظيمة وتوغل لغاية منجو Mengo مقر الملك موانجا وفرض عليه معاهدة حماية ، ثم اهل بهاجم الكاثوليك بذريعة واهية وطردهم فاطردوا في جزيرة كبرى بحيرة فكتوريا كان يوجد فيها حول الملك والمبشرين الفرنسيين عدد ضخم من اللاجئين من الرجال والنساء والاطفال . وقد صوب لاجارد مدافعه ضد أولئك الضعفاء العزل فأقنى قسما كبيرا منهم ، ثم أمعن في سياسة التدمير والتقتيل وأرخص العنان لقواته وأنصاره فحرقوا كل قرى الابهاء البيض ومحطاتهم وكنائسهم ومزارعهم ، وكان لاجارد لايجعل ان محو الكاثوليك معناه محو النفوذ الفرنسي في أوغندة ، ولذلك لم يبق أثر من العمل الذي تعب في تشييده مواطنونا (١٨٩١) » .

أخرى نقطة توازن بين الحزبين . ولكن لاجارد كان يريد اضعاف الحزب الاسلامى الى أقصى حد فاشترط على الواغندة تسليم ملكهم امبوجو . وكان سليم بك هو الرجل الوحيد الذى باستطاعته حمل المسلمين على قبول شرط كهذا . قال لاجارد : « فى اليوم التالى لامضاء المعاهدة مع موانجا (أى فى ١١ أبريل) ذهب الرسل المسلمون ليحيطوا حزبهم بشروطنا فأرسلت معهم سليم بك الذى كنت أثق فى اخلاصه كل الثقة والذى كانوا يسمونه ملك « الترك » وتعنو النفوس لمكانته العالية . وقد كلف باستعمال كل نفوذه لدفع المسلمين الى قبول شروطى والتخلى عن ملكهم . وفى حالة نجاح مهمته كان عليه أن يذهب فى الحال صوب الطورو وتولى قيادة السودانين ، مكان دى وتون الذى توفى ، وتقريب الحصون من أوغندة . وكنت آمل بهذه الطريقة إيجاد تهديد محسوس خلف الحزبين الاسلامى والفرنسى ومنع خطر أى تهور من ناحية السودانين فى الحصون البعيدة نظرا لسهولة المواصلات مع كامبالا . وقد اضطر سليم الى أن يحلف على القرآن لامبوجو « أنه سيكون شخصا مسؤولا عن أى أذى يلحق به من ناحية لاجارد » .

وتمكن لاجارد فى النهاية بفضل السودانين وزعماء منهم أمشال سليم بك وفرج أفندى وهذا الأخير من جنود كىلا وأبطالها القدماء من اقامة السيطرة الانجليزية فى أوغندة والأنيورو على قواعد وثيقة . وانتهت مهمته فى يونيه سنة ١٨٩٢ .

وقد كانت عودة لاجارد الى لندرة فى سبتمبر سببا فى اثاره مسألة أوغندة بحذاقيرها والتفكير فى حلول الحكومة الانجليزية محل الشركة فى ادارة مملكة تمتد من موباسا الى النيل الأبيض وتبلغ مساحتها وقتئذ ٣٠٠,٠٠٠ ميل مربع .

ولذلك بادرت حكومة غلادستون بارسال جيرالد بورتال

Gerald Portal ليكتب تقريراً عن الحالة في أوغندا وإعلان الحماية
الإنجليزية عليها .

ترك بورتال زنجبار قاصداً أوغندا في أول يناير سنة ١٨٩٣ وكان
برفقته الصاغ أوين Owen وبركلاي Berkeley قنصل صاحب الجلالة
ومدير ممتلكات الشركة في موليبياسة و ٢٠٠ رجل مسلح من زنجبار .
وكان بورتال يعول كثيراً على هذه القوة « كعامل جديد ذي شأن في
التسوية المحتملة لمسألة أفريقيا الشرقية كلها » . ولكن خاب ظنه في
الطريق واتضح له كما اتضح لجميع الضباط « أنهم أشد الناس كسلاً
وأقذرهم ، وأنهم أحط بمجموعة من الرجال قدر له . لسوء الطالع ، أن
ينعامل معهم ^(١) » .

وقد وصل المدوب (قومبيير) الجديد إلى كامبالا في مارس
سنة ١٨٩٣ . وهناك وجد الصاغ ويليامز الذي نبطت به إدارة البلاد
بعد سفر لاجارد واليوزباشي ماكدونالد وجيدج Gedge مراسل
التييس .

وبمجرد وصوله قرر وضع يده على جميع الحاميات السودانية وإرسال
أوين إلى مملكة الطورو لتنفيذ هذه الخطة . وفي أول أبريل نصب علم
الحكومة الإنجليزية مكان علم الشركة . وبعد أن تجمعت لدى أوين قوة
مؤلفة من ٥٠٠ سوداني « وكل إليها عملياً مهمة الدفاع عن البلاد ^(٢) » .

وقبل أن يغادر البلاد أرسل تقريره إلى روزيري وطلب تعيين
ماكدونالد مندوباً لأوغندا وملحقاً بها . وقد أُلح في تقريره في ضرورة
عدم التخلي عن أوغندا « التي تهيمن بمركزها الحربي على أعالي النيل

(١) Gerald Portal, The Mission To Uganda. London, 1894 p. 9

(٢) Lugard, Vol. II, p. 559

والبحيرات » . وألح أيضا في المطالبة بإنشاء خط حديد بين موباسا وبحيرة فكتوريا ^(١) باعتبار أن مسألة تمدين السكان ، والاشراف التجارى والسياسى على مياه النيل الأعلى ، والقضاء على الحروب الداخلية هى قبل كل شئ « مسألة ثقل ومواصلات .

وبينما كان بورتال في طريقه الى الساحل حاول ماكدونالد التخلص من الحزب الاسلامى ورئيسيه امبوجا وسليم بك . وما كاد يصل بورتال الى جواسوماسا ، على بعد ٢٠٠ ميل من كامبالا ، حتى بلغت رسائل من ماكدونالد تطلب عودته « بسبب الاختلافات الخطيرة مع الحزب الاسلامى وتدمير القوات السودانية » . وقد اضطر بورتال الى الوقوف زمنا في كافيروندو Kavirondo وهناك وصله بريد جديد من أوغندة ينبئ بأن لا ضرورة لعودته (يولييه سنة ٩٣) : ادعى ماكدونالد أن رئيس الجنود السودانيين حاول سوقهم الى التمرد ليتآزروا مع المسلمين ضد المسيحيين ، ولكن الفتنة قد قضى عليها كما أن سليم بك وبعض زعماء الواغندة قد أرسلوا مع جيدج كآسرى أو كنفين . وقد وصل جيدج في ٢٦ يولييه الى موميا وسلم الى بورتال « العاصى » سليم ، وخليطا كبيرا من النساء والأطفال السودانية التى كان يراد ترحيلها الى الساحل ، وأخا الملك موانجا ، آمبوجا زعيم الواغندة المسلمين الذى كان يستحب إبعاده ^(٢) .

وفى يوم ٢٧ (يولييه) سار بورتال مع عمله ليجتاز طوال ثلاثة أسابيع بلادا وعرة موبوءة تعرقل الحركة فيها سيول الأمطار المنهمرة بلا انقطاع وفيضان الأنهر والمستنقعات الغزيرة .

وفى ١٦ أغسطس سنة ٩٣ فى منتصف الليل ، مات سليم ، بدءا فى

(١) بدأ إنشاء السكة الحديد فى سنة ١٨٩٦ وتم فى سنة ١٩٠٢ .

(٢) Gerald Portal, The Mission To Uganda p. 262 .

القلب . ولم يجد بورتال في مذكراته ما يقوله عن موت ذلك السوداني العظيم : ولا شك أن القضاء على الحزب الاسلامي وزعمائه الذين أصبحوا ثقلا على الانجليز كان أمرا مبيتا ومتفقا عليه بين بورتال وماكدونالد في كامبالا نفسها .

وقد كتب لاجارد ، بهذه المناسبة ، يقول : « أنبأنا البرقيات حديثا أن ماكدونالد قد أثبت تهمة الخيانة على سليم والتواطؤ مع الواغدة المسلمين لقلب الانجليز الخ . » وإذا كان لي أن أحكم بمقتضى التقارير التي وصلت في انجلترا فإن الحذر الذي أبداه سليم بك حين بان له أن المسلمين لم يعاملوا بالانصاف لا يمكن تسميته « خيانة » . وقد كان في ذلك الوقت يموت بداء عضال ، ومع ذلك أرغموه أن يسير نحو الساحل فمات بالطبع . وان تاريخ الحوادث الذي رويته في كتابي ليثبت أن سليم ، قد دفعه اخلاصه لي الى المحاطرة بحياته ، وان اليه يرجع الفضل بصفة خاصة في التسوية التي تمت مع المسلمين ، وذلك في وقت لو أنه أراد أن يخون لوجد الطريق ميسرا أمامه إذ كان السودانيون في الطورو على مقربة منه ، وكانوا يطيعونه طاعة عمياء ، وكان حزب الواغدة المسلمين لا يتردد في قبول الدعوة . ولكن سليم ظل أمين ، راني أعرف الرجل الذي كنت أصاحبه . فلا بد أن يكون قد حدث مجرد غريب من اللباقة ليتحول هذا الولاء الخالص الى عداوة ، مع أن سليم كان رجلا يشارف الموت ! زعموا أن سليم صار كثير الاعتداد بنفسه بسبب الطريقة التي عاملته وعامله بها وليامز . وان مثل هذا الاعتداد غير مقبول عند رؤوس أجير . ولكن سليم لم يكن ضابطا « مجندا » أجيرا حين كنا في أوغندة . كان حائزا لرتبة البكوية في الجيش المصري وهي ثاني رتبة فيه . وقد تولى القيادة السنوات الطوال في مناطق كثيرة ، فلم يكن من اللائق مطلقا أن يعامل بفتنة معاملة ضابط صغير . وكان من المتفق عليه بيننا أن يعود الى مصر وكان يجب أن يسافر بمجرد تجنيد السودانيين .

وانى ليحزنتى شخصيا أن أفكر أن ذلك الجندي القديم الذى اختاره
غردون لتولى القيادة فى امرولى وأخذ بشجاعته وحنكته ودوقيلة وخاطر
بحياته فى سبيل اخلاصه لى قد أبعد على عجل وهو فى حالة موت ،
ذليلا مهانا ، ليهلك فى الطريق طريدا شريدا (١) .

أما سواد الحزب الاسلامى الأعظم ، بعد سفر بورتال ، فقد شتته
المسيحيون ومحقوه طبقا لخطه مدبرة بلا شك بين بورتال وماكدونالد
والمبشرين الانجليز .

وفى مايو سنة ١٨٩٤ خف الأميرالاي كولفيل ماكدونالد بصفة
مندوب لحماية أوغندة الجديدة ، وقد أقام فيها أكثر من عام . وأهم
أعماله استعانت بال sudanese فى اذلال كاباريجا ملك الأنبيورو وابادة
قوته ، ورفع الراية الانجليزية فى وادلاى فى مديرية حط الاستواء
القديمة ، وضم أجزاء واسعة من الأنبيورو الجنوبية الى مملكة أوغندة ،
واعادة تنظيم ادارة الحماية ، وجعل العاصمة فى انتيب Entebbe

ولكن لأجل توطيد سلطان الحماية الانجليزية كان لا بد من القضاء
على كل الثورات والفتن المحلية والعمل فى الوقت نفسه على افناء
القوات السودانية بسوقهم فى كل مكان لاختاد الفتن التى لا انقطاع لها
وانهاكها بأعمال خسنة ومهمات بعيدة فى غابات أوغندة والأنبيورو
وصحاريهما وأحيانا فيما وراء حدودهما .

لم يذق أولئك السودان طعم الراحة يوما واحدا منذ جندهم
لاجارد فى سبتمبر سنة ٩١ . وبعد سفر لاجارد « أدوا خدمة جليلة
بتقاتلتهم البانيورو والباجنده العصاة » ، وفى الأشهر الأخيرة من مأمورية
لاجارد وبعدها قاموا بمساعدات قيمة لمكدونالد نفسه ، الذى كان عين فى
أواخر سنة ٩١ رئيس المهندسين المكلفين بالدراسات التمهيدية لمشروع

السكة الحديد في أوغندة ، ولأعوامه اليوزباشى برنجل Pringle والصاغ كانجهم Cunningham الذى عهد اليه بتنظيم قوة مسلحة وغيرهما .

كان مكدونالد رجلا فيه شراسة وشكاسة . وقد شاءت الأقدار أن يعود ثانية في سنة ١٨٩٧ على رأس حملة وبرفته الصاغ أوستن Austin الذى اشتغل تحت رياسة مكدونالد في أوغندة في سنتي ١٨٩٠ - ١٨٩١ واليوزباشى برنجل الذى اشتغل في سنتي ١٨٩١ - ١٨٩٢ وضباط آخرين من الهند .

غادرت هذه الحملة بومباي في ١٨ يونية سنة ١٨٩٧ ووصلت مونباسة في ٩ يولية في طريقها الى أوغندة . وقد استغرق قطع المسافة في الداخل ثلاثة أشهر . أما غرض الحملة فيجب أن نذكر أنه كان تقرر في سنة ١٨٩٧ الزحف نحو الخرطوم لسيق مارشان (حملة فاشودة الشهيرة) واتقاء الخطر الذى يتهدد النيل الأبيض .

وكانت خطة الانجليز المزدوجة اعادة فتح السودان بمهاجمته من الشمال والتوغل في نفس الوقت في جنوبه من ناحية أوغندة . وقد صرحت وزارة الخارجية الانجليزية لماكدونالد أن يأخذ معه القوات السودانية وكانت عائدة في ذلك الوقت من مطاردة قوات موانجا في اقليم بودو Buddu فان موانجا بعد أن يئس من خلع فير الانجليز اضطر الى الفرار واليأذ بالمنطقة الألمانية .

وقد شرح هارى جونستون ، الذى عين فيما بعد خاكما عاما لأوغندة ، تاريخ ثورة السودانين في سنة ١٨٩٧ وأسبابها ورغما من تحيزه الظاهر في بعض المواطن فان كتابته محاولة جديدة لابرار الحقيقة وحسبه أنه بين لنا بعض ما كان يشغل بال الانجليز في ذلك الوقت .

بعد أن ذكر الخدمات التى أداها السودانيون في عهد مكدونالد الأول (٩١ - ٩٢) قال جونستون : « ان السهولة التى تمكن بها أولئك

السودانيون الشجعان الأوفياء من دحر قوات قبائل البانيورو العظيمة والباجنة والباهايا قد ولدت في نفوسهم أشد الاحتقار للسكان الوطنيين في الحماية من وثنيين ومسيحيين . أنهم مسلمون متعصبون كانوا يحترقون في داخل سريرتهم الرجل الأبيض باعتباره مشركا وكانوا يحملون دائما بتأسيس ممالك من صنعهم في هذه الأقطار الخصبة التي يسهل فتحها . ويمكن القول ان ضباطهم (الانجليز) لم يكن اختيارهم في كل الأحوال موفقا ، وقد سلك بعضهم نحوهم مسلكا فظا غليظا .

« وكانت الادارة بسبب مشاق النقل الكبرى التي أصبحت من مستلزمات شحن البضائع وغيرها من ساحل أفريقيا الشرقي عاجزة عن أن تدفع لأولئك السودانيين أجورا مناسبة ، في البداية ، أو تدفع الأجور بانتظام . فترتب على هذه الحالة وجود متأخر مرتبات متراكمة . وعدا ذلك ، شاعت الحوادث كهرب مواجها وثورة الناندي^(١) Nandi

التي أعقبته بقليل في الجزء الشرقي من الحماية أن يرسل السودانيون عاجلا في مكان سحيق مئات من الأميال سيرا على الأقدام في أرجاء الحماية من قسم الى الآخر . ولم يكونوا مطمئنين على نساءهم لأن زنوج أواسط السودان مولعون بتعدد الزوجات وهم يحبون أن تلازمهم نساؤهم أي يذهبون ليقضوا حاجاتهم في حياة المعسكر ، ولكن سرعة الحركات العسكرية فرقت بينهم وبين زوجاتهم وأبنائهم وحشمتهم . وكانت هذه الفرقة تدوم أحيانا أربعة أو خمسة أشهر متوالية . ولذلك كانت صدورهم موهرة وروح التمرد الكامن تفتلي فيهم حتى حدث حادث اندفعت به الثورة » .

(١) تكلم جونستون في كتابه : افريقيا (ص ٣٨٦) عن القوات السودانية «التي كانت على الدوام مشتبكة في حروب ضد القبائل الوحشية الجبلية في هضبة الناندي ، وضد ملك الوافندة الذي انقلب على الانجليز وأصبح مسلما ، وضد قوات الاونيورو التي كانت تحاول استرداد الأراضي المفقودة» .

وصف جونستون بعد ذلك حملة مكدونالد وحالة الجنود الذين سيراقتونه : « كانوا مرهقين بالتعب وبفارقة زوجاتهم باستمرار ، مع شديد تعلقهم بهن ، وكانوا لا يحسنون الظن بنزاهة الادارة بسبب عدم دفع المتأخر لهم . وكانوا يخشون الهلاك في بلاد مجهولة بعيدة كل البعد عن البلاد التي ألفوها . لذلك قرروا أن لا يرافقوا الحملة وأن يعرضوا شكواهم في الوقت نفسه على أحد الضباط الانجليز في كامبالا . ولكن هذا الأخير رفض أن يستمع اليهم فأجمعوا أمرهم على تنفيذ الأوامر على أن يذهبوا فقط الى محطة رافين Ravine في المديرية الشرقية ، للقاء مكدونالد فيها . وهناك كان أملهم عظيما في الاتصال بجاكسون أحد كبار الموظفين المدنيين لأنهم كانوا يعرفونه جيدا ويحبون فيه ميلا الى العدالة وكانوا يريدون منه أن يتوسط لهم في الغاء الأمر الصادر اليهم بالخروج من البلاد مع مكدونالد .

ولكنهم حين وصلوا رافين أبلغوا أن الأمر يجب تنفيذه أما فيما يتعلق بتظلمهم الخاص بتأخر مرتباتهم وبالعامل المطرد في الحملات المختلفة فسينظر فيها بعد عودتهم من حملة مكدونالد . وعلى أثر سوء تفاهم وقع بين السودانيين وأحد ضباط الحملة في رافين صدر الأمر للسودانيين بتسليم أسلحتهم فرفضوا ، ثم أطلقت النار من فوق رؤوسهم فثاروا جبهة وحاولوا الوصول الى قلب أوغندة مخربين في طريقهم المحطات والمخازن وما اليها . وقد تمكنوا أخيرا من الاستيلاء على حصن لوبا Luba وأسر الصاغ ثرستون Thruston وبعض الانجليز وتنفيذ حكم الاعدام فيهم » .

وهنا يقول جونستون : « ان الحوادث التالية حديثة جدا وليست بحاجة الى التعريف (١) » .

(١) H. Johnston, The Uganda Protectorate (vol. I. pp. 239-243)

وتتلخص هذه الحوادث في أن ماكدونالد ، بمساعدة جاكسون ونفر من الضباط والموظفين . وأعضاء الجمعية التبشيرية البروتستانتية ، تمكن بعد عراك جبار في ظروف صعبة ، من التغلب على الثوار وطردهم من أراضي حماية أوغندا .

وقد سرد أوستن ، الذي اشترك في حروب ماكدونالد ، حوادث سنة ١٨٩٧ (١) . بحسب هذا المؤلف ، في بداية الثورة وخصوصا في وقت حصار لوبا العصيب كانت حاميات أوغندا كلها مؤلفة من السودانيين الذين يبلغ عددهم حوالي الألف جندي . وكان في الأتيورو من ٤٠٠ الى ٥٠٠ سوداني موزعين بين ستة مراكز على مسافات شاسعة جدا تحت اشراف القائم مقام داجمور Dugmor الذي كان مقره الرئيسي في مازندي . وفي اقليم الطورو الغربي Toru كان يوجد اليوزباشي سيتويل Sitwell ومعه فصيلة من السودانيين ظلت على ولائها ابان الثورة كلها وقامت فيما بعد بعمل رائع ضد قوات موانجا حين تمكن الملك السابق من الهرب من الأراضي الالمانية وحاول بسلاحه أن يخفف الضغط على الثوار . وكان في اقليم بودو Bu ddu الجنوبي الغربي ٢٥٠ سودانيا . وكان أكبر الخطر أن يحدث معا ثورة عامة مشتركة في أوغندا والأتيورو . وقد نجحت الادارة في أوغندا في اجتذاب الواغندة الى صفها والحيلولة دون اتصال القوات المبعثرة بعضها ببعض — وكانت طبيعة الأشياء تساعد على ذلك — والحجز بين هذه القوات وبين قوات موانجا وبعض الواغندة المسلمين من ناحية وبين قوات كابريجا من ناحية أخرى .

وقد هزم موانجا في يناير سنة ١٨٩٨ ثم تبعه بزمان قليل كابريجا الذي قهرته قوة انجليزية مؤلفة من جنود هندية متحالفة مع الباجندة أو الواغندة . وقد وقع الملكا في الأسر وثل عرشهما .

(١) Major Austin, With Macdonald In Uganda. 1903.

استمرت عمليات ماكدونالد من سبتمبر سنة ١٨٩٧ الى مايو سنة ١٨٩٨ وكانت مملوءة بتفاصيل ودقائق مؤثرة . نذكر على سبيل المثال ما يتعلق منها بأصول الثورة :

بحسب احدي لروايات التي ظهرت في الصحف الانجليزية لم ينس السودانيون ولم يغفروا المعاملة التي عومل بها سليم بك في سنة ١٨٩٣ ، وتختلف الآراء في أهمية هذا العامل في الثورة . وعلى أية حال فيما لا شك فيه أن بلال أفندي قبل أن يترك أوغندة أقسم برأس ابنه أن لا يعود الى الخدمة تحت رئاسة ماكدونالد . وقد علق أوستين على هذه الرواية قائلا : « كان ماكدونالد نفسه منح بلال أمين ترقية جزاء له على مسكه النبيل في أثناء قلاقل سليم ، ولكنه قبل أن يصل الى محطة رافين R vine كانت الثورة قد اشتعلت وقد لحق به الثوار في ناندي . وبعد موت مبروك وسليمان صار رئيس الثوار فأظهر كفاءة فادرة على الرغم من انعار الذي لصق به من جراء مقتل ثرستون وآخرين .

« وكان خوطب في البداية في مرافقة الحملة فم يشر صعوبة ما وطلب فقط اجازة بضعة أسابيع فأجيب الى طلبه . ولكن حدث أنه عندما وصل الى كامبالا ليرى أسرته وصله أمر بالذهاب توا في حملة محلية صغيرة ، وتلقى الوعد بأن يمنح باقي الاجازة عند العودة . ولكنه حين عاد أبلغ أن هذا الوعد لن يوفى به نظرا لحاجة الحملة (ماكدونالد) الملحة الى خدماته في الحال ولما ألح في استيفاء أجارته ألقى القبض عليه لعصيان الأوامر وجرد جميع ضباط فصيلته من رتبهم . وقد أطلق سراحه فيما بعد وأرسل للحاق بماكدونالد . ولكنه كان يتحرق حنقا على الطريقة التي عومل بها ويؤكدون أنه حلف في ذلك الوقت على رأس ابنه بأن لا يذهب مع أية حملة فقد أنهكه التعب وكان دائما غائبا عن أسرته ولم يجد أي تقدير لعمله المضني وخدماته واخلاصه (١) » .

(١) Major Austin, With Macdonald In Uganda, p. 301-302

ظاهر من كل ما تقدم أن فاتحى أوغندة والأنبيورو ومديرية خط الاستواء القديمة وكل أعلى النيل هم أولئك السودانيون الكبار الذين ظلموا على المحن وصروف الأيام ثابتين على ولائهم لخديوى مصر وتقاليدهم ورايتهم ، وظهر أن سياسة جبارة واحدة في جوهرها . وان تباينت صورها وأشكالها ، قد اتبعت ازاءهم ملوأل عشرة أعوام .

ولئن أخلت مصر السودان بأمر بريطانيا فإنها لم تتنازل قط عن حقوقها المختلفة في السودان وملحقاته .

وقد أعلن تيجران باشا وزير الخارجية المصرية ، في ٢٧ أغسطس سنة ١٨٩٢ ، « ان مصر تحتفظ بكافة حقوقها على الأراضي التي كانت تتألف منها مديرية خط الاستواء المصرية » أى مناطق البحيرات وأعلى النيل التي كانت منذ سنة ١٨٧٥ منطقة النفوذ المصرى في أواسط أفريقيا .

والواقع أن إنجلترا باستيلائها على أوغندة وإنشاء « حماية » جديدة في حدود واسعة كان غرضها استغلاليا بحتا . ولن يتغير الموقف القانونى من جراء إخلاء مصر لمناطق بحيرة فكتوريا (أوغندة وعاصمتها) وبحيرة ألبرت نيانزا (الأنبيورو ، ومديرية خط الاستواء في الشمال ، والساحل الجنوبي لبحيرة كيوجا أو ابراهيم ومنطقة كافالى) . لأن ذلك الإخلاء كما قلنا كان قهريا . على أن الحقوق الأدبية لمصر لاسيلى الى طمسها وحسبنا أن نذكر أنه في أثناء الثورات المختلفة التي تعاقبت على الممالك الاستوائية منذ سنة ١٨٨٨ كان في البلاد حكومة صحيحة ونظام سياسى واجتماعى ظلا قائمين ، رغما من جميع الفتن والحروب والاعتداءات السياسية والانتقابات ، دون أن يختل ميزانهما ، حول راية الخديوى التي كانت راية حضارة وعمران .

ويمحسن بنا الآن أن نتساءل عن نتائج السيطرة الانجليزية في
المديرية المتروكة .

وضع الأب روسكو الانجليزي كتابا عن شعوب أواسط أفريقيا ،
جاء فيه عند ذكر البنيورو (أونيورو) واكتشافات سبيث وبيكر والغارات
التي شنها بيكر ، وخصوصا الانجليز من بعد ، ضد كاباريجا : « في تلك
الأزمة كانت البلاد غنية بسكانها وماشيتها ولكنها الآن أصبحت فقيرة
بسبب الحروب الطويلة في عصر كاباريجا . وقد تبدد السكان ، وأخذ
عددهم يتناقص منذ الاحتلال الانجليزي واضطرار الكثيرين الى المهجرة
فرارا من التسخير وضريبة السكن (hut tax) التي حثتها السلطات
عليهم .

وإذا كان الوطنيون أحرارا في زراعة القطن فإن بيعه مقيد بنظام
حكومي خاص وبشروط لا تتفق مع الرفاهية اطلاقا .

« وكانت الحالة في أوغندا هي نفسها في الأنبيورو التي ضمت اليها .
اذ توجد مدن وتوجد طرق جديدة تخترق البلاد وجبالها من أقصاها
الى أقصاها ولكن ذلك كله « ليس الا نتيجة السُخْرِى المفروض لصالح
الأوربيين وحدهم » .

وقد كان انشاء الطرق والمباني الحكومية « يثير عاصفة من مساوىء
استعمال السلطة والمعارضة » لأن الحكومة كانت دائما تلجأ الى تسخير
السكان في هذه الأعمال ولا تدفع الا أجورا اسمية تقدرها السلطات
ثم تسقط منها الضرائب . وكان الأوربيون المتوطنون من ناحيتهم ،
يقتدون بالحكومة في محاولة استغلال الوطنيين وارغامهم بمقتضى قانون
الاستيلاء الخاص بتشغيل الوطنيين ، على العمل بأجور لا قيمة لها .
وقد ترتب على هذه الحالة أن ترك الوطنيون حقولهم « وهاجرت أفضل

صَبَقَاتِ الْعَمَالِ صَوْبَ الْبِلَادِ الَّتِي يَشْتَغِلُونَ فِيهَا أَحْرَارًا دُونَ أَنْ يَقْسُرُوا عَلَى الْقِيَامِ بِأَعْمَالٍ لَا رِبْحَ فِيهَا .

وقد ختم الأب روسكو بقوله : « لا ريب ان منات من الأميال الجديدة قد ساعدت على تكثير محاصيل الامبراطورية ولكن هذه البلاد على الرغم من ذلك لن تصبح مقرا ثابتا للرجل الأبيض » .

الكتاب الخامس

الفصل الرابع عشر

السودان (١٨٨٥ - ١٨٩٨)

في أيام المهدي وخصوصا منذ موته الذي حدث في يونية سنة ١٨٨٥ كان أكثر أهالي السودان وقبائله تضيق ذرعا بنظام الارهاب وتظهر ولائها لمصر . ولكن السودان — كما قال أحد الانجليز — كان يجب أن يظل على حالته « يأكل بعضه بعضا » .

وقد أفادت برقية أرسلها من سواكن كامرون Cameron في ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٨٥ أن عوض الكريم باشا أبو سن في أم درمان كان يعمل على تهدئة الشيع والجماعات حتى تبين نيات الحكومة . وكان أبو سن زعيم قبيلة الشكرية الكبيرة .

وفي برقية أخرى في نفس اليوم أبلغ كامرون الفصل الهجرتون ان رسولا حضر الى سواكن وأنبأه أن سنار كانت نقطة تجمع عظيمة لجميع الهاربين من العصاة ، وان حامية سنار التي كان يبلغ عددها ١٠٠٠٠ رجل كانت مهيمنة على المملكة كلها وأن مندوبين من قبل قبائل طوكر كانا وصلا في اليوم السابق لطلب الصلح .

ومن جهته أعلن القائد الانجليزي جرينغل Grenfell من أصوان ، بتاريخ ٢٧ سبتمبر . ان سنار كانت لا تزال صامدة وانه اذا احتفظت الحكومة بدقلته تمكنت سنار من اصلاح الموقف في الخرطوم .

وفي ١٢ أكتوبر كتب الميجر تون من القاهرة : « ان ضياع مركزي
دبه ودنقلة المهيئين في الوقت الحالي هو بلا أدنى شك العقبة الكبرى
في سبيل تهدئة السودان الغربي . ولو بقيت سنار على ولائها قوية مزودة
بالبواخر الكثيرة وبقي النيل لغاية دبة تحت سيطرة الحكومة لأعلنت
المملكة الوسطى خضوعها بعد موت المهدي بقليل وكان من المحتمل جدا
أن يعتمد البقارة وهم أهم عوامل الثورة في الغرب (كما كان الهدندوة في
الشرق) الى الانسحاب الى منازلهم في الجنوب (١) » .

والحوادث التالية ليست بحاجة الى التفصيل . فقد سقطت سنار ،
وأيدت الحامية ورجالها الصناديد ، وشرع النجومي يناهب ، على رأس
٣٠٠٠٠ مقاتل للزحف على أبو حمد وكروسكو وغزو مصر .

وكانت مصر يجب أن تظل بقواتها على حدودها في حالة حذر مستمر .
وقد أراد الانجليز منع كل اتصال مع السودان فصدر أمر وزاري بتاريخ
١٠ أكتوبر سنة ١٨٨٥ تقرر بمقتضاه وقف كل تجارة مع السودان .
وبذلك ضربت مصر على نفسها حصارا تجاريا ، وكانت العناصر الموالية
من الشعب السوداني الذي « تخيفه وتستبد به أقلية متعصبة متهيجة »
مضطرة على الدوام الى التحالف مع هذه « العصابة المخربة » .

وكانت جميع السلطات في القاهرة نطالب برفع الحصار ولكن عبثا
لأن الحكومة الانجليزية لم تترشح عن خطتها .

وانا نجتزئ هنا بذكر دراموند وولف Drummond Wolf : بعد أن
ذكر أن الحصار قد مضى عليه ثمانية أشهر ، قال في كتابه المرسل الى روزيرى
بتاريخ ٣١ مايو سنة ١٨٨٦ : « اذا منع بتاتا أصدقاء السلام من
السودانيين من مزاوله أعمالهم المعتادة ، لم يكن بد من انضمامهم الى
ال دراويش ، على حين لو أن التجارة يسرت سبلها وعاد كل الى مهنته
ال سلمية كان في ذلك أكبر اغراء لهم على المطالبة بوقف القتال . »

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ . مجلد ٢٨١٠ .

« وليس من الممكن طبعا أن نجزم مقدما بأن تيسير التجارة سيؤدي
نوا الى هزم التعصب الذي كان له أبرز الأثر في الحروب الحديثة ، لأن
نتائج مثل هذا الاجراء السلمى لن تتحقق الا تدريجا ، وحسبه أنه
سيدخل في السودان الوسائل التي تساعد على تكوين حزب سلام » .
وقد أرسل الخديوى يوسف باشا شهدى الى حلفا ليدررس من كتب
الحالة في السودان . وقد دامت مهمته حوالى عشرة أشهر (يونية ٨٦ -
مارس ٨٧) .

كان شهدى باشا يلح باستمرار في ضرورة إعادة التجارة خصوصا
وانه قد استوثق من تعلق السودان بالخديوى . وقد كتب جودت بك
رئيس الديوان الخديوى الذى كان ملحقا ببعثة شهدى ، تقريراً بتاريخ
١٢ مارس سنة ١٨٨٧ جاء فيه : « ان القبائل والعشائر التي كانت ملتقة
حول المهديّة أخذت تتذمر من تهور العصاة وبدأت فعلا حركة مقاومة
حريجة بالسلاح . وعبد الله التعايشى في الوقت الحالى في أشد الاضطراب
بسبب العصيان الضخم الذى انتظم عرب الشرق الشكرية والحادة
وأبو روف » .

وقد وفد على القاهرة دفع الله أحد زعماء السودان وأحضر معه الى
الخديوى كتابا مرفوعا اليه من مئات كبار المشايخ في كردفان ، بتاريخ
٢٩ دى الحجة سنة ١٣٠٣ هـ (سبتمبر ٨٦) ، جاء فيه : « اننا نضع كل
أمل في انقاذنا في ارادة الخديوى لتصبح الأمة كلها محكومة بواحد
كما كان الأمر من قبل » .

وقد حدثت في سنة ١٨٨٨ مناقشات في المجالس النيابية وفي الصحف
بالمجترات بخصوص سواكن والسودان ، فاقترحت مجلة ساترداى ريفيو
« فتح السودان من جديد وتوطيد السيطرة الانجليزية على أعالي النيل »
ذعر الرأى العام في مصر من هذه السياسة واضطر رياض باشا

رئيس الوزارة الى ارسال مذكرة الى بيرنج ، بتاريخ ٩ ديسمبر (١٨٨)
قال فيها : « لا ينازع أحد في أن النيل حياة مصر فهذه مسألة ظاهرة
مفروغ منها . والنيل هو السودان فلا جدال في أن العلاقات والصلات
التي تربط مصر والسودان لا يمكن فصمها كالعلاقات بين الجسد
والروح .

« وان حكومتى لعظيمة الأمل في أن تتمكن بالوسائل السلمية
(كالتجارة) من استعادة نفوذها تدريجيا في هذه الأقطار .

« وان ترك سواكن لدولة أوربية لا يمكن التسليم به لأن معناه انتحار
لمصر » .

والحقيقة كما قال دارسي^(١) ان المسألة المصرية كانت مرتبطة بطريقة
لا انفصام لها بمسائل السودان والبحيرات والحبشة أيضا « فمن هذه
العناصر الثلاثة تتألف في الواقع مشكلة واحدة أعدت لها انجلترا بمهارة
نادرة حلا يتفق مع مصالحها » .

وبينا كانت انجلترا تعمل على الوصول الى النيل من الشمال كانت
فرنسا تحاول السق اليه من طريق الكونغو . ولما وجه سؤال في سنة
١٨٩٥ الى الحكومة الانجليزية بخصوص سياستها السودانية والخطة
التي قررت اتخاذها في حالة تدخل من جانب فرنسا ، أجاب السير ادوارد
غراي ، العضو في وزارة روزييري ، بتصريح ٢٨ مارس الشهير الذي صار
من ذلك الوقت القاعدة التي ترجع اليها الحكومة الانجليزية في كل مناسبة :
« ان انجلترا لها صفة الوصية المكلفة بالدفاع عن مصالح مصر ...

وبما أن مصر لها مطالب في وادي النيل فان منطقة النفوذ البريطاني تشمل
جميع وادي النيل » .

وقد رأينا كيف تصرفت هذه الحارسة الأمينة أو الوصية في الأراضي المصرية وكيف وزعت بعضها على إيطاليا والحبشة وولاية الكونغو... وفي أثناء اجتماع ١٠ أبريل سنة ١٨٩٥ قررت العرفة التجارية بلندرة دعوة الحكومة « إلى اتخاذ الاجراءات الناجعة في سبيل تحقيق الهيمنة الانجليزية على وادى النيل جميعه من أوغندة الى فاشودة » .

ولأجل أن تثير المسألة المصرية كلها وتنازع إنجلترا في « حقوقها » على السودان ووادى النيل قررت فرنسا ، في سنة ١٨٩٧ ، الوصول الى النيل من الجنوب بواسطة مارشان Marchand ^(١)

(١) الواقع أن فرنسا كانت تطمع في الاستيلاء على بحر الغزال ووصل شمال أفريقيا وادى النيل وكانت إنجلترا تطمع في جعل وادى النيل ، على الأقل من منابعه الى الخرطوم ، منطقته انجليزية بحتة . جاء في خطاب لـالسبرى الى الملكة فكتوريا بتاريخ ١٠ يونية سنة ١٨٩٠ بخصوص الاتفاق على مناطق النفوذ مع ألمانيا والتنازل لها عن جزيرة هليجولند : « وان الوزارة بالاجماع توصي بقبول هذا الاتفاق . ان العوض عن هليجولند هو الحماية على جريسي رنجبار وبمبا و ١٥٠ ميلا من الساحل بالغرب من سلطنة فيتو Witu وعدم المطالبة من جانب ألمانيا بأى حق على البلاد الخلفة الداخلة . وبناء على هذا الاتفاق تقع جميع المنطقة الخارجة عن حدود الحبشة وبلاد الجبال تحت النفوذ الانجليزي لغاية الخرطوم » .

وقد كتب لاجارد Lugard في يولية سنة ١٨٩٥ مقالا عنوانه (إنجلترا وفرنسا في وادى النيل) في مجلة (ناشيونال ريفيو) جاء فيه : « في رده على ادوارد غراي أعلن هانوتو ، بتاريخ ٢٨ مارس ، ان إنجلترا لم تحدد مطلقا في أى وقت مضى أى جزء من وادى النيل تطالب به لمصر وأى جزء تطالب به لنفسها . وجوابنا على ذلك ان مصر قد تقدمت في فوجاتها بقواتها الداية لغاية الخرطوم . ولكن ابتداء من هذه النقطة كن منح وكل ادارة قام بهما بيكر وغردون (كلدا) . اذن تمتد منطقة النفوذ المصرية لغاية الخرطوم . وابتداء من هذه النقطة بتدىء منطقة النفوذ الانجليزية التى تشتمل على « جميع حوض النيل غربا وجنوبا مع مديرية خط الاستواء ، وبحر الغزال ودارفور وكردفان ، وشرقا جميع البلاد الواقعة بين النيل والبحر الأحمر والمحيط الهندي ، باستثناء الأراضي التى حددتها إنجلترا بوضوح في معاهدة أبريل سنة ١٨٩١ واقرت بأنها حماية ايطالية » .

« ان فرنسا تطالبنا بالجللاء عن مصر . ولكننا لن نخلو عنها حتى نحصل فعلا المنطقة التى طالبتنا بها لغاية حدود مصر . ومتى أصبحت مصر في قبضة يدنا بمقتضى مركزنا على النيل ، عندئذ وعندئذ فقط نجو بجنودنا » .

وفي السنة عينها أرسلت المجترة ماكدونالد على رأس حملة ليسبق
مارشان الى فاشودة من طريق أوغندة . وكانت في الوقت نفسه تفكر في
إرسال حملة من الشمال بقيادة كتشنر للاستيلاء على الخرطوم وبحر الغزال
في الجنوب .

وقد تعذر على ماكدونالد اتمام مهمته بسبب ثورة السوادنيين التي
سبق ذكرها .

أما حملة كتشنر فكان يجب أن تصل في الميعاد لهزم فرنسا سياسيا
في فاشودة .

وكان اللورد كرومر ، في يونية سنة ١٨٩٧ ، يعارض في إرسال
قوات بريطانية بسبب الأعباء المالية الباهظة التي تنشأ من الحملة وبسبب
عدم صلاحية الجنود الانجليز من الناحية الجئانية لحرب السودان .

« فان الجندي الانجليزي ليس عنده أقل استعداد ليكون أداة حرب في
جو كجو السودان . ولم تلتج أية فائدة من إرسال الأورطة الانجليزية
في الصيف الماضي في دنقلة . ولا بأس أن نذكر أنه من بضعة أيام فقط
حدث استعراض في القاهرة بمناسبة عيد ميلاد الملكة ، وعلى الرغم من أن
الجو لم يكن حارا بدرجة فوق العادة فقد سقط حوالى ١٢٠ جنديا
وخرجوا من الصف من قوة تعدادها ١٨٠٠ . وقد يقول قائل ان
البريطانيين قاتلوا في السودان . وردى على ذلك ان التاريخ الحقيقى
لمعارك سنة ١٨٨٥ لم يكتب قط ، ولا أعتقد أن أحدا يفكر في اجراء
التجربة من جديد » .

وهذا ميفسر لنا الأسباب التي من أجلها سيقع حل الفتح الثانى بصفة
خاصة على كاهل الجندي المصرى والمالية المصرية .

وعلى أية حال كانت الدوائر في لندرة مترددة في تحديد تاريخ قيام

الحلة : أيعجل بها في سنة ١٨٩٧ لمواجهة التهديد الفرنسي ، أم تؤجل الى السنة التالية . وكان اللورد ولسلي من أنصار التعجيل .

وكان اللورد لاندون Lansdowne وزير الحربية ، من جهته ، يعارض في أي تقدم سابق لأوانه نحو الخرطوم .

وكان رئيس الوزارة سالسبري يؤيد الرأي الأخير كما يتضح من كتاب كان بعث به الى لاندون بتاريخ ٢٢ أكتوبر سنة ١٨٩٧ :

« ان الشرين اللذين يتعادلان هما من ناحية ، المجهود الذي سيطلب من الجيش المصري وجيش الملكة والذي تشير اليه في كتابك ، ومن ناحية أخرى ، المصاعب السياسية الدولية التي قد تنشأ من وصول مكتشف فرنسي الى النيل قبل وصولنا نحن الى الخرطوم . على أن مثل هذا الخطر لا يخيفني لأننا مهما كانت الظروف سنعرف كيف نواجهه » .

وبعد أن أكد سالسبري أن أي احتلال فعلي (اشارة الى مارشان) لن يكون جدياً قط قال مؤيداً فكرة التأجيل :

« يجب أن لا يغيب عنا أننا بقضائنا على قوة الدراويش نقتل بأيدينا المدافع الذي يحتفظ لنا الآن بالوادي » .

وهذا هو النص الانجليزي لهذا الاعتراف الخطير :

It is to be remembered that by destroying the Dervish power we are killing the Defender who is holding the valley for us now.

وقد ورد في مذكرات بلنت في سنة ١٨٨٥ اعتراف من هذا القبيل هذا نصه :

« ٢٦ مارس (١٨٨٥) — توجد علامة على أن حملة سواكن قد قاربت النهاية ... »

« تعيشت اليوم عند سدنى بكستون (عضو مجلس النواب)
وجلس بجانب مدم كورتى ، وكان على الجانب الآخر منى مدام بكستون
لتى حدثتني أن اللورد هارتجتون قد كتب أخيراً الى صديق له قائلاً
أنه ليس فى وسعه أن يفهم لماذا يقاتلون المهدي مع أنه ، أى المهدي .
ثبت أنه الرجل الوحيد الذى كان ينفذ سياسة وزراء صاحبة
الجلالة (١) » .

هذان الاعترافان يلقيان كل الضوء على السياسة الانجليزية فى
السودان منذ بيكر (١٨٧٠) وغردون الى كتشنر واستعادة السودان
(١٨٩٨) .

والمهم أن مصر لم تتنازل قط عن حقوقها فى جميع الممالك التى كانت
تتألف منها الامبراطورية السودانية . ورد فى لكتاب الأزرق الذى
أصدره اللورد سالسبرى فى سنة ١٨٩٨ عن مسألة فاشودة كتاب من
بطرس غالى باشا وزير الخارجية جاء فيه :

« ان حكومة الخديوى كما تعرف سيادتكم لم يغب عن نظرها فى حين
من الأحيان العودة الى سبئناف احتلال الأقاليم السودانية التى هى
مصدر الحياة ذاتها لمصر . ومصر لم تنسحب من تلك الأقاليم الا عقيب
قوة القاهرة . وان استعادة الخرطوم تفقد الغاية منها اذا لم يعد الى مصر
وادي النيل الذى ضحت مصر فى سبيله الضحايا العظيمة .

« ولعلم الحكومة المصرية أن مسألة فاشودة فى هذا اللون هى
موضوع مفاوضات بين بريطانيا العظمى وفرنسا ، فانها تكل الى أن
أطرب من سيادتكم أن تفضلوا بحسن الوساطة لدى اللورد سالسبرى
ليتم الاعتراف لمصر بحقوقها التى لا تقبل نزاعاً ولكى تعاد اليها الأقاليم
التي كانت تحتلها حتى قيام ثورة محمد أحمد » .

(١) Gordon At Khartoum, By W. S. Blunt, London, 1911, p. 404

الفصل الخامس عشر

حدود الامبراطورية الجغرافية

كلتا الخريطتين الخريطة التي وضعها أركان حرب الجيش المصرى فى سنة ١٨٧٨ ونشرها الأمير عمرو طوسن فى كتابه (مديرية خط الاستواء) والخريطة التى نشرها الدكتور أبت Abbate عن الاستكشافات الجغرافية فى عصر اسماعيل لا تخلو من نقص كبير .

ولعل أدق وصف لحدود السودان أو الامبراطورية السودانية قبل الثورة المهدية هو ما كتبه استيوارت فى تقريره لسنة ١٨٨٣ وما كتبه هارى جونتون فى كتابه (بريطانيا عبر البحار . أفريقيا) . وقد ذكرنا من قبل وصف استيوارت لكنا بعيدة هنا لأن الوصفين يكمل بعضهما بعضا ويكونان معا صورة صحيحة لحدود السودان .

قال الكولونيل استيوارت : « ان البلاد التى يحلها الآن المصريون ويطلقون عليها اسم (السودان) هى بلاد كبيرة جدا مترامية الأطراف مؤها من الشمال الى الجنوب — أى من أسوان الى خط الاستواء — نحو ٢٤ درجة أو ١٦٥٠ ميلا ، وعرضها من مصوع الى غربى دارفور نحو ٢٢ درجة أو ١٢٠٠ الى ١٤٠٠ ميل ، واذا ابتدأنا من نقطة برانيس على ساحل البحر الأحمر شرقا على خط موزاة الدرجة ٢٤ الى نقطة غير معينة فى صحراء ليبيا تعترضها الدرجة الثامنة والعشرون خط الطول ، ومن هناك يتجه خط الحدود جنوبا الى الغرب حتى الزاوية الشمالية

الغربية من دارفور في نقطة تقع حوالى درجة ٢٣ من خط الطول ثم يتجه في استقامة نحو الجنوب الى الدرجة ١١ أو ١٢ ، ثم يتجه جنوبا بشرق عبر موبوتو وبحيرة نيازا حتى يماس مدخل فكتوريا نيازا ويصعد من هناك شمالا الى الشرق فيشمل اقليم هرر ثم يصل الى المحيط الهندى عند رأس جردفوى ويصير على ساحل البحر الأحمر حتى برانيس » .

وقد أضاف استيوارت بعد ذلك الملحوظة الآتية : « لقد رأيت من الأفضل أن أضع مديرية هرر ضمن حدود السودان ، لأن هرر ليست وحدها تابعة لحكومة السودان ولكننا لا نعلم الا القليل عن الجهات الواقعة بينها وبين السودان فمن المستحيل القول أين تنتهى مديرية معينة وأين تبتدىء أخرى » .

« ان جميع المنطقة الواسعة في جنوب الحبشة والممتدة من فكتوريا نيازا الى المحيط الهندى تكاد تكون من الناحية العمية مجهولة تماما . وسكانها من جالا وسومان وآخرين لا يشجعون السائحين على ارتياد بلادهم » .

وقد أرفق تقرير استيوارت بخريطة رسمها ميسيداليا في الخرطوم سنة ١٨٨٣ وهى مطابقة في خطوطها الأساسية لوصف استيوارت . والواقع أن حدود السودان الغربية بناء على هذه الخريطة بعد أن تتجه جنوبا الى الغرب حتى الزاوية الشمالية الغربية من دارفور في نقطة حوالى درجة ٢١ من خط الطول (لا ٢٣ كما يقول استيوارت) تتجه جنوبا في خط مستقيم تقريبا لغاية ملتقى نهر امومبو ونهر الأولة في الأوبانجى ومن هناك تتجه جنوبا بشرق مع الأولة حتى منوبوتو ثم تمر بالجنوب الغربى من بحيرة ألبرت نيازا — التى كانت تظلمها الراية المصرية — حتى تصل الى ساحل فكتوريا نيازا الشمالى .

وتعتبر خريطة بوختا الألماني التي ظهرت في كتابه (السودان تحت الحكم المصرى) أدق بكثير من خريطة ميسيداليا في رسم حدود جنوب غربى السودان أو حدود بحر الغزال ومديرية خط الاستواء من ناحية حوض الكونغو وبحرى الأولة وامبومو اللذين يجتمعان فى الأوبانجى . وعلى أية حال ان أهمية خريطة ميسيدالي وتحديد استيوارت تبدو فى وضع الأونيورو وأوغندة ضمن حدود لسودان والاعتراف بأن مديرية خط الاستواء أو مديريات خط الاستواء كانت تمتد جنوبا حتى ساحل فكتوريا .

يضاف الى ذلك أن استيوارت وضع ضمن المنطقة الواسعة الواقعة فى جنوب الحبشة بين هرر وفكتوريا نابازا — والتي لم تحلها الحبشة بعد — فى منطقة النفوذ المصرية (كافا وبلاد الجالا والسومال) . وقد ذكرنا من قبل ان اسماعيل كان يريد خلق موصلات منتظمة وفتح طريق نفوذ فى هذه المنطقة من هرر الى البحيرات . وحسب مصر أنها كانت فعلا تملك نقط ارتكاز قوية فى أطراف هذه المنطقة وكان نفوذها يوغل فيها تدريجيا .

وبناء على تحديد استيوارت وميسيداليا كان خط الحدود الجنوبي الشرقى ينتهى على المحيط الهندى الى نقطة قريبة من رأس جردفوى فى الشمال ، ولكن جونستون جعل هذا الخط ينتهى عند مصب نهر الجب .

قال هارى جونستون : « كان السودان المصرى يمتد غربا لغاية حدود وادى وحوض الكونغو ، وجنوبا لغاية أوغندة ، وشرقا لغاية الحبشة وبلاد الجالا . وعلى مسافة من ذلك كانت الامبراطورية المصرية تشمل جميع مملكة السومال من الشمال الى الجنوب حتى نهر الجب باستثناء بعض المين المنزلة التى كان يحتلها سلطان زنجبار ^(١) » .

(١) هارى جونستون (بريطانيا عبر البحار . افريقيا ، بالانجليزية (ص ٤٣١) .

وليس أدل على عبقرية اسماعيل من أنه حاول سبق أوروبا الى تقسيم أفريقيا وانشاء امبراطورية أفريقية في حدودها الطبيعية والروحانية ، في حدود وادى النيل ومنابع النيل وممالكها وفي حدود العنصر العربى الذى أوغل في أواسط أفريقيا ، فكانت هذه الامبراطورية متأسكة متجانسة الى حد كبير من ساحل البحر الأحمر الى المحيط الهندى الى البحيرات وقد أسست انجلترا في أواخر القرن التاسع عشر (١٨٨٥ - ١٩٠٠) امبراطوريتها السودانية على القواعد التى رسمها اسماعيل وأنشأت خطها الحديدى من موباسة الى بحيرة فكتوريا وجعلته يمر بين جبلى كينيا وكيلياجارو طبقا لمشروع اسماعيل القديم الذى منعه من تنفيذه . ولم تكن أهمية هذه الامبراطورية الروحانية تقل عن أهميتها المادية لأن مصر كانت تعمل على ترقية العناصر العربية المتأخرة المنتشرة في السودان وساحل البحر الأحمر وهرر وبلاد السومال ، وكانت في الوقت نفسه تتوغل بحضارتها ولغتها ودينها في بلاد الجالا والوثيين بين السومال والبحيرات وفي بلاد الزنوج الوثيين في مديريات خط الاستواء ومنابع النيل .

وقد ارتكب اسماعيل غلطين كبيرتين وهو يسط حدود امبراطوريته الأولى الاسراف في الاستعانة بالانجليز وأعوانهم من الأجانب والثانية حرب الحبشة (سنة ٧٦) . أما الأولى فقد درسناها في هذا الكتاب وعرفنا نتائجها وأما الثانية فان الأحباش ليسوا زنوجا وثيين يمكن ادماجهم وليسوا عربا فكان يجب والحالة هذه مراعاة عامل التجانس الذى هو العامل الأساسى في كل سياسة بناءية ثابتة - وذلك بصرف النظر عن العوامل الأخرى - وقد ارتكبت الحبشة فيما بعد نفس الغلطة باحتلالها هرر الاسلامية واخضاعها لنظامها وارتكبتها ايطاليا حين أرغمت التجاشى منليك (في مايو سنة ١٨٨٩) على قبول الحماية الايطالية ووافقت انجلترا بمعاهدة ٢٤ مارس سنة ١٨٩١ التى عقدتها مع ايطاليا على وصل

جد السومال الجنوبي بالنيل الأزرق فدخلت أتيوبيا كلها وملحقاتها هرر وشوا وكافا في منطقة النفوذ الايطالى ولكن انتصار الأحباش على الطليان في عدوة سنة ٩٦ قضى على هذا التوسع الضخم .

وعلى أية حال لا يفوتنا أن نقرر بهذه المناسبة أن المالى الكبير كيف Cave ذكر في تقريره الشهير الذى نشره في سنة ١٨٧٦ : « ان السودان كما علمنا بلد غنى بثروته وسكانه والقمح الذى يعله ، وانه بعد دفع نفقات دارفور وتجريدة البحيرات يدخل في الخزنة العامة دخل صاف يبلغ ١٥٠٠٠٠ جنيه .

« ولاشك أن احتلال دارفور وحصة البحيرات الاستوائية ليسا بالعمل الناجح في التعبير التحارى ، وقد دخل الخديوى الى حد في هذين المشروعين لالغاء تجارة الرقيق ، ويمكن القول ان حرب الحبشة قد فرضت عليه تقريبا . ومن المحتمل أن ينسحب في أقرب وقت من الحبشة وخط الاستواء » .

ان حرب الحبشة قد فرضت عليه تقريبا كما فرض عليه الغاء تجارة الرقيق بتكاليفها العنيفة الباهظة وتعيين الأجانب وقد حاول الانجليز بطريقة جدية ابتداء من سنة ١٨٧٦ (وهى السنة التى ظهر فيها تقرير كيف) التطرق الى حد الامبراطورية الجنوبية (أوغندة ومنابع النيل وخط الاستواء) بعد ما تسربت اليها في الداخل عوامل الضعف من جراء تجارة الرقيق والأجانب المشرفين على الغائها .

وقد ساعدت انجلترا بسياستها « الهجومية » المسلحة التى جرت عليها نحو مصر وامبراطوريتها منذ سنة ١٨٨٢ الدول الأخرى (ايطاليا وفرنسا وبلجيكا والحبشة) على انتهاج نفس السياسة والاعتداء على حدود مصر وحقوقها .

١٠ - ارتيريا - ذكرنا من قبل كيف تكونت ارتيريا فقد اشترت

شركة ايطالية ميناء عصب سنة ١٨٦٩ من أحد الزعماء المحليين ثم اشترت الحكومة الايطالية الميناء من الشركة في سنة ١٨٨٢ وبدأت توجد فيه ادارة منتظمة مباشرة . وكان الطليان يقولون عن توسعهم في الساحل أنهم سيعملون بمساعدة انجلترا « على اصطياد مفاتيح البحر الأبيض في مياه البحر الأحمر » . وقد احتلوا مصوع في فبراير سنة ٨٥ واستخدموا جنود الحامية المصرية الباشيزوق في بسط سلطانهم . واحتلوا في نفس الوقت بيلول في شمال عصب واستخدموا جنود حامية زولا الباشيزوق وأعلنوا في سنة ١٨٨٨ ميناء زولا ضمن أملاك ايطاليا . وأخذوا بعد ذلك يسيطون حمايتهم على القبائل المجاورة حتى امتد نفوذهم من رأس قصار (جنوب سواكن) الى أبوبوك (١١٠٠ كيلو متر على الساحل) . وفي مارس سنة ١٨٩٠ صدر مرسوم ملكي ايطالي نظم الممتلكات الايطالية على البحر الأحمر وسماها مستعمرة (ارتيريا) .

ومن ارتيريا كانت تفكر ايطاليا في اخضاع الحبشة لسيادتها فأضمت مع منليك في ٢ مايو سنة ١٨٨٩ معاهدة أوتشالي التي بسطت بها حمايتها على أثيوبيا . ولم تكن هذه الحماية وهمية الا في أعين بعض الدول لأن معظم الخرائط والمعاهدات الانجليزية التي وضعت بعد ذلك التاريخ بصدد الاعتراف بمناطق النفوذ كانت تدخل أثيوبيا كلها والممالك التابعة لها في منطقة النفوذ الايطالية .

وفي نفس السنة التي أمضيت فيها معاهدة أوتشالي (١٨٨٩) أخذت ايطاليا تتوسع في ارتيريا على حساب الحبشة فاحتلت كرن (أو سنهيت) مركز بوغوص ثم أغوردت ثم أسمره (يوليه) . وهذه المدينة الأخيرة في موقع هام عند مصب المارب وعلى طريق مصوع — عدوة .

أما بوغوص فكانت مصر تحتل أطرافها منذ عهد محمد علي وقد احتلتها كلها سنة ١٨٧٤ هي وأرض أيلات Ailet (وهذه الأخيرة مديرية واقعة

بين حماسين ومصوع) . وفي ٣ يونيه سنة ١٨٨٤ أرغمت إنجلترا مصر بمقتضى معاهدة عدوة (بين مصر وإنجلترا والحبشة) على التنازل للنجاشى عن سيادتها على الأراضى التى تحتلها قبيلة بوغوص . وقد تعهد الطليان باحترام هذه المعاهدة ولكنهم خرقوا نصوصها .

ولما انهزم الطليان فى عدوة (أول مايو سنة ١٨٩٦) أمضى الطليان مع منليك فى ٢٦ أكتوبر (١٨٩٦) معاهدة أديس أبابا التى ردت الى الحبشة استقلالها ورسمت بصفة مؤقتة الحدود التى تفصل اريتريا عن الحبشة على خط مارب - ييليسا - مونا . وفى ١٥ مايو سنة ١٩٠٢ حدث الاتفاق النهائى واستقرت الحدود على خط سيثيت - تودلوك - مارب - ييليسا - وكان هذا التعديل لمصلحة اريتريا - كما رسمت الحدود بين السودان المصرى الانجليزى واريتريا (مادة أضيفت بناء على تحريض إنجلترا) . وقد ظلت ماديب وبوغوص منذ أواخر سنة ١٨٨٩ ضمن حدود اريتريا الايطالية .

٢ - السومال الفرنسى - فى ١١ مارس سنة ١٨٦٢ عقد وزير خارجية فرنسا مع أبى بكر أحد مشايخ خليج تاجورة معاهدة تخول فرنسا ، نظير دفع مبلغ ٥٠٠٠٠ فرنك حق امتلاك ميناء أوبوك وقطعة أرض تمتد من رأس دميرة فى الشمال الى رأس على فى الجنوب . وتعهد أبو بكر ورؤساء الدناكل التابعين له أن يرفض أى عرض تتقدم به دولة أجنبية دون موافقة فرنسا .

ولكن فرنسا لم تعن مطلقا بتحديد هذه الأرض أو اقامة أى نظام فيها ولم يقم فيها أى وكيل فرنسى . وكانت مصر لا تعترف بأمثال هذه المعاهدات لأنها تعقد مع شيوخ غير مسؤولين فى بلاد واقعة تحت السيادة التركية أو المصرية . ولذلك بادرت مصر برفع رايثها عليها توكيدا لحقوقها . وقد احتجت فرنسا على ذلك سنة ١٨٨١ ولكنها لم تفكر

لا في سنة ١٨٨٣ في استغلال أوبوك وتوسيع رقعتها لأن أوبوك
يحدودها القديمة الضيقة لم يكن لها أى مستقبل تجارى . وقد دعا
الحاكم الفرنسى لاجارد Lagarde جميع زعماء البلاد المجاورة الى طلب
حماية فرنسا ، وتمكن في سنتى ١٨٨٤ و ١٨٨٥ من عقد محادثات مختلفة
معهم ترتب عليها امتداد الحماية الفرنسية على تاجورة وجميع بلاد الساحل
من رأس على اى ما وراء أمبادو بالقرب من زيلع ، وبذلك أصبحت
المستعمرة مصابة للمناطق التجارية في الجنوب . وفي بداية سنة ١٨٨٨
استولت فرنسا على رأس جيووتى وهى آخر نقطة جنوبية في خليج أوبوك
ولم تتردد في احتلال دونجاريता الواقعة على ساحل السومال بين زيلع
وبربرة مما اضطر انجلترا الى الاتفاق مع فرنسا في سنة ١٨٨٨ لخمها على
ترك دونجاريता نظير الاعتراف بمنطقة نفوذها .

وفي مايو سنة ١٨٩٦ صدر مرسوم فرنسى تقرر بمقتضاه وضع
أرض أوبوك وحمايتى تاجورة وساحل السومال تحت ادارة موحدة
قضائية ومالية ، وأطلق عليها من ذلك الوقت اسم ساحل السومال
الفرنسى ومحقاته وصارت حاضرتة جيوتى بدلا من أوبوك لأن ميناءها
أصلح كما أنها على رأس طريق أسهل وأقصر يصل الى الجالا وهرر .

٣ - السومال الانجليزى أو سوماليلاند . ويقع على خليج عدن
وهو أهم مناطق السومال وفيه أشهر مينه زيلع وبلهار وبربرة .

٤ - السومال الايطالى - كان امتلاك أريتريا سببا في عزل أثيوبيا
عن البحر الأحمر ولم يبق لأثيوبيا حدود مفتوحة الا في الجنوب ولكن
اليطيان عملوا على اغلاق هذا المتنفذ الذى يصل أثيوبيا بالعالم الخارجى .

ذلك أن الحدود الجنوبية تولى وجهها شطر المحيط الهندى . وتقع
بينها وبين الساحل بلاد الجالا وبلاد السومال . ويمتد ساحل السومال
على المحيط الهندى من خليج تاجورة لغاية مصب نهر تانا على طول

٢٢٠٠ كيلو متر . ويقسم نهر الجب الساحل الى قسمين غير متساويين في الشمال والجنوب : في جنوب الجب توجد سلطنة ويتو وقسايبو وفي الشمال مين براوة ومركا ومقدشو (أو مين ساحل بنادر) وسلطنتا أربيا وميجورتين . وتنتهى هذه الأخيرة في رأس جردفون (أو جردفوى) .

وكانت مصر تحتل احتلالا فعليا السومال من خليج تاجورة لغاية رأس حافون على المحيط الهندى . وكان نموذها يعتد لغاية الجب الذى احتلته في أواخر سنة ١٨٧٥ ثم أخلته . وقد احتل الانجليز في سنة ١٨٨٤ منطقة السومال على خليج عدن ففكر الطليان في احتلال بقية الساحل وبلاد السومال خصوصا وان ساحل السومال هو المنفذ الطبيعي لبلاد الجالا وأثيوبيا الجنوبية نحو المحيط الهندى وخليج عدن . وكانت ايطاليا تطمح في احتلال هرر وساحل السومال جميعه بمساعدة انجلترا .

وسرعان ما أمضت ايطاليا مع سلطان أوبيا في فبراير سنة ١٨٨٩ صك الحماية . وفي ٧ أبريل من نفس السنة أعلن سلطان ميجورتين بدوره قبول الحماية الايطالية .

ثم رأت انجلترا ويطاليا أن تحددا منطقة نموذها على ساحل البحر الأحمر وساحل أفريقيا الشرقى فوقعتا في ٢٤ مارس سنة ١٨٩١ معاهدة أولى رسمت الحد الفاصل بين المنطقتين في ساحل السومال : كان ذلك الحد يذهب صعدا مع الجب من مصبه على المحيط الهندى ، تحت خط الاستواء تقريبا ، لغاية درجة ٦ من خط العرض الشمالى . وقد تنازلت انجلترا لاطاليا عن المين الأربعة التابعة لزنجبار والتي أرغمت المصريين على اخلائها في سنة ١٨٧٥) : براوة ومركا ومقدشو ووارشيخ الواقعة في شمال الجب ، ولم تحتفظ لنفسها على ساحل بنادر من مينه الا بمدينة قسايبو كما احتفظت بمنطقة الجب .

بقى تحديد السومال الايطالى من ناحية المملكتات الانجليزية على خليج عدن . كانت انجلترا تحتل الساحل من خليج تاجورة لغاية درجة ٤٩ من خط الطول شرق جرينوتش ، وكانت الحماية الايطالية تمتد لغاية رأس حافون شمالا على المحيط الهندى . وبين رأس حافون ودرجة ٤٩ من خط الطول يوجد الركن الأفريقى الشرقى الذى يهيم عليه رأس جردفون . وقد تنازلت انجلترا لاطاليا بمعااهدة ٥ مايو سنة ١٨٩٤ عن رأس جردفون وجميع المنطقة المحيطة به التى يبلغ طول ساحلها ٤٠٠ كيلو مترا (من رأس حافون لغاية درجة ٤٩ من خط الطول شرقا) وبذلك أصبح ساحل السومال الذى تمتلكه ايطاليا لغاية نهر الجب يبلغ طوله ٢٠٠٠ كيلو متر تقريبا .

٥ - أفريقيا الشرقية الألمانية : بدأت ألمانيا فى سنة ١٨٨٥ نستولى على أملاك زنجبار فى أفريقيا الشرقية فاضطرت انجلترا الى امضاء معاهدة ٢٩ أكتوبر - أول نوفمبر سنة ١٨٨٦ مع ألمانيا : أصبحت بمقتضى هذه المعاهدة حقوق سيادة سيد برغش سلطان زنجبار مقصورة أولا على قطعة محدودة على أرض الساحل من نهر مانجاني لغاية كيبى الواقعة عند مصب نهر تانا ولا يزيد عمقها فى الداخل عن عشرة أميال ، ثانيا على جزر زنجبار ومافيا ومبا ولامو ، ثالثا على مين ساحل بنادر الخمسة . وقد نص على أن تكون سلطنة ويتو الواقعة فى شمال كيبى تابعة لألمانيا .

ثم اتفقت الدولتان فى نفس الوقت على تحديد مناطق نفوذهما فى أفريقيا الشرقية ، فامتلكت ألمانيا الساحل من مصب روفوما الى مصب فانبجا (حوالى ٨٠٠ كيلو متر) عدا سلطنة ويتو . كما أن جبل كيليمانجارو بكتله الضخمة أصبح ضمن حدود أفريقيا الشرقية الألمانية التى كانت تمتد لغاية شرقى بحيرة فكتوريا نيارا .

على أن أطماع جمعية الاستعمار الألمانية كانت ترمى الى بسط السيادة الألمانية على جميع بلاد السومال وعلى منابع النيل وبممالكها . ومعلوم أن

بلاد السومال تمتد على ٢٠٠٠ كيلو متر من الساحل تقريبا وتوغل في الداخل لغاية بلاد الجالا واثيوبيا . وكان يتزعم السومال من ناحية الساحل رئيسان مستقلان هما سلطان أويا وسلطان ميجورتين . وقد سبقت شركة الاستعمار الألمانية الطليان الى عقد معاهدات في سنتي ١٨٨٥ و ١٨٨٦ مع سلطاني أويا وميجورتين اللذين تنازلا للشركة عن سيادتهما من ويتو الى حدود الممتلكات الانجليزية على خليج عدن .

وكان أنصار الاستعمار الألماني يفكرون في مد حدود امبراطوريتهم الافريقية من المحيط الهندي شرقا الى الاطلانطيقى غربا . فذهب الدكتور بيترز على رأس حملة الى أعلى النيل لانشاء محطات والاستيلاء تدريجيا على أوغندة والأنيبورو وربطهما بساحل أفريقيا الشرقية الألمانية . وحاول في الوقت نفسه أمين باشا ، بعد دخوله في خدمة ألمانيا ، استرجاع مديريته القديمة .

ولكن الحكومة الألمانية خشيت مغبة المغامرات الافريقية والاصطدام بالبحر فرفضت اعتماد المعاهدات المبرمة بين الشركة وشيوخ السومال ، وتكررت للدكتور بيترز الذي كان نجح في عقد معاهدة مع أوغندة ، كما أنها أعلنت أن أمين باشا كان يعمل تحت مسؤوليته هو وأن جميع أعماله وحركاته خارج الحدود الألمانية المعترف بها لا تعنيها .

وقد اكتفت ألمانيا ، في سنة ١٨٨٩ بضم المنطقة الواقعة بين سلطنة ويتو ونهر الجب ، وأبلغت قرار الضم الى الدول في أكتوبر ، فأسرعت إيطاليا الى احتلال ساحل السومال الذي رغبت عنه ألمانيا .

وفي أول يولييه سنة ١٨٩٠ وقعت ألمانيا والمجترات معاهدة جديدة تنازلت الأولى للثانية بمقتضاها عن سلطنة ويتو والمنطقة الواقعة بين ويتو وقسمايو التي ضمها حديثا (١٨٨٩) . وبذلك دخلت هذه البلاد في منطقة النفوذ الانجليزي . وفيما يتعلق بالحد الفاصل بين أفريقيا الشرقية

ألمانية وأفريقيا الشرقية الإنجليزية فقد ظل تقريبا على حالته كما كان في سنة ١٨٨٦ ولكنه أقصى عن شرق بحيرة فكتوريا . وبذلك أصبحت المنطقة الإنجليزية المعترف بها تمتد مع الجب وتوغل حتى منابع روافد النيل الغربية . وقد اعترفت ألمانيا بالحماية الإنجليزية على زنجبار وميا ، وكانت هاتان الجزيرتان خارج امتياز شركة أفريقيا الشرقية الإنجليزية ، ذلك الامتياز الذي كان يشمل جميع أوغنده والأونيورو وقسما من كاراجوا وبحيرة ألبرت نيانزا وقسما من بحيرة ألبرت ادوارد والممالك الواقعة على سواحلها وكذلك مديرية خط الاستواء المصرية وقسما من دارفور وكردفان .

وقد علق على ذلك اسكوت كيلتي بقوله : « لاريب أن هذه المنطقة الهائلة يجب النظر اليها باعتبارها الى حد ما خيالية . وهي تشمل جزءا ضخما من السودان المصري القديم ، ولئن كانت مصر قد نخلت عنه الا أن الخديوي قد يطالب به اذا ما نجحت شركة أفريقيا الشرقية الإنجليزية في احتلاله فعلا وتوطيد رفايته التجارية والصناعية . وفي نفس الوقت يجب أن لا ننسى مطلقا أنه طبقا لقرارات مؤتمر برلين لا يمكن ادعاء ملكية أية أرض ما لم يسبقه احتلال فعلي ^(١) » .

وقد رأينا كيف تم هذا الاحتلال في السودان والملحقات ، وبأي الوسائل ، وكيف تقاسمت انجلترا والدول الصديقة أو المنافسة الامبراطورية السودانية .

٦ — مديريات خط الاستواء وحدود الكونغو البلجيكي والكونغو الفرنسي .

(١) جاء في تقرير كرومر لسنة ١٩٠١ : « ان حدود السودان الجنوبية لم تقرر بصفة نهائية وان غوندوكورو كانت تعد الحد الشمالي الأقصى

(١) كتاب (تقسيم أفريقيا) بالانجليزية ص ٣٢٤ طبعة سنة ١٨٩٣

لأوغندة ومونجالا الحد الجنوبي الأقصى للسودان على الضفة الشرقية للنيل . وبمقتضى معاهدة ١٢ مايو سنة ١٨٩٤ بين إنجلترا والكونغو تنازلت إنجلترا - مع احتفاظها بحقوق مصر في خوض أعالي النيل - لحكومة الكونغو لمدة معينة ، عن القسم الأكبر من بحر الغزال وعن قطعة أرض صغيرة على ضفة النيل الغربية وسط الأراضي المصرية تسمى (حاجز لادو LADO-ENCLAVE) واعترفت لها بمنطقة نفوذ فيها .

« أولم يقيم البلجيكيون بأن احتلال فعلي في هذه المنطقة ولكنهم بادروا إلى احتلال لادو خوالى سنة ١٨٩٨ عقب حادث فاشودة فأذن الإنجليز لهم بالبقاء بشرط أن لا يمتدوا على بحر الغزال . وكانت منطقة لادو تمتد على ١٥٠٠٠ ميل مربع (٥٢٠٠٠ كيلو متر مربع) وعدد سكانها ٢٥٠٠٠٠ » .

وبناء على اتفاق ٩ مايو سنة ١٩٠٦ بين صاحب الجلالة ملك الإنجليز وملك الكونغو كان لهذا الأخير الحق في إدارة لادو مدى الحياة . وفعلا لم تمض ستة شهور على موته حتى أعيدت منطقة لادو ، في ١٦ يونيو سنة ١٩١٠ ، إلى حكومة السودان .

وفي أول يناير سنة ١٩١٤ اقتطع من السودان القسم الجنوبي من منطقة لادو (١٤٠٠٠ كيلو متر مربع) في غرب بحر الجبل (النيل) وضم إلى أوغندة مقابل إضافة مركزى غندوكورو ومنيوت إلى السودان .

وقد ساعد امتداد السودان نحو الجنوب حتى نيسول (بازار دوفيلة) على تيسير الاشراف على جميع الجراء الصالح للملاحة في النيل الأبيض من أول الخرطوم وكسبت أوغندة البلاد الغنية الواقعة في غرب النيل وان كانت فقدت إقليم لاتوكا . أما غندوكورو الواقعة على بعد ٢٦ ميلا من مونجالا (عاصمة مديرية مونجالا أقصى مديريات السودان الحالى

وأشدها تأخرا) فانها أهملت من أجل موانعها وأصبحت كأن لم تكن .
وعلى أية حال يستدل من خريطة أوغندة التي نشرها هاري جونستون
في كتابه الضخم عن (حماية أوغندة) الذي طهر في سنة ١٩٠٢ ان الحد
الشمالى لأوغندة لم يكن غندركورو الواقعة بالقرب من خط العرض ٥
ولكن كيريندو القريبة من خط العرض ٦ على أن الذى يعيننا أن المؤلف
نشر خريطة تبين المناطق الصحية وارتفاعاتها فكانت مناطق الدرجة الأولى
وهى الصحية للغاية يتفاوت ارتفاعها من ٥٥٠٠ الى ٢٠٠٠٠ قدم ومناطق
الدرجة الثانية ، وهى الصحية الى درجة ما يتفاوت ارتفاعها من ٣٥٠٠
الى ٥٥٠٠ قدم . ومناطق الدرجة الثالثة ، وهى غير صحية ، يتفاوت
ارتفاعها من ٢٠٠٠ الى ٣٥٠٠ قدم . ومناطق الدرجة الرابعة وهى غير
صحية ويبلغ ارتفاعها ٢٠٠٠ قدم أو أقل . وهذه المناطق الأخيرة أو
الأراضى المنخفضة الموبوءة المصبوغة فى الخريطة بلون بنى . كانت
لا توجد الا حول بحيرة رودولف ، ولكن فى رقعة ضيقة جدا ،
وعلى ضفتى النيل ، ولكن فى رقعة واسعة جدا ، تبدأ عند نيمول ضيقة
على الجانبين لا يزيد عرضها عن أربعة أو خمسة كيلو مترات فى كل
ناحية ثم تتسع تدريجيا مع النيل شمالا ابتداء من لا بوريه حيث تبلغ
من ١٠ الى ٢٠ كيلو مترا . ومن رجاف فغندوكورو الى حد أوغندة الشمالى
تبلغ ١٠٠ كيلو متر على الضفة الغربية و ٢٠٠ أو ٢٥٠ على الضفة
الشرقية . وتقع لاتوكا فى شرق غوندوكورو ورجاف أى فى صميم
المنطقة الموبوءة . وهذا يبين لنا السبب الحقيقى فى النزول بمحد أوغندة
الشمالى الى نيمول والاستعاضة عن هذه المنطقة بالمنطقة الغنية الصحية
الواقعة غرب بحر الجبل من نيمول الى نقطة قرية من ماهاجى فى الشمال
الغربى من بحيرة ألبرت نياتزا هذا فيما يتعلق بحدود جنوب السودان
من ناحية أوغندة . بقيت الحدود الجنوبية الغربية من ناحية الكونغو .
(ب) فى ٢٩ أبريل سنة ١٨٨٧ أمضى اتفاق بين الفرنسيين

والبلجيكيين أصبح بمقتضاه خط التباين بين منطقتي نفوذهما مجرى الأوبانجي ابتداء من ملتقى الكونغو لعاية نقطة التقاطع مع خط الموازاة الشمالى درجة ٤ . وبعد هذا الخط تمهدت دولة الكونغو بأن لا تحاول بسط أى نفوذ سياسى على الضفة اليمنى للأوبانجي وتعهدت حكومة فرنسا ، من جهتها ، بأن لا تتعرض للضفة اليسرى لهذا النهر تحت خط الموازاة المذكور .

وكان هذا الخط درجة ٤ هو أقصى خط موازاة قرره مؤتمر برلين فى سنة ١٨٨٥ ليكون حد الكونغو الشمالى . ويقول الفرنسيون أن الأوبانجي لم تكن بعد اكتشفت منابعه ومجراه حتى يمكن تنفيذ الاتفاق وتعيين الحدود بدقة ، وان المكتشفين البلجيكيين فى سنة ١٨٨٨ قد تمكنوا من اقامة الدليل على أن الأوبانجي بالقرب من خط الموازاة الشمالى درجة ٤ كان يتألف من اجتماع نهرين أحدهما أمبومو Ambomou والآخر الأوله Ouellé . وكان وكلاء دولة الكونغو يدعون أن مجرى النهر الرئيسى هو امبومو ، وكان الفرنسيون يقولون ان المجرى هو الأوله الذى كان أطول بلا نزاع من امبومو .

ومهما كان من الأمر فان البلجيكيين كانت أطباعهم تمتد الى حوض أعالى النيل فى مديرية خط الاستواء ومديرية بحر الغزال وتجاوز الحدود التى رسمها لهم مؤتمر برلين سنة ١٨٨٥ والمعاهدة الفرنسية الكونغولية فى سنة ١٨٨٧ وقد وصلت تجريدة فان فركهوفن ، فى أوائل سنة ١٨٩٣ ، الى النيل واحتلت دوقيلة .

وفى نفس الوقت تقدمت تجريدات بلجيكية كثيرة الى الشمال فاحتلت زونجو وبانزيفيل وبانجاسو وياكوما (١٨٩١) ورافاي (١٨٩٢) وليفى بالقرب من ديم زير (١٨٩٣) فى بحر الغزال وبلغت حدود دارفور ، فى سنة ١٨٩٤ ، وخفرة النحاس .

فبعد أن كانت حدودهم المرسومة درجة ٤ من خط العرض الشمالى أصبحت دوين درجة ١٠ أى على بعد أكثر من ٧٠٠ كيلو متر من شمال الأولى (١) .

وكان أكبر هم إنجلترا في ذلك الوقت سد طريق التوسع في وجه فرنسا ومنعها من الوصول الى أعلى النيل قبلها فأراد الملك ليوبولد أن يستغل الظروف لتحل بلجيكا محل إنجلترا وتأييدها لتحقيق هذا الغرض وأراد الإنجليز أن يستخدموا البلجيكيين ليكونوا حراسا لهم كالطليان على أن يتردوا منهم البلاد في الوقت المناسب . وسرعان ما أمضى الفريقان ، الإنجليز والبلجيكيون اتفاقية ١٢ مايو سنة ١٨٩٤ الشهيرة . أقرت إنجلترا للكونغو بمقتضى هذه الاتفاقية وذلك بصفة دائمة ، القسم الواقع من مديرية بحر الغزال في غرب خط ٣٠ جنوب جرينويتش . وأقرت بصفة مؤقتة (مدى حياة ليوبولد) حوض بحر الغزال الواقع بين خط درجة ٣٠ الجنوبي في الغرب ، وبحرى النيل في الشرق ، وخط الموازاة درجة ١٠ شمالا . وبذلك امتدت حدود الكونغو البلجيكي امتدادا هائلا من خط الموازاة ٤ الى خط الموازاة ١٠ شمالا ، وعلى النيل لغاية فاشودة شرقا . وصار وادى امبومو جميعه المتنازع عليه بين فرنسا والكونغو ضمن الحدود الجديدة .

وقد تنازل الكونغو لإنجلترا عن قطعة أرض عرضها ٢٥ كيلو مترا متحدة في شمال تنجانيقا وملاصقة لأفريقيا الشرقية الألمانية . وكانت إنجلترا تريد الانتفاع بهذه الأرض لممر الخط الحديدي من الكلب الى القاهرة ووصل ممتلكاتها من الجنوب الى الشمال دون حائل .

وقد ثارت ثائرة فرنسا بسبب بحر الغزال ومسألة وادى امبومو .

(١) انظر كوشري (المركز الدولي لمصر والسودان) ص ٣٩٠ - ٣٩١ (بالفرنسية) .

صحيح ان انجلترا قد احتاطت في ملحق معاهدة ١٢ مايو سنة ١٨٩٤ بقولها : « بمناسبة تأجير بعض الأراضي في منطقة النفوذ الانجليزية في شرق أفريقيا يقرر الطرفان المتعاقدان انهما لا يجعلان حقوق تركيا ومصر في حوض النيل الاعلى » ، ولكنها في الوقت الذي تحتفظ فيه بحقوق مصر وتركيا في حوض النيل الاعلى تعلن أن حوض النيل الاعلى « في منطقة النفوذ الانجليزية » وتتصرف فيه تصرف المالك .

وقد احتجت ألمانيا على هذه المعاهدة وأرغمت انجلترا وبلجيكا على سحب الشرط الخاص بامتياز قطعة الأرض الملاصقة لتجانيقا . ثم جرت مفاوضات بين فرنسا والكونغو انتهت بتعهد الدولة المستقلة (الكونغو) في ١٤ أغسطس سنة ١٨٩٤ ، بأن لا تحتل أرضا في شمال لادو كما اتفقتا على تقسيم وادي امبومو الى قسمين متعادلين : الضفة اليمنى لفرنسا واليسرى للكونغو . وتقرر أيضا أنه ابتداء من اندوروما N.DORUMA حيث ينبع نهر امبومو يكون للكونغو الحق في أن ييسط نفوذه لغاية خط الموازية درجة ٥ ونصف وعلى النيل لغاية لادو . وبذلك أصبحت دولة الكونغو تملك جميع الضفة الشمالية من نهر امبومو في شمال خط الموازية درجة ٤ ، وتملك ابتداء من اندوروما جميع البلاد لغاية خط العرض درجة ٥ ونصف الا أن بعض المواد الخاصة بحدود الكونغو الشرقية سمحت له بالتوسع من هذه الناحية الى ما وراء الخط الفاصل بين حوض النيل وحوض الكونغو وهو الخط الذي نصت عليه معاهدة ١٢ مايو الانجليزية الكونغولية . وقد بلغت مساحة الكونغو بعد هذه المعاهدات نحو ٢٢٠٠٠٠٠ كيلومتر مربع .

حاولت فرنسا بعد ذلك احتلال الأراضي المكتسبة بمقتضى المعاهدات والتوغل في بحر الغزال لغاية فائودة وقد سبق مارشان بكثرت اليها كما هو معلوم ولكن فرنسا تراجعت أمام انجلترا واضطرت بمعاهدة ٢١ مارس سنة ١٨٩٩ الى ترك بحر الغزال نهائيا والاعتراف بمنطقة

النفوذ الانجليزية في السودان المصري لغاية خط الموازة درجة ١٥ أى دارفور وكردفان وبحر الغزال .

على أن المهم أن الفرنسيين قد اقتطعوا من مديرية بحر الغزال جزءا كبيرا كما اقتطع البلجيكيون جزءا من بحر الغزال وجزءا من مديرية خط الاستواء ، دون أن يشير الى ذلك أحد من مؤرخي الدولتين . وبذلك حدث تعديل كبير في حدود السودان الجنوبية الغربية . يتضح ذلك من مقارنة الخرائط الجغرافية الحديثة بخريطة مديرية بحر الغزال القديمة وحدودها التي نشرها بوختا الألمانى الذى صعب جونكر في رحلاته في كتابه عن (السودان تحت الحكم المصرى) وخريطة ميسيداليا التي أرفقت بتقرير استيوارت (١٨٨٣) وخريطة مديرية خط الاستواء التي نشرها فيتاحسان في كتابه (الحقيقة عن أمين باشا) وخريطة بوختا وخريطة ميسيداليا .

وتبلغ مساحة ما استولى عليه الفرنسيون من بحر الغزال حوالى ١٥٦٠٠٠ كيلو متر مربع وهى الأرض الواقعة شمال امبومو من اندوروما لغاية تفرع نهري أومبومو والأوله من الأوبانجى .

وتبلغ مساحة ما استولى عليه البلجيكيون من مديرية بحر الغزال التي كان يحدها جنوبا نهر الأوله حوالى ٧٥٠٠٠ كيلو متر مربع بين الأوله وامبومو . وقد اقتطعوا من مديرية خط الاستواء في غرب بحر الجبل وألبيرت نيازا لغاية محطة حواش على الأوله (من أواسط مكراكا الى آخر مونبوتو) أرضا تبلغ مساحتها حوالى ٤٥٠٠٠ كيلو متر مربع .

٧ — حدود السودان الشرقية والحبشة : بعد ثلاثة أعوام من معاهدة

٢١ مارس سنة ١٨٩٩ الانجليزية الفرنسية التي سوت حدود السودان المصري من ناحية الكونغو والصحراء حدثت تسوية الحدود المصرية من ناحية الحبشة . وهذه التسوية التي تمت في ١٥ مايو سنة ١٩٠٢ بين

الحكومة الانجليزية و الامبراطور منليك الثانى شملت الحد الذى يفصل بين السودان المصرى واثيوبيا على مسافة يبلغ طولها ١٤٠٠ كيلو مترا . وقد رسم الخط الفاصل بحيث يترك للسودان جميع المراكز الضرورية لأمته وتطوره . فبسطت اثيوبيا حدودها لغاية نهر السوبات واعترفه بسيادتها على البلاد الواقعة بين نهري بارو والجب . وبذلك استولى منليك فى الجنوب الشرقى من السودان على أرض تبلغ مساحتها ٣٦٠٠ كيلو متر مربع . والذي يزيد من قيمة هذه الأراضى أنها متصلة بالسوبات وهو نهر صالح للملاحة فى كل فصل . وفى نظير هذا التنازل حصلت إنجلترا على امتيازات اقتصادية عظيمة منها تعهد منليك بعدم القيام بأى عمل من شأنه أن يحدث تغيرا فى النظام المائى للنيل الأزرق ونهر السوبات وبحيرة اتسنا ، ومنحه إنجلترا حق مد الخط الحديدي الذى سيصل الكاب بالقاهرة فى أراضى اثيوبيا . وبذلك يمكن وصل أوغندة بالخرطوم بالسكة الحديد الممتدة فى سفح الهضبة الاثيوبية وتجنب طريق المستنقعات النيبى وبعبارة أخرى ربط السودان بأفريقيا الشرقية الانجليزية وانشاء مواصلات منتظمة من موباسا الى الاسكندرية ثم فى وسط امبراطورية ضخمة تهيمن عليها إنجلترا (١) .

وقد اتسعت الحبشة من ناحية السودان بصفة عامة على حساب حدود السودان الشرقية كما اتسعت أريتريا على حساب حدود الحبشة الشمالية وحدود السودان الشرقية معا ولا يزال لهذا الاتساع المجحف صدى فى رأى العام السودانى .

ذكرت جريدة « الرأى العام » السودانية فى ١٥ سبتمبر سنة ١٩٤٥ المناطق التى اقتطعت من حدود السودان الشرقية قائلة : « انها الأقاليم التى يسكنها جزء من قبيلة بنى عامر السودانية فى اريتريا ، وشرق

(١) انظر كتاب (افريقيا للأوربيين) تأليف الدكتور دوير بالفرنسية (ص ٦٨) .

القلابات ، ومنطقة المتمة — التي يشهد اسمها بأصلها السوداني —
ومنطقة قوبا التي تسكنها قبائل القمر والهمج السودانية ، ومنطقة
بنى شنقول المعروفة ، والتي هي ضرورية للسودان نظرا الى خصوصيتها
ووجود الذهب فيها ، وخاصة أنها كانت جزءا من السودان في عهد الحكم
التركي » .

ملاحظات عامة :

كانت دول أوروبا في سنة ١٨٧٦ لا تملك في أفريقيا الا بقاعا صغيرة
مستطية على بعض نقط الساحل وكانت مصر تملك امبراطورية ضخمة
متماسكة . وكان سلطانها يمتد على جميع ساحل البحر الأحمر الغربي ويمتد
على المحيط الهندي لغاية رأس حافون واعترفت انجلترا بهذه السيادة
(على ساحل البحر الأحمر وسواحل السومال) في معاهدة ٧ سبتمبر سنة
١٨٧٧ والواقع أن نفوذ مصر كان يشمل بلاد السومال كلها لغاية
نهر الجب كما قلنا وكان يمتد في الداخل الى بلاد الجالا في جنوب الحبشة
لغاية منابع النيل .

ولكن بين سنة ١٨٨٢ و ١٨٩٢ حلت انجلترا وايطاليا وفرنسا والحبشة
محل مصر عنوة واقتدارا فنشأت مستعمرة اريتريا على ساحل يبلغ طوله
١٢٠٠ كيلو متر وكانت مساحتها حوالى ١٢٠٠٠٠ كيلو متر مربع .
وبلى اريتريا السومال الفرنسى وتبلغ مساحته حوالى ٢٧٠٠٠
كيلو متر مربع .

وبلى السومال الفرنسى السومال الانجليزى وتبلغ مساحته حوالى
٢٥٨٠٠٠ كيلو متر مربع (وسكانه ٣٠٠٠٠٠) وبلى السومال الانجليزى
السومال الايطالى وتبلغ مساحته (مع بلاد الجالا) حوالى ٦٠٠٠٠٠
كيلو متر مربع (وتعداد سكانه حوالى المليون) . وهذه المساحة الأخيرة

يدخل فيها منطقة وادي الجب وقسمايو التي كانت احتفظت بها أفريقيا الشرقية الانجليزية ثم تنازلت عنها لاييطاليا في سنة ١٩٢٤ ، وقد ظلت هذه المنطقة منفصلة عن السومال الايطالي لغاية سنة ١٩٢٦ ثم أدمجت فيه .

واستولت الحبشة على هرر سنة ١٨٨٧ وتبلغ مساحتها حوالى ٢٠٢٠٠٠ كيلو متر مربع (وتعداد سكانها حوالى ١٤٠٠٠٠٠) .

ثم تكونت على آثار السيادة المصرية في خط الاستواء وأوغندة بين المحيط الهندي ومنابع النيل أفريقيا الشرقية الانجليزية وأوغندة . وصارت مساجة . وأوغندة في الربع الأول من القرن الحالى ٣٣٣٠٠٠ كيلو متر مربع .

وفي يولية سنة ١٩٢٠ ارتقت حماية أفريقيا الشرقية الانجليزية الى مرتبة مستعمرة من مستعمرات الناج وسميت مستعمرة كينيا . وبلغت مساحتها — منذ التنازل عن منطقة الجب وقسمايو لاييطاليا (١١٣٠٠٠ كيلو متر مربع) — حوالى ٧٧٤٠٠٠ كيلو متر مربع . وكانت المجترة بعد امتلاكها جبل كينيا تطمع في امتلاك جبل كليانجارو لأنه من خيرة الأصقاع لاقامة الأوربيين ولكن هذا الجبل كان على كره منها ضمن حدود أفريقيا الشرقية الألمانية . حتى نشبت الحرب الكبرى (١٩١٤) فاستولت على أفريقيا الشرقية الألمانية (مستعمرة تنجيقا) وحصلت على انتداب من عصبة الأمم في سنة ١٩٢٢ . وتبلغ مساحة مستعمرة تنجيقا حوالى ١٣٣٨٠٠٠ كيلو متر مربع .

وقد استولت الحبشة — عدا هرر — في سنة ١٩٠٢ على قسم من أراضي السوبات تبلغ مساحته ٣٦٠٠ كيلو متر مربع كما قلنا .

واستولى الكونغو البلجيكي على جزء من مديريةية خط الاستواء وجزء من مديريةية بحر الغزال على نهر الأولة تبلغ مساحتهما في تقديرنا مالا يقل عن ١٢٠٠٠٠ كيلو متر مربع في أقصى الجنوب الغربي من السودان .

واستولى الكونغو الفرنسي على جزء من بحر الغزال على نهر ابومو
تبلغ مساحته في تقديرنا ١٥٦٠٠٠ كيلو متر في أقصى الجنوب
الغربي أيضا .

وأصبح أقصى حد جنوبي للسودان (من ناحية أوغندة) بلدة
نيمول بجوار دوفيلة بعد أن كان على ساحل بحيرة فكتوريا الشمالى .

وبعد اقتطاع كل ما اقتطع وضياع الملحقات التي كانت وحدها تؤلف
امبراطورية واسعة أصبح السودان المصري منذ سنة ١٨٩٩ السودان
المصري - الانجليزى وتبلغ مساحته حوالى مليون ميل مربع
أو ٣٤٣٧٠٠٠ كيلو متر مربع أى ثلث مساحة أوروبا وضعف ألمانيا
وفرنسا مجتمعين .

الفصل السادس عشر

المدينتان في أفريقيا

مدينة المصريين والعرب ومدينة الغريين

كتب سيلفا هويت في كتابه عن « تطور أفريقيا » الذي ظهر في سنة ١٨٩٢ ما نصه : « لقد تلسط تعدد الزوجات والرق على أفريقيا ، منذ القدم ، وهما من شر بلاياها ، ولا يمكن القضاء عليهما دفعة واحدة . ولكن يمكن من ناحية أخرى ، محو المشروبات الروحية والأسلحة في الحال ، وهما أكثر وسائل النفوذ الأوربي انتشارا ، دون أن يتضرر الأفريقيون .

» وقد ثبت أن تجارة المشروبات الروحية البغيضة كانت لها ، على الساحل الغربي ، نتائج مريعة بين المتعاطين ، وهي تشل جهود المبشرين والقائمين بأعمال البر والاحسان ، وهي مقترنة في نفوس السكان بالمسيحية كما أن تجارة الرقيق مقترنة في نظرنا بالاسلام ، واننا نحتمل ولا نعمل على محو إحدى البليتين بينما نعلن سخطنا ونعمل جاهدين على ابطال الأخرى ، وكنتاهما ، على كل حال ، عمل اجرامي قاضح . وان رياءنا في مسلكنا ليشف عما تحته للأفريقيين أنفسهم . ولا نبالي اذا قلنا ان كل تقدم في أفريقيا مستحيل ما لم تتمح فيها هذه التجارة الفظيعة المزدوجة .

» وفي جنوب أفريقيا تراجع معظم السكان الأصليين الى الورا على طول الخط أمام تقدم جنس أجنبي شديد قوى كاهولنديين والانجليز

أو أصبحوا عبيدا وفقدوا مقوماتهم بسبب الاندماج لأن الانتقال من البربرية الى المدنية كان لفترة ... وقد احتفظت قبائل الزولو وحدها بكيانها قدر المستطاع .

« وفي السودان أدى الاحتكاك بمدنية. تطابق أحوال الطقس وعبقريّة الشعب الى حدوث اندماج طبيعي بين الوثنيين والعرب . وفي هذه الحالة ساعدت ظروف البيئة على التقييم ، وفي بلاد النيل رأينا الدولة المصرية تلاشى بعد أن دبت في هيكلمها عوامل الفساد . وفي شرقي أفريقيا ، ضمحت السيطرة العربية كذلك . وكانت الأفتنان تعيشان بتجارة الرقيق فلم تعمل شيئا أو لم تعمل الا القليل لتساعدا على تقدم المدنية بين السكان .

« صحيح ان مؤتمر محاربة الرقيق اجتمع في سنة ١٨٨٩ — ١٨٩٠ ، ووضع برنامجا للقضاء على هذه التجارة ولكن أوروبا وان تكن قد ذهبت في سياستها الى حد تنظيم تجارة الأسلحة النارية الا أنها لم تجاوز ذلك الى إلغاء تجارة المشروبات الروحية لأن الأسلحة كان يخشى أن تصوب الى الأوروبيين في حين أن المشروبات الروحية السامة تقتل الوطنيين . هذا ما قاله ذلك الكاتب الانجليزي ، ولا بد أن تقرر بهذه المناسبة أن محاربة الرقيق ، نجحت ستار الأغراض الانسانية ، كان يساعد أوروبا على بسط نفوذها وتشتيت النفوذ العربي المنافس ، ولم يكن الفساد العام أو سوء الادارة هو الذي هار القوة المصرية في أعالي النيل — كما يزعم جميع الانجليز المسؤولين — وانما مصدر الفساد والانهار هناك هو سياسة الرقيق بالذات ، كما يبناء في هذا الكتاب — تلك السياسة التي فرضتها انجلترا لبذر بذور الاستياء والفوضى وتحقيق المطامع الأوروبية .

وفي شرقي أفريقيا ، أي في الساحل وزنجبار ، كان سقوط السيطرة

العربية من جراء هذه السياسة نفسها . أما القول أن الدولة المصرية لم تعمل شيئا يساعد على تقدم الوطنيين فهذا مخالف للحقيقة والأعمال المصرية البحتة في السودان ، من ١٨٢١ الى ١٨٧٧ ، وفي الأقطار المتطرفة من خط الاستواء الى ساحل البحر الأحمر الى بربرة وهرر وساحل الصومال شاهد على ذلك . وبما لا نزاع فيه أن امبراطورية محمد علي في آسيا وامبراطورية اسماعيل في أفريقيا كانت أسباب الانهيار في كليهما خارجية أي أن منشأ الانهيار لم يكن الفساد الوطنى الداخلى ولكن الضربات الخارجية القاصمة التي كانت توجهها أوروبا من الخارج .

ولاشك أن العوامل الداخلية كانت وشيجة الصلة بالعوامل الخارجية لأن تسلب الأموال بالربا الفحش وما يتبعه من خراب مالى وفرض رقابة أجنبية وتدخل مسلح كان خطة أوربية منظمة جرت في فارس وفي مصر وفي تونس ، وقد ترتب على ذلك أن التطور الطبيعى التقدمى في هذه البلاد الثلاثة ، وبالأخص في مصر ، قد عيق وربك بفضل هذه السياسة التي كانت محاربة تجارة الرقيق وتجارة المشروبات الروحية الرخيصة جزءا من برنامج تدخلها في أفريقيا .

ولا نبالغ اذا قلنا أن فكرة المدنية والانسانية بعيدة عن عقلية الاستعمار الأوروبى وأغراضه الاستغلالية الاستعبادية . وحسبنا هنا أن نشير الى ثورة مستعمرة لاجوس Lagos الانجليزية الواقعة على ساحل أفريقيا الوسطى الغربى حيث حاول الموظفون الانجليز وشركة نيجيريا الانجليزية افناء السكان بالمشروبات الروحية . وقد وجه الوطنيون سنة ١٨٩٦ الى البرلمان الانجيزى عريضة تحمل ١٢٠٠٠ امضاء من سكان لاجوس وايبادان وأبو كوتا من مختلف الأديان جاء فيها : « بما أنه ثبت أن تجارة المشروبات الروحية السامة من جن وروم وخلافهما التي أدخلت في أفريقيا الاستوائية الغربية ، وفي جميع القارة ، تحدث فيها بلايا عظيمة في الأجسام والعقول والأخلاق ، وبما أننا مقتنعون بأن

الوقت قد حان للقضاء بضربة حاسمة على هذه التجارة فانتا نحن الموقعين أدناه نتعهد بتأييد كل حركة تهدف الى الغائها في أوروبا أو أفريقيا .
وكانت حدثت عدة ثورات في سنتي ١٨٩٤ و ١٨٩٥ لأن الشركة كانت ترغب الأهالي على احضار محاصيلهم للمصانع الانجليزية ليأخذوا بدلها مشروبات روحية . وكان التجار الألمان والانجليز وغيرهم يتنافسون في ارسال مقادير ضخمة من هذه المشروبات السامة لحل الأهالي على تعاطيها . وقد بلغ ما أرسل الى ليجيريا من ميناءي روتردام وهامبورج سنة ١٨٩٧ حوالي ٢٣٠٠ طن من « الجن » وفي سنة ١٨٩٨ نحو ٣٣٠٠ طن (١) .

وقد كتب الدكتور بلايدن D. Blyden يقول : « بين سيراليون ومصر المسلمون هم الدولة الكبرى الوحيدة التجارية والفكرية والأخلاقية وقد ظلت القبائل المتوسطة بينهما أكثر من ثلاثة قرون تحت تأثير الاسلام الذي عمل منذ الفتح على تكييف حياة أدكاها الاجتماعية والسياسية والدينية . وان أتباعه يسيطرون على السياسة والتجارة في كل أفريقيا الواقعة في شمال خط الاستواء (٢) » .

وقد علق سيلفا هوait نفسه على رأى الدكتور بلايدن بقوله :
« حين يقتصر رجال أمثال الدكتور بلايدن للاسلام نرانا مضطرين للاعتراف بأن أولئك الرجال ومعارضيههم يقوم منطقهم على أسس متباينة . ولاشك أن حكم الدكتور بلايدن في مسألة كهذه جدير بكل احترام خصوصا وان الدكتور بلايدن زنجي قح من كبار رجال السياسة والعلم ، وهو فوق ذلك مسيحي . وهو حين يقول ان الاسلام هو أذكى قوة في السودان فانه بلاشك يقارنه بالوثنية و « الفتيشية » من ناحية

(١) أنظر كتاب « أفريقيا السياسية في سنة ١٩٠٠ » .

L'Afrique Politique en 1900, Par Bonnefon pp. 176-188

Christianity, Islam And The Negro Race, p. 260 (٢)

وبالمسيحية من ناحية أخرى لا بالمسيحية كما نعرفها بل بالمسيحية كما تبدو
تعاليمها في الواقع على ساحل أفريقيا الغربي ، وبيننا يرى المسيحيين في
أوروبا ينادون بالمذاهب العالية اذا أعماهم على النقيض مما يعلنون
ويقولون فهم يشجعون الرق ويزعمون الفاء كما يشجعون تجارة المشروبات
الروحية والأسلحة . وهو يرى الاسلام يحرم ويحض على عدم الاسراف
في الطعام أو الشراب ، وفي ذلك منجاة الوطنيين وصلاحهم ، ويرى في
الوقت نفسه معظم مبشره « مبعوثي الاسلام » يطبقون تعاليم دينهم .
ويرى الأوروبيين يهبطون الى مستوى الوطنيين بينما يجتهد المسلمون في
النهوض بالوطنيين الى مستواهم (١) » .

تكلمنا في أثناء البحث عن الادارة الانجليزية في السومال وفي
أوغندا وأشرنا هنا الى مساوئها في نيجيريا وغرب أفريقيا وقد ذكر
سلفا هويت فضائح ادارة البرتغال وبلجيكا وفرنسا في كتابه . ووضع
الألماني (لودويج بارو) كتابا عن ليوبولد ملك البلجيك (المكروه)
أظهر فيه فضائح الكونغو ومسلك ادارته الهمجى مع الوطنيين (٢) .

ووضع الإنجليزي (موريل) كتابا عنوانه (عبء الرجل الأسود)
أظهر فيه مساوئ الادارة الأوربية في أفريقيا وسياسة الرجل الأبيض
« الذي شق طرقا واسعة مملوءة بالدماء من أقصى أفريقيا الى أقصاها (٣) » .
وذكر المجازر وطرق الاستعباد والاستغلال الوحشية التي أدت الى فناء
قسم كبير من السكان وكل ذلك في سبيل الحصول على المطاط وسن
النفيل وغيرهما مما تبنته الشركات الرأسمالية وحكوماتها .

ويمكن الاطلاع أيضا على كتب الكاتب الفرنسي أندريه جيد الخاصة

(١) ص ١٨١ و ١٨٥ من كتاب سلفا هويت (تطور أفريقيا) الطبعة

الفرنسية . Silva White, Le Développement de L'Afrique

(٢) ظهرت طبعة فرنسية من هذا الكتاب :

Ludwig Bauer, Léopold Le Mal-Aimé Paris, 1935.

D. Morel, The Black Man's Burden (٣)

برحلاته في أفريقيا ومشاهداته في المستعمرات الفرنسية .

ولا بأس أن نذكر أن الأوروبيين هم أول من أبحر بالرقيق في أفريقيا وإن هذه التجارة في عهدهم كانت صحيحة سوداء في تاريخ البشر . كتب جوزف كوبر الانجيزي : « إن تاريخ الاسترقاق قد مضى عليه الآن أكثر من ثلثمائة سنة وبناء على احصاء قام به كاتب فرنسي مدقق إن هذه التجارة منذ ثلثمائة سنة قد انتزعت من أفريقيا أكثر من خمسين مليون رجل ^(١) .

« ولا شك أن الجرائم والعظائم التي تدل عليها هذه الأرقام تقع أولا على أمم أوروبا المسيحية التي جلبت هذه التجارة في أفريقيا في القرن السادس عشر ^(٢) » .

وجاء في كتاب من أمتع الكتب الحديثة عنوانه (غسق المدنية أو الغرب والشعوب الملونة) : « في الوقت الذي اكتشفت فيه قارات جديدة (إشارة إلى أمريكا) وجعل هذا الاكتشاف النفس الغربية الطموح تهز أجنحتها إلى عالم اللانهاية في الثروة المادية نبتت فكرة استغلال الإنسان لشبيهه الإنسان في سبيل تنمية ثرائه وزيادتها إلى حد غير معلوم . واقد منح شارل الخامس أصدقاءه الفلامان في أنقرس — سنة ١٥١٦ — الحق في قتل وبيع العبيد السود في أمريكا . ولكن إنجلترا ستصير هي البلد الذي تزدهر فيه تجارة الرقيق وتصبح أزهى صناعة في البلاد . وقد منح الكابتن هوكنز — وهو نحس من الطراز الأول — النالة

(١) ويرى بعض الباحثين أن عدد الزوج الذين اقتنسوا واخرجوا من ديارهم لا يقل عن مائة مليون لم يصل منهم سالما إلى أمريكا وأصبح سالحا للعمل في مزارعها أكثر من ٨,٥ مليون باعتبار أن من كل عشرة زوج يموت تسعة في البر من جراء الغزوات وفي البحر وهم مكدسون في قاع السفين وعند وصولهم بعد ملاقوا من العذاب الوانا .

(٢) صدر هذا الكتاب (الطبعة الفرنسية) سنة ١٨٧٦ وعنوانه (القارة الضائعة وتجارة الرقيق في أفريقيا)

Un Continent Perdu, par Joseph Cooper Traduit par Ed. Laboulaye Paris, 1876.

« لأنه يرجع اليه الفضل في تعريف البلاد (الانجلترا) بتجارة جديدة » .
وقد نظم الكونت لإليستر والكونت يمبروك ، على قواعد رأسمالية
واسعة ، تجارة الرقيق . وكان للانجليز في سنة ١٧١٣ ، بمقتضى معاهدة
دولية الحق في احتكار مطاردة العبيد ونقلهم وبيعهم . وقد كانت تجارة
الرقيق السبب في انتعاش البحرية التجارية وارتفاع شأنها ، وفي انتشار
الرخاء في مين ليفربول وبريستول ولانكستر .

« وكان في ليفربول أسطول مؤلف من ١٩٣ سفينة يستطيع نقل
٢٠٠٠٠٠ عبد في السنة . وكان نصيب العبيد الكرباج واللال وكالات
التعذيب وغذاء البهائم وقبر في المزبلة وكثيرا ما كان ينتفع بمجث الموقى
للسجاد . وكان نصيب المتدينين المستعمرات : قطن وسكر وقهوة
ومشروبات روحية . وقد صرح ميريفال Merivale (محاضرات عن
الاستعمار والمستعمرات ، ١٨٤١) ان رخاء منشستر وليفربول قام بنيانه
على دماء العبيد المتحجرة (١) » .

هذه لمحة الى آثار المدنية الأوربية في أفريقيا في القرن السادس عشر
والسابع عشر والثامن عشر . أما القرن التاسع عشر فقد أرادت أوروبا
أن تكفر عن سيئات الماضي وأعلنت حربا صليبية على تجارة الرقيق وقد
بيننا أنها كانت حربا سياسية تمهد لها سيل التدخل في شؤون القارة
للاستيلاء عليها وعلى مواردها . وقد اشتركت الدول جميعا في حروب
الابادة والافناء التي شنت على العرب في أواسط أفريقيا حتى تمكنت
بأسلحتها وقوتها الصناعية من اخضاع السكان الأصليين وبلادهم . ولكن
كانت نتائج الحروب الاستعمارية في أفريقيا أشبه بالنتائج التي جرتها
سياسة الاسترقاق في القرون الثلاثة .

وها نحن نضرب مثلا واحدا من أمثلة الاستعمار الانجليزي الذي

Arraro Labriola, Le Crépuscule de la Civilisation. L'Occident et les
Peuples De Couleur. Paris, p. 53-54.

(١)

هو أرقى استعمار في القارة وذلك في ولاية بنان الواقعة في مصب نهر النيجر Benin : « قرر الانجليز اخضاع هذا الشعب الذي حاول جهده أن يحمي استقلاله بمنع الأجانب من دخول المدينة . ولكن كان معلوما أن ملوك بنان يمكنون بمجموعات نفيسة من البرونز القديم صنع الزنوج . وذاع أن هناك كنوزا دفينة مخبوءة في غرف تحت الأرض عند ملوك بنان وعلية القوم (الارستوقراطية) ، وكان طبعيا أن يفكر الانجليز ، وقد سكبوا نيجيريا ، في وضع يدهم على كل ذلك . فاستدعوا بالحجة القديمة وهي حدوث « اهانة » لشخص بعض رعاياهم المقدس . وبناء عليه تقرر عمل « تجريدة تأديبية » وقد دافع الملك أوفيرامي ورئيس قوات بنان أولوجبوشيخي خير دفاع عن استقلالهم ضد الغزاة ولكن السهام والحرايب وبعض البنادق القديمة ما كانت لتستطيع زمنا طويلا « الصمود » أمام مدافع ومتراليوزات صاحب الجلالة البريطانية . وقد سقطت مدينة بنان . ولكن ذلك لم يكف الانجليز لأن قطع البرنز والكنوز ظلت مخبوءة . عندئذ قر الرأي على تدمير المدينة . وقد زعم الانجليز أن الحريق التي التهمت كانت قضاءا وقدرا ولكن « مذكرات جراح مع حملة بنان التأديبية » التي نشرتها مجلة الجمعية الجغرافية بمانشستر تلم بواقعتين الأولى — أن اثنين من حمالي الحملة قد وضعا النار في عشة من عتس السكان

Tow carriers of the expedition set fire to a hut

والثانية أن المدينة كلها كانت طعمة للنيران في أقل من ساعة .

In less than an hour the whole place was strawn in ashes

مما يدل على أن الحريق قد أضرمت ناراها في وقت واحد في أماكن متعددة . وقد هلك مئات من السكان في هذا الحدث المريع . ثم شرع القوم في سلب ونهب البرونز وأدوات الزينة المصوغة ، ولكنهم لم يعثروا على كنوز من الذهب المصمت ، عدا الكنوز الفنية . فعول الانجليز على

الانتقام وبعد اجراءات قضائية هازلة خلعوا الملك أوفيرامى وثفوه ،
وفى ٢٧ يونية سنة ١٨٩٧ شنقوا أولدجيوشيري ، البطل الذائد عن
مدينة بنان . وبذلك انتهت هذه الدولة التى عمرت من أربعة الى خمسة
قرون وذهبت معها مدينتها وفنها . ولا شك أن تدمير بنان يحتل صفحة
خاصة فى تاريخ الجرائم التى ارتكبها الانجليز فى مستعمراتهم .

« تلك هى (المدينة) التى جلبتها أوروبا للسود فى أفريقيا (١) » .
وقد فقد الكونغو البلجيكي فى ظرف ثلاثة وعشرين عاما مالا يقل
عن عشرين مليون رهط قضت عليهم السياسة الغاشمة التى جرى عليها
البلجيكيون ومليكم ليوبولد .

وبالجملة ان الأوربيين قد حاولوا محو السكان ومحو مدينتهم القديمة
القائمة ومحو المدينة الجديدة المدنية المصرية العربية التى كانت أنسب
المدنيات اليهم والتى كانت رحمة ولعمة اذا قيست بمدنية الغرب التى
صارت نقمة .

(١) « غسق المدينة » ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

1. 2. 3.

4.

5.

6.

7.

8.

9.

10. 11. 12. 13. 14. 15. 16. 17. 18. 19. 20. 21. 22. 23. 24. 25. 26. 27. 28. 29. 30. 31. 32. 33. 34. 35. 36. 37. 38. 39. 40. 41. 42. 43. 44. 45. 46. 47. 48. 49. 50. 51. 52. 53. 54. 55. 56. 57. 58. 59. 60. 61. 62. 63. 64. 65. 66. 67. 68. 69. 70. 71. 72. 73. 74. 75. 76. 77. 78. 79. 80. 81. 82. 83. 84. 85. 86. 87. 88. 89. 90. 91. 92. 93. 94. 95. 96. 97. 98. 99. 100.

101. 102. 103.

104. 105.

106. 107.

الخاتمة

حدثت « فوضى » في مصر في شكل ثورة سياسية في سنة ١٨٨١ . وقد كان التدخل الانجليزي سبب في أن هذه الثورة السلمية في بدايتها قد خرجت عن جادتها وتحولت في سنة ١٨٨٢ الى ثورة مسلحة استدرعت بها إنجلترا لاحتلال مصر . وفي نفس السنة (١٨٨٢) حدثت فوضى في السودان في شكل ثورة دينية . وقد استدرعت إنجلترا باحتلالها مصر لتشجيع هذه الفوضى على الاتساع والدوام خمسة عشر عاما كاملة تنشر البؤس والموت والخراب في أرجاء السودان . ثم نصبت إنجلترا نفسها وصية على مصر وانتزعت منها السودان وجميع ممتلكاتها بعد أن أرغمتها على اخلائها بالقوة .

جرت إنجلترا على سياسة الاضعاف والتعطيم المنظم نحو مصر منذ ولاية محمد علي لغاية معاهدة لندرة (١٨٤٠ - ١٨٤١) . وكانت هذه المرحلة الأساسية الاولى . وكان افتتاح قناة السويس في سنة ١٨٦٩ بداية المرحلة الثانية . وقد كان تعيين بيكر (١٨٧٠) بناء على ايصاء ولي عهد إنجلترا ايذانا بتغلغل الاضطراب السياسي والاقتصادي في أفريقيا الوسطى .

كتب هاري جونستون بمناسبة افتتاح قناة السويس في كتابه : (بريطانيا عبر البحار ، أفريقيا) : « في سنة ١٨٧١ عبرت القناة ألف باخرة انجليزية فحتم على مصر مصر . وبان كالصبح في أعين جميع المماسة المستعيرين في الامبراطورية البريطانية أنه اذا لم تتمكن مصر من المحافظة

على استقلالها كدولة ضعيفة محايدة وجب أن لاتقع تحت سيطرة دولة ما تملك من المنعة والقوة مايكفى لتحدى بريطانيا العظمى واغلاق قناة السويس (١) » .

وقد صاغ نفس الفكرة في أسلوب مختلف اللورد نورثبروك اذ كتب باعتباره رئيس البحر (الأميرالية) الى بيرنج (في ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٨٢) بعد ضرب الاسكندرية بالقنابل واحتلال مصر : « حتى ولو كانت الهند منفصلة فانها تخسر أكثر من انجلترا بسد القناة وتعطيل حركة المرور فيها . واني لا أسلم بأن زيادة بواخرنا الخ تتوقف على القناة . فالأمر بعكس ذلك . لأن خط الكاب من وجهة النظر البحرية هو أفضل الخطوط .. فلو كانت الهند مملكة منفصلة أكان في مقدورها أن تغفل مصالحها الحيوية في سم مصر ؟ أليس من الخطر عليها أن تقوم في مصر دولة قوية معادية ، وما الذي يحول دون ذلك ؟ وهل هناك مايتعارض مع منطق النظرية القائلة بأنه لو ترك عرابي ورجال على شاكلته وكانت لهم السيطرة لقامت في مصر دولة اسلامية مهاجمة ذات شأن أو أن دولة أوربية أخرى كانت تتدخل ، كما تدخلنا ، ولكن بدون أغراضنا الشريفة (كذا) وبفكرة احتلال الشرق ؟ لا شك أن مصالح انجلترا والهند معا تتطلب أن لاتتمكن أمة أخرى من الهيمنة على مصر (٢) » .

وبذلك كتب على مصر أن تظل منذ ابتداء القرن التاسع عشر ضعيفة مستضعفة وأن لا تؤدي رسالة المدنية كاملة في آسيا أو في أفريقيا من البحر الأبيض الى البحر الأحمر والمحيط الهندي .

وقد حاربت انجلترا محمد علي وألبت عليه الدول وحرمته من ثمار انتصاراته وحاولت طرده من مصر بواسطة الباب العالي وأوقعت اسماعيل

(١) Harry Johnston, Africa p. 342

(٢) Thomas George Earl of Northbrook. A memoir, By Bernard Mallet 1908 pp. 160-170.

في الارتباك المالى فلما رأته في سنة ١٨٧٩ يؤيد الحركة الوطنية الناشئة ويؤلف حكومة قوية لانقاذ البلاد خلعتة ووضعت مكانه أميرا ضعيفا (توفيق) فلما ثار العراقيون ونجحوا في تأسيس حكومة دستورية قوية ضربت الاسكندرية بقنابلها واحتلت البلاد وأرغمتها على التخلي عن السودان والملحقات لتضمن بذلك أن لا تجد مصر في الداخل والخارج عناصر القوة والعزة والسلطان وأن تظل في حدودها الضيقة خاضعة لها .

وقد بلغت مصر أوج محنتها وضعفها بين سنتي ١٨٨٢ و ١٨٩٨ لأن إنجلترا أصبحت تهيمن عليها وتمسك بمخنفها من طريق القناة ومن طريق النيل معا ، وبدأ مستقبل مصر يضرب بين هذين الطريقين المائين .

تكلم سدنى بيل عن وحدة الوادى ، قال : « لا يمكننا بعد اليوم اعتبار احتلالنا مصر كعبر لنا في طريق الهند فحسب . . ليست مصر في الواقع الا جزءا من مملكة النيل الواسعة . وهى في اتجاهها نحو الجنوب من الاسكندرية الى السويس لا يجد أفقها الا منابع النيل . ولاشك أنه مع الزمن سيصبح المصريون قادرين على حكم مصر . ولكن أشد الناس تفاؤلا ليس في وسعه أن يتنبأ عن الزمن الذى يصبحون بعده قادرين على حكم السودان . أما صيحة « السودان للسودانيين » فهي أدعى للسخرية .

وهناك أمر واضح كل الوضوح : وهو أن أراضى النيل تؤلف كلها بلدا واحدا . ولا يمكن تجزئة السيادة . فلا بد من يد واحدة قوية تسيطر على ذلك البلد جميعه » .

ولتبرير « وضع اليد » هذا على وادى النيل كله (من أوغندة فالحبشة فالسودان) يقول الكاتب : « لنا مصلحتنا التجارية المباشرة في امتلاك وادى النيل ، كما ان مصر لا تزال في طريق الهند » .

ثم يذكر أخيرا واجبات إنجلترا كدولة متمدينة نحو شعوب النيل :

« من خمسين عاما مضت وضع أحد البحارة الانجليز المتازين ^(١) بعد أن قام برحلة الى الخرطوم والأبيض كتابا عن هذه الرحلة عنوانه « جولة عبر الصحراء النوبية » قال فيه : « لقد رسمت يد الواحد القهار على الصحراء أنها ستكون خط الاتصال مع الأمم النائية . وهذه المهمة لم تنجز بعد . وستكون الصحراء الطريق لنشر المدنية في أفريقيا ، ولكن لن تكون أمة شرقية ولن يكون دين محمد السيل الى ذلك ، والنبي أحد الذين يعتقدون ويؤمنون بأن الله قد خص إنجلترا بهذه المهمة . ولا شك أن حكومة انجليزية وطائفة من الانجليز في وسعها القيام بهذا العمل . عندئذ تنشأ المدائن في أصوان والخرطوم وتنفذ منها المدنية الى داخل البلاد من أقصاها الى أقصاها » .

والواقع أن مصر الحديثة قامت بهذه المهمة خير قيام وبنت المدائن وعمرتها ونشرت المدنية في أواسط القارة السوداء . وقد تمكنت مصر باعتبارها دولة شرقية عربية أفريقية من بسط مدنية تتلاءم مع أحوال هاتيك الشعوب وحاجاتها لا مدنية سطحية بل مدنية بعيدة الغور تتغلغل في نفسية الشعب وفي لغته وفي دينه وفي تطوره .

وقد رأينا كيف شجعت إنجلترا الفوضى وفصلت السودان وممالك السودان المتطرفة عن مصر فوققت حركة النمو الطبيعي في هذه البلاد وأضعفت مصر في نفس الوقت ووضعت استقلالها في حدود ضيقة جغرافيا واقتصاديا وسياسيا وعسكريا . فأيا كان الاستقلال أصبح لزاما عليها أن تحسب ألف حساب للخطر الانجليزى الذى يهددها من ناحية القناة ومن ناحية النيل ابتداء من منابعه أى من جميع النواحي وفي جميع المناطق التى يتألف منها القضاء الحيوى لنفوذ المصرى المتجانس .

(١) سير وليام بيل بطل اللواء البحرى فى حرب القرم .

ويمكن تقسيم تاريخ السودان الى أربعة عصور : يرجع الأول منها الى مصر الفرعونية وفيه تقدمت المدنية المصرية أعمال الفتح وتغلغل في داخل أفريقيا حتى البحيرات الاستوائية .

وفي العصر الثاني ، وهو عصر التغلغل العربي الاسلامي في شمال أفريقيا ، وفي شهاها الشرقي ، وفي السودان (بما فيه دارفور والممالك المحيطة ببحيرة تشاد) . وقد كان للمدنية العربية أثر ثوري خصوصا في الشمال : في مصر من ناحية وفي الجزائر وتونس ومراكش حيث اندرج البربر في العرب كما اندرج الزنوج جنوبا (السودان) .

أما العصر الثالث ، الذي هو في الواقع تمة لثاني ، فقد توسطهما زمن الحظاظ وتدهور أعقبه ظهور مصر الحديثة العربية في السودان وفي الشمال الشرقي لأفريقيا حيث كانت له نتائج بينات وفي أثناء ذلك العصر (في السودان من سنة ١٨٢١ الى سنة ١٨٨٢ وفي مديرية خط الاستواء لغاية سنة ١٨٩٨) ظهرت شخصيات سودانية قوية من أصل زنجي تعربت وتنقلت في مدارج الحضارة المصرية كآدم باشا الدنكلاوي الذي كان القائد العام للقوات العسكرية في السودان وغيره وأخذت عملية اندماج العنصر الأسود في العنصر العربي تخطو من جديد خطوات واسعة في أواسط أفريقيا . على أن النفوذ المصري الذي كان يوغل من الشمال ، من طريق النيل ، نحو الجنوب والبحيرات فاتها ومؤسسا ومنظما كان يسايره في الوقت نفسه ، من طريق الساحل شرقا ، نفوذ التجار العرب الذين تغلغلوا في أوغندة والأونيورو وحوالي البحيرات وسبقوا مصر والأوربيين اليها .

وقد أحدثت مصر في بلاد السومال وهرر انقلابا ثوريا من ناحية المدنية لاشك فيه .

وينقسم العصر الرابع الى ثلاثة عهود الأول عهد الحكومة المختلطة أو

حكومة الأوربيين : بيكر وغردون في أفريقيا الوسطى (١٨٧٠ - ١٨٧٣ و ١٨٧٤ - ١٨٧٦) وغردون في السودان (١٨٧٧ - ١٨٧٩) .
الى هذا العهد ترجع أسباب ومقدمات الثورة المهدية . والثاني (١٨٨٢ - ١٨٩٨) وهو العهد الذي أرغمت فيه إنجلترا مصر على التخلي عن السودان وجميع ملحقاته وتمكنت من فصم عرى الوحدة الكبرى التي انتظمت البلاد الأفريقية وأخذت تنسج كل يوم على حساب الطمعية والوثنية ، وحدة اللغة والثقافة التي هيمنت في قلب أوغندة نفسها في أيام امتيزا حين كانت اللغة العربية لغة جميع رؤساء الجيش الرسمية وكان تفوذ مصر فيها تفوذ الدولة الحامية . وكان معظم سكان الأونبورو يفهمون العربية وكان كاباريجا مليكها نفسه يحسن التكلم بها .
وقد تمكنت إنجلترا في سنة ١٨٩٩ بعد إعادة الفتح وعمل اتفاقية السودان من وضع قدمها في السودان ، الذي أصبح من ذلك الوقت (السودان الانجليزي المصري) وكانت تريد ضمه الى ممتلكاتها ولكنها رأت من الأوفق لمصالحها مشاركة مصر في ادارته لأنها كانت بحاجة في عصر الانتقال الى عساكر مصر وأموال مصر وتفوذ مصر الأدبي حتى توطد سلطانها وتنفرد به . ومتى نجحت بمعونة مصر في اصلاح اقتصادياته ، وتأليف جيش من الوطنيين ، واكتساب تفوذ محلي واسع عملت على قطع آخر صلة تربط السودان بمصر . وهذا ما حدث في سنة ١٩٢٤ على أثر مقتل السردار السير في ستاك في القاهرة .

وقد استدرعت إنجلترا بهذه الجريمة الفردية لطرد الجيش المصري والموظفين المصريين من السودان . ومن ذلك الوقت كلما اضطرت الظروف إنجلترا الى تخفيف وطأتها على مصر حاولت أن تجد العوض في تطبيق سياسة انفصالية بين مصر والسودان أشد وطأة . والتاريخ يعيد نفسه فانه بعد أكثر من نصف قرن عادت إنجلترا الى السياسة التي رسمها غردون بين سنتي ١٨٧٧ و ١٨٧٩ أي الى سياستها القديمة التي

كان ينبغيها غردون وأعوانه لأجانب وكانت ترمى إلى استقلال السودان الذاتي و تعيين موظفين انجليز ووطنيين مكان المصريين (السودنة) وفصل جنوب السودان عن شماله ، والتحقيق من شأن كل ما هو مصرى فى أعين السودانين حتى تتمكن من صدع هذه الوحدة الروحانية السامية التى تتألف منها ومن الوحدة الجغرافية الأساس الذى يرتكز عليه ذلك الاتحاد الأزلى بين شعبي الوادى . وانه لمن الصعب التسليم بأن أمة آتية من أقصى الشمال تدعى لنفسها الحق فى غدين شعب فى الجنوب غرب عنها فى وضعه الجغرافى وفى جنسه وثقافته وبيئته .

ومهما كان من الأمر فإن سياسة ادماج الزنوج فى أفريقيا تلك السياسة السطحية التى جرى عليها المبشرون والمستعمرون الأوربيون لم تأت ولن تأتى بنفس نتائج الادماج العربى من حيث الحضارة والتأثير بها . وهذه حقيقة واضحة جلية .

وقد كان ادماج العرب أو المصريين للعنصر الزنجى أو الأسود ، ذلك الادماج الذى يرمى إلى تجديد الشخصية وخلقها من جديد وتحريرها فى شكل من الأشكال ، لا إلى افنائها أو استعبادها ، عقبة كرودا فى طريق المستعمرين . ولذلك فانها كانت السبب الحقيقى الأول لحروب المحر والافناء التى أثرتها الدول فى أفريقيا فى القرن التاسع عشر ضد العرب تحت ستار الانسانية ومحاربة النخاسة والنخاسين .

وقد جرت أوروبا على سياسة التقسيم فى أفريقيا دون أن تحسب أقل حساب لمصالح المدنية والعوامل الأدبية الرفيعة . وكانت لا تعنى بالتفكير الا فى مصالحها المادية والسياسية . فكل فكرة انسانية وكل مطمح عال كانت تحف موازينه أمام « المواد الأولية » ومستزمات التفرد بالجاه والسلطان .

ولا ريب أنه على الرغم من المنافسات والخلافات التى تحدث بينها

كان ممثلو الدول في ظروف كثيرة يعلنون تضامن أوروبا في أفريقيا للاحتفاظ بهيمنتها فيها والقضاء على جميع الحركات الثورية « الضارة » التي تهددها .

وما كانت مصر والسودان لتستطعا الإفلات من تطبيق ذلك القانون الصارم . وكان اتفاق سنة ١٩٠٤ مظهرا من مظاهر هذه السياسة . وغير خاف أن أصل ذلك الاتفاق المناقصة الانجليزية الفرنسية التي بلغت مأزهما في فشودة . وكانت التسوية تتعلق بإراكش ومصر (ومع مصر مسألة النيل) وقد تقايضت الدولتان ثوذهما على حساب الشعوب . وما كادت انجلترا بعد هذا الاتفاق تصبح مطلقة اليد في النيل حتى تفرغت لتوطيد مركزها في مصر والسودان فضربت الذلة والاستعباد عليهما معا .

كتب واليس بدج Wallis Budge في سنة ١٩٠٧ في مقدمة كتابه « السودان المصري » يقول « والحق يقال ان السودانيين ليس في استطاعتهم أن يحكموا أنفسهم ولن يستطيعوا ذلك قبل أجيال .

» ان مهمة الادارة في مصر وفي السودان اللذين هما في الواقع ونفس الأمر بلد واحد وأرض واحدة هي من الصعوبة بمكان الخ » .

كانت انجلترا بالأمس تنادى بوحدة البلدين التي لا انقسام لها ولكنها اليوم ، وقد أصبحت مصر تحاول تحقيق حريتها الكاملة لا تريد الاعتراف بهذه الوحدة الأزلية بل تعمل على جعل السودان مستقلا عن مصر لا عن انجلترا . والمنطق يقتضي أن تعكس الآية ليتحقق استقلال السودان بالنسبة لانجلترا لا بالنسبة لمصر وأن تحترم هذه الوحدة التي صارت مصر والسودان من جرائها « بلدا واحدا وأرضا واحدة » .

وعلى أية حال ان هذا « الاستقلال » هو غاية هذه السياسة العاتية التي عرفت كيف تجدد في المهديّة العنصر الأول من عناصر التفرقة والفصل بين شعبي الوادي .

القسم الأول

المراجع العريضة المطبوعة

- اسماعيل سرهنك باشا . حقائق الأخبار عن دول البحار (الجزء الثانى) .
- نعم بك شفير تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته فى ثلاثة أجزاء . القاهرة سنة ١٩٠٣
- سلاطين باشا - السيف والنار فى السودان . تعريب جريدة البلاغ . هذه الترجمة غير مأخوذة عن الأصل الألمانى أو الترجمة الفرنسية الصحيحة ولكن عن الترجمة الانجليزية التى قام بها ونجت باشا وهى ترجمة محرفة مشوهة ناقصة وفيها زيادات مفرضة لا توجد فى الأصل .
- محمود طلعت - غرائب الزمان فى فتح السودان . الكتاب الأول سنة ١٣١٤ هـ .
- ابراهيم باشا فوزى - كتاب السودان بين يدي غردون وكنشنر . جزءان . سنة ١٣١٩ هـ .
- ميخائيل شاروويم بك - الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث (الجزء الرابع) . سنة ١٩٠٠ م . سنة ١٣١٨ هـ .
- داود بركات - السودان المصرى ومطامع السياسة البريطانية (١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤ م) .
- عبد الرحمن الزافعى بك - مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال (تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٨٩٢) . القاهرة (١٣٦١ هـ - ١٩٤٢ م)

- مكي شيكّه - السودان في قرن (١٨١٩ - ١٩١٩) . القاهرة
 (١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م) .
- دكتور محمد فؤاد شكرى - الحكم المصرى فى السودان (١٨٣٠ -
 ١٨٨٥) . القاهرة سنة ١٩٤٧ .
- (الشيخ محمود القباني) - السودان المصرى والانكليز .
 مجموعة رسائل لأحد أدباء العصر . مطبعة الأهرام بالاسكندرية
 سنة ١٨٩٦ .
- أمين سامى باشا - تفويم النيل .
 (وفد السودان) - مآسى الانجليز فى السودان . القاهرة
 (١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م) .
- (محزون) - ضحايا مصر فى السودان وخفايا السياسة الانجليزية .
 الاسكندرية (١٣٤٩ هـ - ١٩٣١ م) .
- سمو الأمير عمر طوسن - تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية
 من فتحها الى ضياعها . فى ثلاثة أجزاء . الاسكندرية (١٣٥٥ هـ -
 ١٩٣٧ م) .
- المسألة السودانية (١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م) .
- بطولة الأورطة السودانية فى حرب المكسيك (١٣٥٢ هـ -
 ١٩٣٣ م) .
- الأستاذ محمد أحمد الجابرى - فى شان الله أو تاريخ السودان كما يرويه
 أهله . دار الفكر العربى . سنة ١٩٤٧

BIBLIOGRAPHIE

I.—SOURCES

Notre principale source a été, outre les mémoires inédits de Nubar Pacha qui sont du plus haut intérêt, les Archives du Palais d'Abdine au Caire et les Archives du Foreign Office à Londres, que nous avons consultées jusqu'à 1890 environ. A part la correspondance consulaire il y a dans le "Public Record Office" un fonds très important relatif aux Revendications de souveraineté dans la mer Rouge, l'Afrique, et l'Arabie (*claims to sovereignty in the Red Sea, Africa and Arabia*). C'est une mine de documents de premier ordre.

II.—BIBLIOGRAPHIES

La première bibliographie sur l'Egypte et le Soudan, a été publiée à Londres, en 1886-1887 par le prince Ibrahim Hilmy: *The Literature of Egypt and the Sudan, from the earliest times to the year 1885 inclusive*; 2 vols.

Cette remarquable bibliographie est établie d'une façon scientifique et fourmille de renseignements et de détails précis.

Sur le Soudan en général il faut consulter une récente et importante bibliographie: *A Bibliography of the Anglo-Egyptian Sudan from the Earliest Times to 1937*, par R.L. Hill (Sudan civil Service) London, 1939.

Pour Harrar et l'Afrique Orientale, le savant Autrichien Philipp Paulitschke a publié une bibliographie à la fin de son étude: *Die Geographische Erforschung der Adal-Länder und Harar's in Ost-Afrika* (Leipzig, 1888).

Il existe aussi une bibliographie très intéressante, quoique ancienne, sur l'Afrique: *Bibliographie des ouvrages relatifs à l'Afrique et à l'Arabie*. Catalogue méthodique; par Jean Gay, 1875.

Les bibliographies publiées par les Italiens sur l'Ethiopie, à une date relativement récente, ne sont pas sans rapports directs avec les questions du Soudan, de la mer Rouge, de Harrar et de l'Afrique orientale et présentent, par conséquent, un grand intérêt pour les savants et chercheurs.

III.—PUBLICATIONS OFFICELLES

Les livres bleus et les livres jaunes ainsi que tous les rapports, mémoires et documents officiels publiés sur l'Égypte, le Soudan, et l'Afrique en général, complètent le travail des archives et la documentation "officielle".

IV.—OUVRAGES DIVERS

On trouve dans les bibliographies sus-mentionnées la liste complète des ouvrages relatifs au Soudan et à l'Égypte dans ses rapports avec le Soudan. Nous donnons ici seulement la liste des principaux ouvrages consultés par l'auteur.

A.—Le Soudan :

✕ **Bernard Allen**, GORDON AND THE SUDAN. London, 1931

Lytton Strachey, EMINENT VICTORIANS (Chapitre intitulé THE END OF GENERAL GORDON). C'est moins une étude qu'un portrait, très vivant du reste. Une traduction sommaire sous le titre: LA FIN TRAGIQUE DE GORDON PACHA, a paru dans la REVUE DES DEUX MONDES, du 15 avril et du 1er. mai 1931.

Victor Cherbuliez, PROFILS ETRANGERS (Charles Gordon).

Miss Gordon, LETTRES OF GENERAL C.G. GORDON TO HIS SISTER London, 1888.

Slatin Pacha, FEUER UND SCHWERT IM SUDAN (1879-1895), Leipzig, Brockhaus, 1896.

Une traduction française de cette étude a paru au Caire. en 1898: G. Bettex, Slatin Pacha, FER ET FEU au Soudan.
Achille Bièvre, UN GRAND AVENTURIER DU XIX^e SIECLE; GORDON PACHA. PARIS, 1907.

Blunt (W.—S.), GORDON AT KHARTOUM. 1911.

Bougler (Dimetrius), LIFE OF GORDON, 1896.

Gordon (sir H.—W.), EVENTS IN THE LIFE OF CHARLES GEORGE GORDON, 1886.

Wilkins (W.—H.), THE ROMANCE OF ISABEL, LADY BURTON.

- Jules Cocheris**, SITUATION INTERNATIONALE DE L'EGYPTE ET DU SOUDAN. PARIS, 1903.
- P. Crabitès**, GORDON, THE SUDAN AND SLAVERY. LONDON 1931.
- De Malortie**, HERE, AND EVERYWHERE.
- W. Loring**, A CONFEDERATE SOLDIER IN EGYPT, 1884.
- Dye**, MOSLEM EGYPT AND CHRISTIAN ABYSSINIA. THE PERSONAL PAPERS OF LORD RENDEL, 1931.
- Prof. Adolf Hasenclever**, AGYPTENS IM 19 JAHRHUNDERT (1798-1914).
- Dr. Abbate Pacha**, LE SOUDAN SOUS LE RÈGNE DU KHEDEVE ISMAIL. Notes d'une décennie historique (1868-1878). Le Caire, 1905, 47 pages.
- Harry Johnson**, BRITAIN ACROSS THE SEAS, AFRICA, London, 1911.
- Sidney Peel**, THE BINDING OF THE NILE AND THE NEW SUDAN, London, 1904.
- Wallis Budge**, THE EGYPTIAN SUDAN; 2 vols. London, 1904.
- SUDAN NOTES AND RECORDS**. Cette revue remarquable qui paraît actuellement à Khartoum est à consulter depuis sa première année 1918
- M. Sabry**, L'EMPIRE EGYPTIEN SOUS MOHAMED-ALY ET LA QUESTION D'ORIENT. (1811-1849). PARIS, chez chez P. Geuthner. 1930.
- M. Sabry**, L'EMPIRE EGYPTIEN. SOUS ISMAIL ET L'INGERENCE ANGLO-FRANÇAISE (1863 — 1879.) Paris, 1933.
- Prokesch-Osten**, GESCHICHTE DES ABFALLS DER GRIECHEN, 5 vols. Les trois derniers sont des recueils de documents en français. Wien, 1867.
- ALFRED LYALL**, THE LIFE OF THE MARQUIS OF DUFFERIN AND AVA, 2 vols. London, 1905.
- J. Scott Keltie**, THE PARTITION OF AFRICA. London, 1893.
- Major F.R. Wingate**, MAHDIISM AND THE EGYPTIAN SUDAN. London, 1891.

Sir Harold MacMichael, THE ANGLO-EGYPTIAN SUDAN.
London, 1934.

Arnold Toynbee, SURVEY OF INTERNATIONAL AFFAIRS,
1925. Vol. I. (THE ISLAMIC WORLD SINCE THE PEACE
SETTLEMENT).

A.B. Wylde, '83 TO '87 IN THE SOUDAN, 2 vols. London, 1888.

Richard Buchta, DER SUDAN UNTER AGYPTISCHER
HERRSCHAFT. 1883-1885. Leipzig, 1888.

Josef Ohrwalder, AUFSTAND UND REICH DES MAHDI IM
SUDAN. Innsbruck, 1892.

Sir Harry Johnston, THE NILE QUEST. A Record of Explora-
tion of the Nile and its Basin. London, 1903.

Lord Newton, LORD LANSDOWNE. A Biography. London
1929.

Sir Samuel Baker, THE NILE TRIBUTARIES OF ABYS-
SINIA. London, 1871.

H. C. Jackson, OSMAN DIGNA. London, 1926.

Emile Banning, LE PARTAGE POLITIQUE DE L'AFRIQUE,
les transactions internationales les plus récentes (1885-1888)
Bruxelles, 1888.

Van Ortoy, CONVENTIONS INTERNATIONALES,
définissant les Limites actuelles des Possessions, Protectorats et
Sphères d'influence en AFRIQUE. Paris, 1898.

Sir Edward Hertslet, THE MAP OF AFRICA BY TREATY, 3
vols. London, 1896.

E.—L. Bonnefon. L'AFRIQUE POLITIQUE EN 1900. Paris,
1900.

Jean Darcy, CENT ANNEES DE RIVALITES COLONIALES.
L'AFRIQUE. Paris, 1904.

Dr. Gustav Nachtigal. SAHARA UND SUDAN, 2 vols. Berlin,
1881.

Karl W. Kumm, THE SUDAN, LONDON, 1907.

A. Billot, LA FRANCE ET L'ITALIE (1881-1899), 2 vols.
Paris, 1905.

- Gaston Dujarric**, L'ETAT MAHDISTE DU SOUDAN. Paris, 1901.
- Lieut-Colonel Count Gleichen**, THE ANGLO-EGYPTIAN SUDAN 2 vols. London, 1905.
- A. Silva White**, LE DEVELOPPEMENT DE L'AFRIQUE. (Traduit de l'anglais). Bruxelles, 1894.
- F.L. James**, THE WILD TRIBES OF THE SOUDAN. London, 1884.
- Henry Russell**, THE RUIN OF THE SOUDAN. London, 1892.
- H. Pensa**, L'EGYPTE ET LE SOUDAN EGYPTIEN. Paris, 1895.
- H. Déhérain**, LE SOUDAN EGYPTIEN SOUS MEHEMET ALI. Paris, 1898.
- George Foucart**, UN VOYAGE D'ETUDES AU SOUDAN ANGLO-EGYPTIEN (1913-1914.) Marseille, 1916.
- A. Egmont Hake**, JOURNAL DU GENERAL GORDON, Siège de Khartoum (Traduit de l'anglais par M.A.B. avec notes et documents inédits). Paris, 1886.
- THE JOURNALS OF MAJOR-GEN. C. G. GORDON AT KHARTOUM** Introduction and notes by Egmont Hake. London, 1885
- Borelli Bey**, LA CHUTE DE KHARTOUM. 1893.
- H. C. Jackson**, BLACK IVORY. or The Story of El Zubeir Pasha, Slaver and Sultan. As Told By HIMSELF. Translated. Khartoum 1913.
- Arturo Labriola** LE CREPUSCULE DE LA CIVILISATION. L'Occident et les Peuples de couleur.
- George Padmore** HOW BRITAIN RULES AFRICA London 1936.
- E.D. MOREL**. THE BLACK MANS' BURDEN. 1920.
- Ludwig Bauer**. Leopold Le Mai-Aimé. Paris. 1935.
- Joseph Cooper**. UN COTINENT PERDU OU L'ESCLAVAGE EL LA TRAITE EN AFRIQUE (1875). Traduit de l'anglais per Laboulaye. Paris, 1876.

André Gide. VOYAGE AU CONGO. PARIS, 1927.

LE RETOUR DU TCHAD. Paris. 1928.

G. Douin. HISTOIRE DU RÈGNE DU KHEDIVE ISMAIL.
TOME III. L'EMPIRE AFRICAÏN. (Trois parties parues.
1863-1876). Le Caire. 1941.

Dr. Rouire. L'AFRIQUE AUX EUROPÉENS. Paris. 1907.

B.—L'Equatoria et l'Afrique Centrale :

Hill (George Birbeck), COLONEL GORDON IN CENTRAL AFRICA (1874-1879). London, 1884.

Douglas Murray and Silva White, SIR SAMUEL BAKER.
A. MEMOIR. 1895.

omolo Gessi, SETTE ANNI NEL SUDAN EGIZIANO.
1890—SEVEN YEARS IN THE SUDAN. Londres, 1892.

Schweitzer (Georg), EMIN PASCHA, BERLIN, 1898.

EMIN PASHA, His Life and work compiled from his journals, letters, scientific notes and from official documents. With an introduction by R. W. Felkin. Londres, 1898, 2 vol.

Schweinfurth (Dr. G.) et Ratzel (Dr. F.), EMIN PASCHA. Eine Sammlung von Reisebriefen und Berichten aus den ehemal Aegyptischen Aequatorial Provinzen und deren Grenzalen- dern. Herausgegeben. Leipzig, 1888.

Casati (Gaetano), DIECI ANNI IN EQUATORIA E RITORNO CON EMIN PACHA. Milan, 2 vol.

—DIX ANNEES EN EQUATORIA, LE RETOUR D'EMIN PACHA ET L'EXPÉDITION STANLEY. Traduit de l'italien par Louis de Hessen. Paris, 1892.

Sir Samuel Baker, ISMAILIA. Londres, 1875, 2 vol.

—ISMAILIA. Récit d'une expédition dans l'Afrique centrale pour l'abolition de la traite des noirs. Traduit par H. Vattermare. Paris, 1875.

Colonel Chaillé-Long, L'EGYPTE ET SES PROVINCES PERDUES 1892.

Colonel Chaillé-Long, MY LIFE IN FOUR CONTINENTS, 2 vol. 1912.

Junker (Dr. W.), REISEN IN AFRIKA (1875-1886); 3 vols. 1889. TRAVELS IN AFRICA; traduction anglaise par H Keane, 3 vols. London, 1890.

Vita Hassan, DIE WAHRHEIT UBER EMIN PASCHA. Berlin, 1893.

Schweinfurth (Dr. George), AU COEUR DE L'AFRIQUE (1868-1871) Traduction française, par Mme H. Lorceau. Paris; 2 vol. L'édition anglaise de cet ouvrage, IN THE HEART OF AFRICA, parut en 1873; l'édition allemande, IM HERZEN VON AFRIKA en 1874.

Harry Johnston, THE UGANDA PROTECTORATE, 2 vols. London 1902.

Captain F.D. Lugard. THE RISE OF OUR EAST AFRICAN EMPIRE 2 vols. London, 1893.

Major Austin, WITH MACDONALD IN UGANDA. London, 1903.

The Rev, John Roscoe, THE SOUL OF CENTRAL AFRICA. London, 1922.

Charles Michel, VERS FACHODA. 1900. On trouve dans cet ouvrage des détails for intéressants sur la Harrar et l'Ethiopie en 1897-1899.

Sir Gerald Portal, THE BRITISH MISSION TO UGANDA IN 1893. London, 1894.

Rev. C.T. Wilson and R.W. Felkin, UGANDA AND THE EGYPTIAN SOUDAN, 2 vols. London, 1882.

MACKAY OF UGANDA. (Mackay, Pioneer Missionary of the Church Missionary Society in Uganda). By His Sister. London 1890.

A. J. Mounteney-Jephson, EMIN PASHA AND THE REBELLION AT THE EQUATOR. A story of nine months' experiences in the Last of the Soudan Provinces. London, 1890.

F. Alexis, LA BARBARIE AFRICAINE ET LES MISSIONS CATHOLIQUES DANS L'AFRIQUE EQUATORIALE (Contenant particulièrement les actes des martyrs nègres de l'Ouganda). Paris, 1981.

A.-J. Wauters, Stanley au secours d'Emin Pacha, Paris, 1890.

C.—La mer Rouge, la Somalie et le Harrar :

Cap. Sir Richard Burton. FIRST FOOTSTEPS IN EAST AFRICA OR AN EXPLORATION OF HARRAR, Londres, 1856, 2 vol.

Ralf E. Drake-Brockman, BRITISH SOMALILAND. Londres 1912.

Gabriel Ferrand. LES COMALIS, Paris 1913.

F. L. James. THE UNKNOWN HORN OF AFRICA. AN EXPLORATION FROM BERBERAH TO LEOPOLD RIVER Londres. 1888.

R.—P. Azais et R. Chambard. CINQ ANNEES DE RECHERCHES ARCHÉOLOGIQUES EN ETHIOPIE, PROVINCE, DE HARAR ET ETHIOPIE MERIDIONALE. Paris, Geuthner 1931, 2vol.

Gabriel Ferrand. NOTES SUR LA SITUATION POLITIQUE COMMERCIALE ET RELIGIEUSE DU PACHALIK DE HARAR. Bulletin de la Société de Géographie de l'Est, 1886, Nancy.

Antonio Cecchi. SPEDIZIONE ITALIANA NELL'AFRICA EQUATORIALE DE ZEILA ALLE FRONTIERE DEL CAFFA, 3 vol. Rome 1886-87.

Ing. L. Robecchi Bricchetti. NELL'HARRAR. Milan 1896.

E. Littmann, HARAR (rarticle dans l'Encyclopédie de l'Islam).

Mohamed Moukhtar. NOTES SUR LE PAYS DE HARRAR. Bulletin de la Société Khédiviale de Géographie du Caire, 1876.

P. Paulitschke. LE HARRAR SOUS L'ADMINISTRATION EGYPTIENNE (1875-1885). Bulletin de la Société Khédiviale de Géographie du Caire, série No. 10, Mars 1887.

P. Paulitschke, HARAR, FORSCHUNGSREISE NACH DEN SOMAL UND GALLA LAENDERN Ost-Afrikas, Leipzig 1888..

Jules Borelli. ETHIOPIE MÉRIDIONALE, Paris 1890.

- Bonola Bey.** L'EGYPTE ET LA GEOGRAPHIE, Le Caire 1889.
- RED SEA AND GULF ADEN PILOT**, 1921, (Instructions Nautiques).
- D. D. Sacconi** IL GOVERNO EGIZIANO E LE TRIBU GALLA E SOMALI, L'ESPLORATORE, Anno 8, 1883, p. 169.
- Mgr. Taurin Cahagne.** LES MISSIONS CATHOLIQUES, No. 621, 29 avril 1881. No. 630, 1^{er} juillet 1881. Autour d'Harar, No. 677, 26 Mai 1882; No. 776, 2 Juin; No. 679, 9 juin.
- Gabriel Simon**, VOYAGE EN ABYSSINIE ET CHEZ LES GALLAS RAIAS, Paris, 1885.
- Dr. Philipp Paulitschke**, DIE GEOGRAPHISCHE ERFORSCHUNG DER ADAL-LANDER UND HARAR'S IN OST-AFRIKA, Leipzig, 1888.
- Dr. Philipp Paulitschke**, ETHNOGRAPHIE NORDOST-AFRIKAS, Die Materielle culture der Danakil, Galla und Somal,
- Gustavo Chiesi**, LA COLONIZZAZIONE EUROPEA NELL'EST AFRICA (Italia-Irghilterra-Germania). Roma, 1909.
- X. Rochet, d'Héricourt**, VOYAGE SUR LA COTE ORIENTALE DE LA MER ROUGE, DANS LE PAYS D'ADEL ET LE ROYAUME DE CHOA, 2 vols. Paris 1841.
- M. Guillain**, DOCUMENTS SUR L'HISTOIRE LA GEOGRAPHIE ET LE COMMERCE DE L'AFRIQUE ORIENTALE, publiés par ordre du Gouvernement, en 3 vols. (2 vols. de texte et un Atlas in-folio) Paris, 1856.
- Dr. Carl Peters**, DIE DEUTSCHE EMIN-PASCHA-EXPEDITION. Leipzig, 1891.
- Dr. F. Stuhlmann**, MIT EMIN PASCHA INS HERZ VON AFRIKA, Berlin, 1894.
- Mustafa Amer.** SOME UNPUBLISHED EGYPTIAN, MAPS OF HARRAR, BULLETIN DE LA SOCIETE ROYALE DE GEOGRAPHIE D'EGYPTE. Avril 1937.

فهرس الكتاب

مقدمة ص ٣

الكتاب الأول

السودان من محمد على الى سعيد

الفصل الأول ١ - السودان ومصر القديمة (٧) - ٢٠ - السودان ومصر
في السياسة الدولية (٨) .

الفصل الثاني (السودان من ١٨٢١ الى ١٨٦١) ص ١٠ : الميرالاي
عثمان بك . محو بك . خورشيد باشا . أحمد باشا أبو ودان . أحمد باشا
المنكلي . عبد اللطيف باشا . علي باشا شركس . أراكيل نوبار .

الكتاب الثاني

الفصل الثالث (السودان من ١٨٦٣ الى ١٨٧٧) ص ١٧ ، موسى باشا
حمدي . جعفر باشا مظهر . اسماعيل باشا أيوب .

الفصل الرابع (امتداد السودان الى البحر الأحمر والمحيط الهندي .
السومال وهرر (١٨٧٠ - ١٨٨٠) ص ٢٤ . بربرة (٣٦) هرر (٤٠) .

الفصل الخامس (امتداد السودان صوب منابع النيل) . صامويل بيكر
في أفريقيا الوسطى (١٨٧٠ - ١٨٧٣) ص ٥٠

الفصل السادس (غردون في أفريقيا الوسطى ١٨٧٤ - ١٨٧٦) ص ٥٨

الفصل السابع (غردون في السودان ١٨٧٧ - ١٨٧٩) ص ٦٥

الكتاب الثالث

السودان من سنة ١٨٨١ الى سنة ١٨٨٥

الفصل الثامن (الثورة المهدية لغاية اخلاء السودان) ص ٨٧

١ - أسباب الثورة (٨٨) ٢٠ - عبد القادر حلمي في السودان (٩٠) .

٣ - هيكس في كردفان (٩٨) .

الفصل التاسع (غردون في الخرطوم) ص ١٠٥

الفصل العاشر (المدنية المصرية) ص ١٢٨

الكتاب الرابع
ممالك السودان المتطرفة
(١٨٨١ - ١٨٩٨)

تمهيد (١٣٩)

- الفصل الحادى عشر (ساحل السومال وهرر) ص ١٤٢
الفصل الثانى عشر (ساحل البحر الأحمر) ص ١٦٢
الفصل الثالث عشر (المديرية الاستوائية أو مديريات خط الاستواء)
ص ١٧٠

- ١ - أحوال المديرية من سنة ١٨٨٠ لغاية سنة ١٨٨٨ (١٧٣)
٢ - حملة استتالي والثورة فى مديرية خط الاستواء (١٩٥)
٣ - تكوين أوغندا الجديدة (١٨٩٠ - ١٨٩٨) ص ٢٠٨

الكتاب الخامس

- الفصل الرابع عشر (السودان ١٨٨٥ - ١٨٩٨) ص ٢٣١
الفصل الخامس عشر (حدود الامبراطورية الجغرافية) ص ٢٢٩
١ - أريتريا (٢٤٣) ٢٠ - السومال الفرنسى (٢٤٥) ٣٠ - السومال
الانجليزى (٢٤٦) ٤٠ - السومال الايطالى (٢٤٦) ٥٠ - أفريقيا الشرقية
الامانية (٢٤٨) ٦٠ - مديريات خط الاستواء وحدود الكونغو البلجيكي
الفرنسى (٢٥٠) ٧٠ - حدود السودان الشرقية والحبشة (٢٥٦) - ملاحظات
عامة (٢٥٨) ٠

- الفصل السادس عشر (المدينتان فى أفريقيا) ص ٢٦١
الخاتمة ص ٢٧١
المراجع ص ٢٧٩

كتب المؤلف الأدبية

١ - أدب وتاريخ - صدر في سنة ١٩٢٧ وقد طبع بمطبعة دار الكتب المصرية (نفدت طبعته) ، ويقع في ٣٤٠ صفحة . وهو مقسم الى كتب : الكتاب الأول : محمود سامي البارودي . الكتاب الثاني : اسماعيل باشا صبري . الكتاب الثالث : تاريخ الحركة الاستقلالية في ايطاليا . الكتاب الرابع : الفصول (مختارات من مقالات المؤلف التي ظهرت في الصحف من سنة ١٩١٣ لغاية سنة ١٩٢٧) .

وقد نشرت في مقدمة الكتاب الأول الخاص بمحمود سامي البارودي رسالة من أمير الشعراء المرحوم أحمد شوقي بك هذا نصها :

سيدى الأستاذ صبرى :

أحب بك مهديا ، وأكرم بكتابك هدية ، ولا برحت توالينا بالطرف من أدبك ، وتوافينا بالتعف من كتبك ، وجعل الله لهذه الآثار وأمثالها من نتائج القرائح في مصر نماء وبركة ، في رأس مال الأمة ، من حضارة مستقبلية ، ودولة مؤهلة ، ومكان بين الممالك ومنزلة ، فما رأس أموال الأمم الا وسائل الأدب السليم ، وذرائع العلم الصحيح ، وكل أدب سليم فهو أدب كل زمان ، وكل علم صحيح فهو علم كل أوان . سألتني عن رأي في رسالتك الجلية فان كان له من القيمة ما زعمت فهو رأي الغواص في الجمالة ، والبستاني في الريحانة والتجر في معتقة الحانة ، ترجمة كلها حسن وأحسن ما فيها المترجم ، وتحلية كلها روعة وأروع ما فيها المحلى ، منكب كريم اجتمع لشهوات الدهر فيه ما تفرق في البرامكة من جاء يطويه ، ونعيم ينويه ، وولد يرديه ، ونور يطفيه ، وحسب وضاح يخفيه ، وحكم بالأمس نافذ يحكم فيه . جاووته بحلولان الشهور الطوال يشد بيتينا طنبا ، وينتظم دارينا جدار . فاذا الجار كريم ، واذا الشاعر عظيم ، ما سمعته مرة عرض شعره على جلسائه ، ولا رأيته الا سقيما من الحياء كلما عرض شعره عليه ، وهكذا كان رحمه الله اذا جرى ذكر الحوادث العرابية توارى بالاطراق حتى يمسك المتكلم . سأله مرة صبرى باشا : هل له مذكرات عن الثورة ؟ فقال لا ، قال : وما منعك ؟ قال علمي بأن الفضب في طباعى وخوفى من أن يملكنى عند بعض الذكريات فيبغى القلم على الرجال . فقال حامد بك خلوصى وكان ممن ضم المجلس ، صدقت ، ألسنت القائل (ونفضب في شرورى نقيير فنشتد) فتبسم رحمه الله ثم قال : ولا يفضبنى مثل حديث

الثورة فلننخض في غيروه • وعلى ذكر الثورة أقول للأستاذ انه كان له غنى
عن الاشارة الى مواقف المرحوم البارودى فى الحوادث العراقية فان ذلك من
مسابقة التاريخ ما فيه ، ومن سابق التاريخ لم يأمن أن يفضل الاعقاب ،
ويعرف مواضع التبعات من الرقاب •

٢ يولية سنة ١٩٢٣

المخلص

شوقي

٢ - الشوامخ • الجزء الاول : امرؤ القيس • طبع بمطبعة دار الكتب
المصرية سنة ١٩٤٤

٣ - الجزء الثانى : الشعر الجاهلى خصائصه وأعلامه • طبع بمطبعة دار
الكتب المصرية سنة ١٩٤٤

٤ - الجزء الثالث : ذو الرمة • طبع بمطبعة دار الكتب المصرية
سنة ١٩٤٦

٥ - الجزء الرابع : أبو عبادة الجعفرى • طبع بمطبعة دار الكتب المصرية
سنة ١٩٤٦

وتمن الجزء الواحد من الأجزاء الثلاثة الاول ٣٠ قرشا • وتمن الجزء
الرابع ٤٠ قرشا •

وانا نجنزى هنا بنشر رسالة من شاعر القطرين خليل مطران بك الى
المؤلف بمناسبة صدور الجزء الاول :

حضرة الصديق الكريم الدكتور محمد صبرى بك •

بعد التحية والاكرام -

الداء الذى ساورنى فى هذه الايام عاقنى عن أداء واجب الشكر لما
أتحتنى به من التحفة الغالية وأعنى بها النسخة من كتابك « الشوامخ » •
وما زلت الى هذا اليوم غير قادر على بذل أى مجهود فكرى يعتمد به غير
أننى بوجه اجمالى موجز أرى أن الشعر كلما اتصل بالفطرة كان من الفن
الاصيل ، وكلما بعد عنها أفضى الى العمل ، وهو فن آخر أى فن الصناعة ،
وشتان بين الاصل والنقل وبين الابداء والمحاكاة •

ألم تر الى شعر هوميروس كيف بقى عند الفرنجة بمنزلة الينبوع
الصافى الذى استقى منه جميع أدبائهم على اختلاف مواطنهم ومذاهبهم
وأهوائهم ونزعاتهم •

ولقد تكلف الفرنجة ما تكلفوا ليفهموا هوميروس وليقتبسوا من لغته
القديمة المجهولة ما اقتبسوا ونحن لم نتكلف ولا نتكلف شيئا لفهم أمرا

القيس وأضرابه من أيام الجاهلية فيغيّبون عنا ونحكم عليهم لا لهم .
ولولا أنك جئت تفهمنا معاني امرئ القيس ولولا الدكتور طه حسين
بك وما جهد ليشرح به آيات الشعر الجاهلي الصادق النسب ولولا آخر
كتاب للأستاذ عباس محمود العقاد في جميل بثينة لبقيت كنوز الشعر
الجاهلي بعيدة عنا نأخذ منها عن الأجانب ما نأخذ ولا نفقه أن لها عندنا أصلاً
كريمًا جديرًا بأن نعني به .

بعد كتابة ما تقدم على علاته أوجه اليك ثنائي الخالص عليك بأبيات
نجرت على قلبي حين فرغت من مطالعة كتابك وهي :

بعد ألف وبعد بضع مئات أنصفت عبقرية الضيّل
نضى السطر عن جلال امرئ القيس بسفر من البيان جليل
رد صبرى الواحسه فتجلت من خفاء آيات فن جميل
واذا الحسن ند عنه حديث طلب الحسن في العتيق الأصيل
آفة الفن جهله كيف والأء لام تطوى ما بين جيل فجيل
انما الراى ما أبنت وهل أبـ بلغ مما أقمته من دليل
المخلص ٤٤/٤/١٨

خليل مطران

كتب المؤلف التاريخية

وضع المؤلف عدة كتب بالفرنسية أهمها الكتابان اللذان أشار إليهما في المقدمة وكلاهما يقع في حوالي ٦٠٠ صفحة من القطع الكبير ، وقد نفدت طبعتهما : الامبراطورية المصرية في عهد محمد علي والمسألة الشرقية ، والامبراطورية المصرية في عهد اسماعيل والتدخل الانجليزي - الفرنسي .

(آراء النقاد والعلماء في الكتاب الأول)

(عصر محمد علي)

(١) مجلة وفي في فرنسا عدد أول يولية سنة ١٩٣٠ : « هذا الكتاب الضخم يسجل أهم حقبة في تاريخ المسألة الشرقية ، تلك الحقبة التي تمكن فيها محمد علي بمساعدة ابنه ابراهيم من النهوض بمصر . وقد كان الحيط الذي اهتدى به في بحثه هو تحليل شخصية محمد علي فتمكن بهذه الطريقة من تجديد ذلك التاريخ تجديدا شاملا مع أنه كان من قبل موضوع دراسات طويلة وكان الغموض والتعقيد يكتفانه من كل جانب .

(٢) - مجلة مدرسة الدراسات الشرقية بلندن . المجلد السادس القسم الاول - سنة ١٩٣٠ - بقلم هنري دودويل : لا شك أن المؤلف قد اضطر الى عمل مجهود ضخم لتأليف هذا الكتاب الكبير . وقد انتفع بعدد لا يحصى من الوثائق والمستندات المستخرجة من مصادر متنوعة جدا . وقد يكثر من ذكرها باسهاب ولكن بفن . ولا جدال في أن أهمها وأعلىها قيمة الرسائل المتبادلة بين الباشا الكبير وابنه ابراهيم ومتابعاته من رسائل وزارة الخارجية المسبوبة فهذه كلها جديدة للجميع . وهذا هو السبب الذي من أجله يلقي ذلك الكتاب ضوءا كبيرا جديدا على حياة محمد علي السياسية .

(٣) - جريدة البورص أجيسيان بالقاهرة - مقال بقلم المؤرخ الفرنسي جيمار بنارنج أول يولية سنة ١٩٣٠ : « سيطالع القراء يشغف الموازنة التي خطتها يد صنّاع بين محمد علي وابراهيم ، موازنة خرج فيها الدكتور صبرى على الاساطير الموروثة واجتراً احيانا على تفضيل الابن الجسور على الاب المفرط في المراقبة والحذر .

ولا بد من دراسة طويلة جدا لتحليل كتاب الدكتور صبرى تحليلا كاملا . . . وحسبنا أن نقول أن الكتاب الذى نحن بصدد عمله ضخم جبار اضطر المؤلف الى الاطلاع على مجموعة هائلة من أوراق المحفوظات الخطية ومن المستندات المطبوعة . وإهم من ذلك انه بحث جديد بكل معانى الكلمة لانه أتى لنا ، فى مسائل كان يعتقد البعض أنها أصبحت مستنفدة، بنظرات بكر لامعة .

(٤) - مجلة تاريخ المستعمرات الفرنسية . فصل كتبه المؤرخ الكبير شارل رو السفير القديم ورئيس شركة قناة السويس وأحد أعوان هانوتو (عدد يناير - فبراير سنة ١٩٣١) :

« ان أول مزية لصبرى هى الطريقة التى صاغ بها موضوعه المحدد بالدقة فى العنوان . وقد بلغت الازمة الطويلة ، التى لزمته المسألة الشرقية ، أوجها فى سنة ١٨٤٠ . وكانت أهميتها السياسية ترجع فعلا الى تطورات الامبراطورية التى أسسها محمد على وكانت مصر نواتها قبل أن ترجع الى حيانه الشخصى . ولا شك أن تكوين هذه الامبراطورية ، العربية فى جوهرها ، هو الذى حرك المسألة الشرقية فى أعنف أشكالها وساق الى حلها حلا - ان لم يكن كاملا فقد كان جزئيا بسعة - ولكن أوروبا فى ذلك الوقت باستثناء فرنسا ، لم تكن راضية عنه .

« كان رد العمل عند الدول الأوروبية ازاء ذلك الحادث ذى الأهمية الدولية الكبرى ، وكان تقطيع أوصال الامبراطورية المصرية وبالأحرى تدميرها هما المظهر المحزن لتلك الازمة التى بلغت نهايتها فى سنة ١٨٤١ .

« ذلك هو الضوء الذى تبدو فيه الحوادث فى كتاب صبرى . الذى يصف موضوع النزاع لا باعتباره خلافا حول أطماع قابض وحشوق متبوع فحسب بل باعتباره قبل كل شيء خلافا حول نظرية سياسية جديدة ونظام قديم عفى عليه الزمن .

« وتنجلي مزية أخرى لصبرى فى تنوع مستنداته وكثرتها . ولما كانت مصادر المحفوظات الرسمية للعدة من سنة ١٨٣٢ الى سنة ١٨٤١ لم تفسح للجمهور الا من عهد قريب نسبيا فان كتاب صبرى فى مقدمة الكتب التى تمكن فيها صاحبها من مقارنة الوثائق التى أودعت فيها حكومات كثيرة فكرتها السياسية . وهذه المستندات ، التى لم يسبق نشر معظمها ، قد ساعدته على الاتيان بجديد فى موضوعه على الرغم من كثرة تعرض الباحثين له من قبل وهذه أولى فضائل هذا الكتاب فى نظر المشتغلين بتاريخ الشرق .

« وليس فى مقدورنا فى حيز هذا النقد المحدود متابعة المؤلف فى

تحليله السياسات المختلفة التي تصادمت في غضون هذه الأربعين سنة .
ولكن مما لا ريب فيه أن هذا التحليل قد صحح أوضاعا وآراء كثيرة :
عمد على نفسه وانجلترا وفرنسا . هذه « الأشخاص » الثلاثة التي لعبت
دورا رئيسيا في الحوادث التاريخية الطويلة قد عرف صبرى كيف يكشف
عن سياستها واتجاهاتها المختلفة المتعددة الوجوه وهي كثيرا ما تختلف عن
الأوضاع التي صيبتا في قلبها وحفلتها التقاليد المطبوعة بطابع البساطة
والتي لا ترى الأمور إلا من ناحية واحدة .

« لقد فاتح محمد على انجلترا وتقرّب إليها ووضع آماله في مساعدتها
لتحقيق استقلاله . وجعلته انجلترا يتعلق بذلك الوهم ويعتقد أنها لا تمنع
في أن يحقق استقلاله بمصر ويبسط سلطانه على الشام . أما فرنسا فإنها
لم تطلق له العنان وجعلته يحس « الشكيمة » وخفت من غلوائه دون أن
يمنعها ذلك من تأييده بكل قوة في اللحظة الحاسمة » .

« وقد أظهر صبرى تطورات وتقلبات عوامل هذا النزاع « الدراماتيقي »
الذي وضع على البساط مصير الشرق بل وسلم أوروبا ومصالح دولها
الحوية .

« وطبيعى في أزمة طويلة كهذه ذات نتائج لا تحصى لم يكن في مقدور
سياسة أي رجل وبالتالي سياسة أية حكومة أن تظل في خطة واحدة ، في
وحدتها التي جمعتها فيها بغير هوادة الصور الاصطلاحية في التاريخ
السطحي . وقد كان استمرار الهدف لكل دولة يحول دون الاستمرار المطلق
في الوسائل كما يتصورها خطأ المراقبون الذين لم يؤتوا من العلم إلا
قليلا .

« وقد برز وجه محمد على في كتاب صبرى بلامح تكلم الاسطورة
التي جرت في أثناء حياته نفسها حول مغامراته الهوجاء ومواقفه العنيدة .
وتؤلف الوثائق التي استعملها مؤرخه شخصية سياسية قد لا يتردد في
المخاطرة الكبرى - وهو ما كانت تقضى به ظروفه وخطته في سبيل الوصول
إلى غايته - ولكنه مع ذلك كان يقدر كل خطوة يخطوها ولا يلقى بكل
أوراقه . ففي حروبه في سبيل السلطان وفي حروبه ضده كان ينظر دائما
بعض بعظة صوب أوروبا ، وكانت أوروبا نصب عينيه كلما تحركت أطماعه
ولكن هذه الأطماع كان فيها من الروية والتبصر ما لا يبدو لأول وهلة » .

(٥) - مجلة الأدب المستشرق (التي تصدر في ليزج) سنة ١٩٣١
عدد ٧ . بقلم هازنكليفر الأستاذ بجامعة جيتجنج :

« دراسة كبيرة رائعة مؤسسة على مواد محفوظات واسعة جدا . . ومن

الممكن طبعا نقد نقط تفصيلية ولكن بما ان المسألة لا تخرج عن نقط تفصيلية
فأني أتحامى التعرض لها اذاء عمل كهذا قد أحكم بناؤه الى أقصى
حد .»

«٦» - ويقي بلييه . (باريس) . أول أغسطس سنة ١٩٣١ . بقلم
بول فايل :

« كتب صبرى تاريخ حياة محمد على ودرس في حدودها جميع المسألة
الشرقية من سنة ١٨٢٠ لغاية سنة ١٨٤١ وخصوصا الازمة الأوروبية من
سنة ١٨٣٩ الى سنة ١٨٤١ . فما أحفل هذا الكتاب بالوقائع المستقاة من
مصادر المحفوظات الخطية وما أعظم أمانة المؤلف العلمية في التعليق والشرح
وما أجمل رصانة أسلوبه . وهوما سيثبتينه القارئ نفسه حين يطالع ذلك
الكتاب الكبير الذى يرسم صورة كلها حياة للعاهلين الباشا وابنه إبراهيم ،
مؤسس امبراطورية سورية زائلة ومؤسس دولة مصرية كفل لها البقاء .
وقد رفع الأديب الكبير صبرى لذكراهما هذا العمل الضخم الذى هو
خير ما تطيب له نفساهما .»

«٧» - مجلة الجمعية الآسيوية (لندرة) . يناير سنة ١٩٣٢ بقلم
الكولونيل الجود :

« قد يكون هذا الكتاب طويلا جدا للقارئ المتوسط ولكن العلماء
سيذكرون للمؤلف جلسه فى البحث فى محفوظات القاهرة وباريس ولندرة
وفينا . وحسب اندكتور صبرى أنه لم يخف أى شئ هام على بصره التافذ .
والكتاب فى مجموعه قد كتب بروح نزيهة جادة عادلة .»

(٨) - مجلة بوليبليون الباريسية . عدد مايو سنة ١٩٣١ . بقلم
هنرى جيران :

« منذ قرون عدة لم تلعب مصر فى تاريخها دورا هاما كالدور الذى
لعبته فى عصر محمد على خصوصا من سنة ١٨٢٠ الى سنة ١٨٤٠ وهى
الحقبة الحاسمة فى تاريخ الازمة الشرقية .»

« كانت هذه الحقبة الهامة من التاريخ الحديث غامضة فى بعض نواحيها
ان لم تكن مجهولة فكشف عنها المؤلف : مثال ذلك المفاوضات الطويلة التى
جرت بين شارل العاشر ومحمد على لعمل حملة مشتركة ضد داي الجزائر
قبل حملة سنة ١٨٣٠ ، وكذلك الانحراض والمراعى الحقيقية التى كانت
تنطوى عليها معاهدة أونكيار - اسكيبليسي المعقودة بين روسيا وتركيا فى
سنة ١٨٣٣

« وليس في مقدورنا أن نوفي حقها من الشاء تلك الدقة في الحكم على السياسة الأوروبية إزاء الحكومتين لنايئة والمتبوعة ، المتنازعتين على السيادة في الشرق » .

« ان الوثائق الكثيرة جدا المستخرجة من المحفوظات الكبرى مترجمة أو منقولة في صلب الكتاب (لا في الهامش كما يفعل الكثيرون) تكشف لنا عن اضمحلال الباب العالي ونهضة محمد علي وما فيها من عزيمة وذكاء ، ومناصبية انجسترا له العداء الطويل مملثة في شخص بالمرستون وبونسني ، مستعينة في صراعها بالدول الكبرى ، ما خلا فرائسا التي لم تستطع - بفضل تمسكها بنظرية (خير الامور الوسط) التي كانت عزيزة على لويس فيليب - الا ان تكفل لوالى مصر الحكومة الوراثة في وادى النيل » .

(٩) مجلة المستعمرات الايطالية التي كانت تصدرها وزارة المستعمرات الايطالية ، عدد نوفمبر سنة ١٩٣٠ :

« ان هذا الكتاب عمل جليل في تاريخ المسألة الشرقية الشهيرة التي طال بحثها ولكن دراسة صبرى يبرز فيها طابع خاص لأسباب عديدة اولها : نجاحه في الكشف عن بواطن واتجاهات سياسات انجلترا وفرائسا وروسيا والباب العالي إزاء مصر كشفا لا هوادة فيه بفضل الوثائق التي استخرجها من وزارات الخارجية المختلفة ٠٠٠ ومنها الرسائل التي مكنته من تحليل شخصية المعاملين واطهارها في ضوء جديد ٠٠٠ ألخ ألخ ٠٠ » .
« بالجملة فان هذا الكتاب في مجموعته جديد في أسلوبه وأسانيده وطرائقه » .

(١٠) مجلة لاروس الشهري ، عدد يناير سنة ١٩٣١ ، بقلم روبر ديفورك :

« هذا كتاب عظيم جدا وقد درس فيه صبرى مؤسس الامبراطورية المصرية : وهو تاريخ عهد أولا ولكنه أيضا تاريخ سياسى (ديبلوماطيقى) لمرحلة من أهم مراحل القرن التاسع عشر والمسألة من كبريات مسائل التاريخ التي لا تزال نحس آثارها الى اليوم » .

(١١) وكتب جورج دوان في كتابه (حرب الشام الأولى) ، « الذى ظهر بالفرنسية في سنة ١٩٣١ » :

« . . على ان التاريخ العام لذلك العصر قد كتبه الدكتور صبرى (الامبراطورية المصرية في عهد محمد علي والمسألة الشرقية) بأسلوب يدل على نبوغ يطيب لنا أن نتحنى له اجلالا » .

(آراء النقاد والعلماء فى الكتاب الثانى)

(عصر اسماعيل)

(١) - مجلة العالم الاسلامى • الانجليزية • عدد ٢٥ يولية سنة ١٩٣٤ :
« أظهر المؤلف فى هذا الكتاب ما اتصف به من ذاب وتبسط فى العلم
فى كتابه الأول الخاص بتاريخ محمد على وهويمشى قدمافى إقامة ذلك الصرح
الرفيع فى تاريخ مصر السياسى »

(٢) مجلة مدرسة العلوم الشرقية • بجامعة لندن عدد ١٠ فبراير
سنة ١٩٣٤ :

« ان كتاب الدكتور صبرى عمل بنى على البحث وانه مدعم بالوثائق
وانه - سوى فيما يتعلق بمسائل السياسة الأجنبية - قائم على الانصاف
والاعتزان »

(٣) - مجلة العلوم الدينية • التى تصدرها جامعة • استراسبورج •
سنة ١٩٣٤ :

بعدها أشار صاحب المقال الى عصرى عباس واسماعيل والى الصراع
الجبار الذى دار بينهما حول « المصالح » بين فرنسا وانجلترا من ناحية
وبين هاتين الدولتين ومصر من ناحية أخرى والى أن دور المحفوظات قد
انفتحت على مصاريعها للمؤلف قال : « وبذلك أمكنه الكشف عن حقائق
كثيرة كانت مجهولة ... ومهما كان من الأمر فإن هذا الكتاب قيم بلاشك
وهو أول تاريخ لمصر فى ذلك العهد »

(٤) مجلة الأتليستراسيون الفرنسية • عدد ١٨ نوفمبر سنة ١٩٣٣ :

بعدها أشار الناقد الى النزاع الاستعمارى بين دول أوروبا فى أفريقيا
والى اتساع مصرفى وادى النيل والسودان والصومال وهرر وأغندة وغيرها
وعلاقة مصر بالمشاكل الأفريقية وما اكتشف هذه العلاقة من عناصر متشابكة
لا حصر لها مالية وسياسية واقتصادية قال : « ان المؤلف قد فصل لنا هذه
الحوادث وتفتح الحياة فى ذلك التاريخ القريب منا بقوة الأسلوب وتوخى
أقصى حدود الدقة فى أسانيده »

(٥) - مجلة بوليبليون الفرنسية • سنة ١٩٣٣ :

بعدها أشار الناقد الى عصر اسماعيل وفضائحه المالية التى أخذت منها
بتصليب شركة قناة السويس قال : « ان الصفحات الخاصة بفردون ليست
أقل الصفحات امتاعا فى ذلك الكتاب المتملى روعة من أى النواحي نظرت
اليه ... »

« ان هذا الكتاب ليس أقل من سابقه وهو يضاف على صاحبه أكبر
الفخر »

(٦) - مجلة الجمعية الجغرافية بباريس • عدد ديسمبر سنة ١٩٣٣ :

« ان صبرى العالم المصرى قد اخذ على عاتقه كتابة تاريخ مصر من محمد على الى اليوم . . . وان هذا الكتاب الذى هو عمل ضخم مدعم بالمستندات الكثيرة من وضع مؤرخ مصرى يفتح لنا فى تاريخ مصر المرتبط بتاريخ أوروبا سبلا جديدة ، لم تطرق من قبل ، عظيمة الشأن »

(٧) مجلة الشهر (ليموا) • عدد ١٠ يناير سنة ١٩٣٤ :

« ان هذا الكتاب الفخم الذى وضعه الأستاذ العلامة صبرى يشهد لنا ان الفضائح المالية لم يخل منها بلد ولا زمان . . . وقد أظهر صبرى بقوة ان فرنسا فى ذلك العصر لم تكن أسلم طوية من انجلترا وقد برر المؤلف رد الفعل الذى حدث فى مصر وقتئذ ضد الدول الأوروبية التى كان أكبر همها التفرير بمصر وسلبها ونهبها »

« ولا ريب ان هذا الكتاب عظيم الشأن من كل النواحي »

(٨) مجلة الدراسات التاريخية بباريس • عدد يولييه سنة ١٩٣٤ :

« هذا كتاب رائع جدا مدعم بمستندات رسمية معظمها لم يسبق نشره . وهو يبحث فى عصر هام من تاريخ مصر والتوغل الأوربى فى أفريقيا وهو ليس تاريخا سياسيا كما يصفه المؤلف فحسب بل تاريخا اقتصاديا واستعماريا يجدد فى نواح كثيرة موضوعا كنا لا نعرفه حق المعرفة . وقد ظهرت شخصية غردون الغامضة فى جلاء رائع وبانت مسألة قناة السويس فى جميع بواطنها الخافية »

(٩) مجلة افريقيا الفرنسية • عدد فبراير سنة ١٩٣٥ :

« ان الوثائق التى أتى بها المؤلف تظهر فى صورة غير مشرفة الوسائل التى لجأ اليها دلسبس للتحايل على ابتزاز المال من الحديوى اسماعيل . وقد بسط المؤلف المراحل السياسية المختلفة بقوة نفاذة وبانت ملامح جديدة فى شخصية غردون الغامضة »

(١٠) مجلة الآداب المستشرقة التى تصدر فى ليبزج • بقلم الأستاذ

هازنكلير بجامعة جيتنجتن • عدد ٥ من سنة ١٩٣٥ :

« ان هذا الكتاب الثانى ليس أقل روعة وشأنا من الاول وانه مثله تماما فى توخى الدقة فى البحث وفى براعة العرض والبناء وفى تنوع فصوله ومناحيه »

(١١) المجلة الأمريكية التاريخية • بقلم هوسكنز الأستاذ بجامعة تفتس :

« ان الكتاب فى مجموعه قد كتب بدقة واحكام وبطريقة علمية رائعة منزّه عن كل مأخذ . وفى الكتاب وجهات نظر جديدة لها شأنها وحسبه أنه يفيض ضوءا جديدا على مرحلة هامة من تاريخ التدخل الأوربى فى أفريقيا »

تحت الطبع

في السياسة والأدب والاجتماع - سيشتمل هذا الكتاب على أهم المقالات والأبحاث التي نشرها المؤلف في عشرين عاما من سنة ١٩٢٧ لغاية سنة ١٩٤٨ • وسنزيد عليها فصولا قديمة لم تنشر في كتاب (أدب وتاريخ) وفصولا جديدة لم تنشر مطلقا •

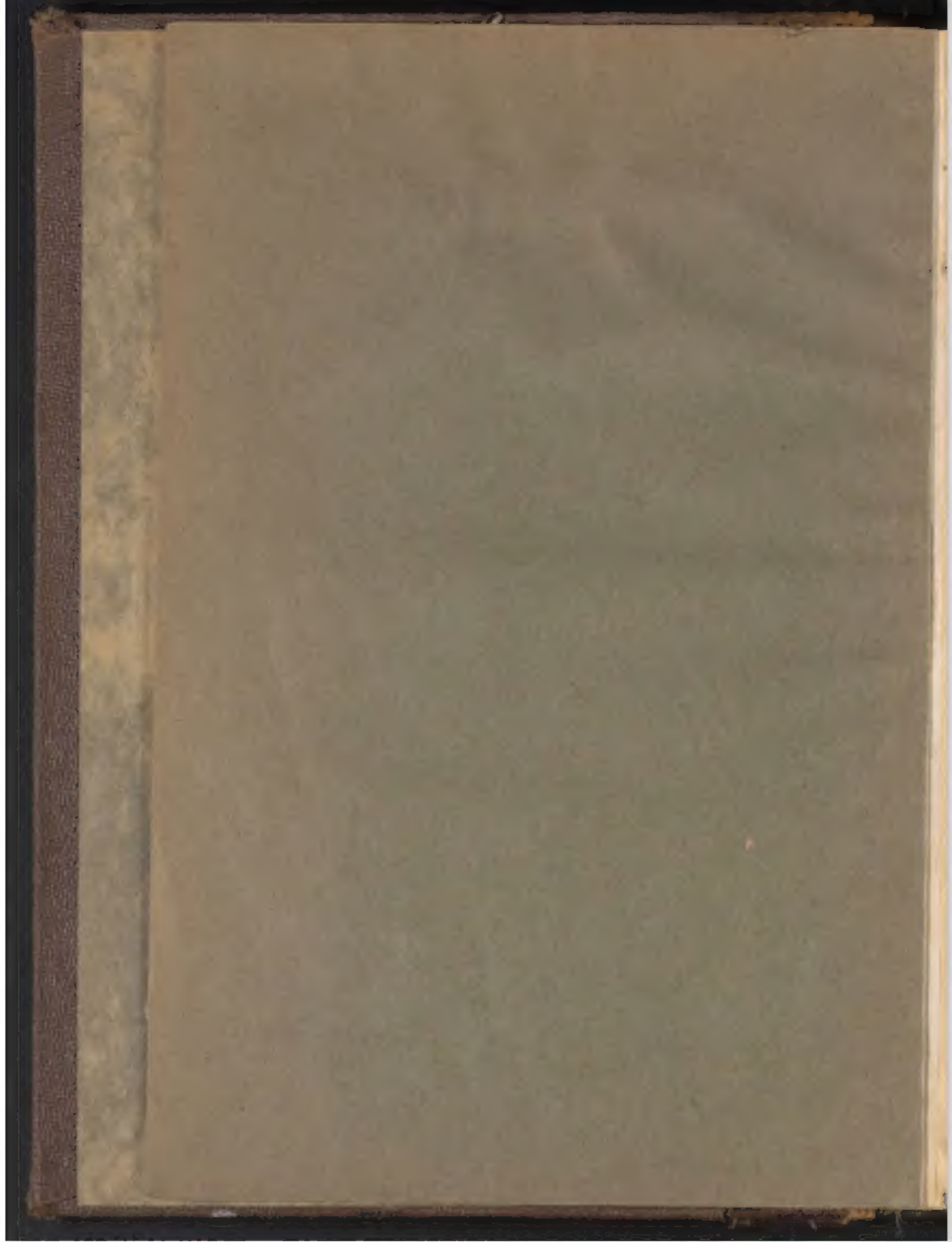
▲

▲

▲

▲

.....





1 0 0 0 0 0 8 4 6 4 2

1979

M12

DT
108.1
S3x
1948

MAR 6 - 1997

